مايا كوفسكي

المجلس الأعلى للثقافة
١٩٩٨

غيمة في بنطلون

وقصائد أخرى

ترجمة وتقديم

رفعت سلام

غيمة فى بنطلون

المجلس الأعلى للثقافة

مايا كوفسكي

غيمة في بنطلون

وقصائد أخرى

ترجمة وتقديم

رفعت سلّام

« أنــا ،
من يُثيرُ قَهقَهةَ القبيلَة المعاصِرة ،
كنُكتة طويلة وفاحشة ،
أرَى الآتي عَبرَ جبال الزَمن
أرَى مَا لَم يره بعدُ أحد . »

مايا كوفسكي :
أزمنة للثورة والانتحار

- ١ -

« ويعُودُ أبنَاءُ الأرضِ إلَى أمِّهم ، الأرض .. »

« إلى الجميع ، إنى أموت الآن . ولا أتهم أحداً .. ولا أريد أدنى ضجة ، فالموتى يبغضون ذلك . يا أمى ، يا إخوانى ، يا رفاقى ، سامحونى ، إن ما فعلته ليس مخرجًا ولا أنصح به أحداً ؛ لكنه كان مناسبًا لى ، ولا حلٌ آخر غيره كان يلائمُنى .

يا ليلى .. أعْطِينى حُبّك ..

إلى رفاقى فى الحكومة .. إن أسرتى هى ليلى بريك ، وأمى وأخواتى . فإذا كنتم تستطيعون تسهيل حياتهم ولو قليلاً ، فالشكر لكم ..

لقد ابتدأت الأشعار ، فاعْطُوها إلى آل بريك ، فسيجدون أنفسهم فيها ..

وكما يقال

« لَقَد انتَهَى أمرٌ تَافِه » ...

وقَاربُ الحُب

قَد تَحطَّم علَى صَخرةِ الحَيَاةِ اليَوميَّة .

لَقَد زهدتُ الحَيَاة .

وعَجزتُ عَن أن أُعبِّرَ عَن أحزَانِها

وعثَراتِها ، وأخْطَائِهَا المُشْتَركَة .

ولْتَنعَمُوا بِالسَّعَادَة »

وفى اليوم التالى ، عندما اكتشفوا الواقعة ، كان وجهه هادئًا ، لا يشبه أبداً وجوه الموتى . وكان شهود الجريمة دم ومسدس ، ورسالة أخيرة .

وكان مناخ الحصار هو القاتل .

* * *

« وحَيثُ تَتَوقَّفُ عُيُونُ البَشَرِ ، قَاصِرَةً ،
عندَ رَأْسِ الحُشُودِ الجَائعَة ،
فَإنَّنِى أرَى مِن بَعِيدْ
عَامَ ١٩١٦ يَقتَرِبُ وَئِيداً
مُتَوَّجًا بِأكَالِيلِ الثورَة » .

(أ)

كان زمنَ الغليانِ ، والعواصِف ، والرِّياحِ القَادمَة .

كان الجميع يأتون من الأقاصى ، مشرعين قبضاتهم المهدّدة ، وملامحهم المتوعدة ، وميراث الألم العظيم . كان الجميع يأتون : عذابات قرون من القهر والتنكيل ، وأجمل سنوات العمر التى تضيع فى المنفى السيبيرى ، ودماء أجمل الفرسان التى لم تشربها الثلوج ، ورصاصات الإعدام لكل من تجرأ ورفع رأسه ، أو صوته ، فى مواجهة التاج القيصرى . يأتى « بوشكين » حاملاً دمه الضائع فى مبارزة قيصرية تحمل جميع ملامح المؤامرة . يأتى الديسمبريون الخمسة المشنوقون فى قلعة بطرس وبولس . يأتى « بوجاتشوف » وعشرات الآلاف من فلاحى انتفاضته العظيمة ، يأتى « دستويفسكى » حاملاً « مذكرات بيت الموتى » السيبيرى . تأتى عشرات الانتفاضات الشعبية المنكسرة أمام بوابات قصر الشتاء العتيد .

يأتى الجميع .

فَلَقدْ كانَ زمنَ العاصِفَةِ القَادمة .

(ب)

فى ذلك الزمن - أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين - كانت الأوضاع الاجتماعية / الاقتصادية فى روسيا ، تضج بالتناقضات .

فقد تطور الإنتاج الكبير بشكل أسرع من الإنتاج الصغير والمتوسط . وتتزايد كميات البضائع ، لتفوق الطاقة الشرائية لدى المستهلكين ، فتنخفض الأسعار والأرباح ، ويتقلص الإنتاج ، وتوصد المؤسسات أبوابها ، إلى أن يحل التوازن فى السوق بين العرض والطلب . وتكون ضربةً قاسيةً للاقتصاد الروسى .

وكان العمال يحصلون على أدنى الأجور ، فيما كانوا يشتغلون أطول يوم عمل ، إذ كان يصل عمليًا إلى ١٣/١٢ ساعة ، برغم تحديده - وفقاً للتشريع القيصرى - بـ ٥ر١١ ساعة . وكان مستوى الأجور متدنيًا إلى الحد الذى لم يكن يسمح بإعالة عائلة صغيرة ، فاستخدم الأولاد والنساء على نطاق واسع مقابل أجر يقل كثيراً عن الأجر المتدنى الذى يحصل عليه الرجال .

وضاعفت الأزمات الاقتصادية المتكررة من تدهور وضع العمال ؛ فقد تفاقمت البطالة ، وانخفضت الأجور ، وازدادت ساعات يوم العمل ، وبذل أصحاب الأعمال جهدهم لإلقاء ثقل الأزمة كلها على كاهل العمال .

ومن ناحية أخرى ، كانت الهوة شاسعةً بين كبار ملاك الأراضى والفلاحين . فلم يكن بمقدور الفلاحين إعالة عائلاتهم من المساحات الصغيرة التى يملكونها ، فاضطروا إلى استئجار أراضى الأسياد ، الذين فضلوا استثمار الفلاحين بأساليب نظام القنانة القديمة . وتجلى تأخر الزراعة الروسية فى التخلف التكنيكى الكبير ، حيث ظلت أساليب الزراعة على حالتها البدائية .

وكانت النتيجة المباشرة مجاعات دورية تتكرر كل خمس سنوات تقريباً . فالقحط الذى أصاب البلاد عام ١٩٠١ ، والذى صادف وقوع الأزمة الصناعية ، أدى إلى مجاعة شملت مناطق واسعة من القسم الأوربى فى روسيا ، ولم تتخذ السلطات القيصرية فى مواجهة المجاعة سوى ما أسماه « تولستوى » بمساعدة الطفيلى الذى ينوى تغذية النبتة التى يتغذى من عصارتها .

لقد اقترنت الرأسمالية المتطورة - نسبيًا - فى روسيا ، ببقايا كثيرة من نظام

القنانة . ووقفت القيصرية حارسًا على مصالح الطبقات المسيطرة ، لتضمن للملاك العقاريين والرأسمالية إمكانية نهب الشعب الروسى والقوميات الأخرى ، بلا رادع .

(جـ)

ولم تهدأ الإضرابات والانتفاضات الشعبية فى روسيا القيصرية ، برغم الشراسة البوليسية فى مواجهتها ، وأحكام التنكيل بالمشتركين فيها .

ولكن إضراب « موروزوف » عام ١٨٨٥ يشكل مرحلةً جديدة . فقد اتسم الإضراب - فى بادئ الأمر - بطابع العصيان ؛ إلا أن قياداته العمالية استطاعت وقف أعمال التخريب ، وتوجيهه فى الطريق الصحيح : مواجهة الإدارة بضرورة زيادة الأجور ، وتنظيم الغرامات على العمال ، وتأمين استلام البضاعة المصنوعة فى حضور شهود ، ودفع أجور أيام الإضراب ، وأن تنذر الإدارة العامل فى حالة تسريحه قبل ١٥ يوماً من التنفيذ . وتضامن عمال مؤسسات النسيج المجاورة مع عمال « موروزوف » المضربين ، ليمتد الإضراب ، ويبدأ القمع القيصرى البوليسى .

وفى نفس العام - ١٨٨٥ - وصل عدد الإضرابات إلى ٥٨ إضرابًا . وفى ١٨٨٧ ، أضرب عمال ٨٣ مؤسسة .

وفى مايو ١٨٩٦ ، أضرب ٣٠ ألف عامل من عمال النسيج . وفى يناير ١٨٩٧ ، انفجر إضراب فى بطرسبرج ، اشترك فيه ٢٠ ألف شخص .

ويبلغ مجموع الإضرابات التى انفجرت من عام ١٨٩٥ إلى ١٨٩٩ : ٧٣٥ إضرابًا ، اشترك فيها أكثر من ٢٢٠ ألف شخص . وكانت المطالب الرئيسية هى تخفيض ساعات يوم العمل ، وزيادة الأجور .

(د)

وتزايد إيقاع الإضرابات والمواجهات :

وكانت مظاهرات أول مايو ، التى جرت فى مدينة « سوروموفو » ، وإضرابات « باكو » و « روستوف » ، على نهر الدون ، من أهم الحركات النضالية فى عام ١٩٠٢ .

فقد نزل خمسة آلاف عامل فى شوارع « سوروموفو » ، فى أول مايو ، وهم ينشدون الأغانى الثورية . وكان العامل الشاب « بيوتر زالوموف » يحمل راية حمراء كُتبَ عليها الشعاران : « فليسقط الحكم المطلق » و « عاشت الحرية السياسية » . واستدعيت القوات العسكرية لمواجهة المتظاهرين .

ويروى « زالوموف » :

« مشينا .. وقصرت المسافة بيننا وبين الجنود بسرعة . كنا غير مسلحين فى مواجهة جنود مسلحين حتى إخمص أقدامهم . ولكن لم يصب الرعب احداً من الرفاق ، ولم يترك الصفوف .. وها هو الضابط يأمر بصوت قوى : « البنادق على اليد ! إلى الأمام سر ! » .. واندفع الجنود نحونا ، وحراب بنادقهم موجهة إلى صدورنا .. وكما كان متفقا عليه من قبل ، تغلغل المتظاهرون وسط الجماهير واختفوا فيها . وبقيت جماعة ليست كبيرة » . ورفع « زالوموف » الراية عالياً ، وسار بمفرده صوب حراب الجنود المصوبة ، المقتربة : « كانت تلك هى أروع لحظات السعادة فى حياتى .. الحراب قريبة جداً ... ها هى الآن .. وخيل لى أن الجنود لن يستطيعوا التوقف ، بل سيركضون رافعين جثتى على أسنة الحراب . ولكن لم تمسنى حربة واحدة . ووقفت السرية بلا أمر ، فارتفعت أسنة الحراب إلى أعلا ، فاصطدمت بالجنود الذين كانوا فى المقدمة » .

(هـ)

كان كلُّ شىء يتجه صوبَ « الأحد الدامى » ، ٩ يناير ١٩٠٥ .

وفى ٣ يناير ١٩٠٥ ، أضرب عمال مصنع « بوتيلوف » ، احتجاجًا على طرد بعض العمال ، وانتشر الإضراب فى بطرسبورج كلها ، فبلغ عدد المضربين ١٥٠ ألف شخص . وتوقفت عن العمل أكثرية المؤسسات الكبرى ، كما توقفت الصحف عن الصدور .

وقرر العمال أن يقوموا بمظاهرة سلمية ، يوم الأحد التاسع من يناير ، إلى قصر الشتاء ، يقدمون خلالها إلى « نيقولاى الثانى » عريضة تظلماتهم . وقد عارض البلاشفة مضمون العريضة ، حيث « لا يجب أن نتوسل إلى القيصر .. بل يجب

خلعه عن العرش ، وطرد زمرة القيصر كلها معه . فبهذه الطريقة وحدها يمكن الظفر بالحرية » . وكانت الحكومة على علم بمظاهرة العمال السلمية .

وفى الصباح الباكر من يوم ٩ يناير ، توجه العمال مع زوجاتهم وأطفالهم ، وقد ارتدوا ملابس العيد ، إلى قصر الشتاء . واشترك فى الموكب أكثر من ١٥٠ ألف شخص ، كانوا يحملون صور القيصر والأعلام والأيقونات ، ويرتلون الصلوات . وحمل العمال عريضتهم : « نحن عمال مدينة بطرسبورج .. جئنا إليك أيها القيصر بحثًا عن الحق والحماية . لقد أصابنا الفقر . ونتعرض للاضطهاد ، ويثقلوننا بالعمل المرهق ويحتقروننا . ولا يعتبروننا بشراً ، ويعاملوننا معاملة العبيد الذين عليهم أن يحتملوا مصيرهم المر فى صمت .. ويدفعون بنا أكثر فأكثر إلى هاوية البؤس واالظلم والجهل . إن الاستبداد والتعسف يخنقاننا .. لقد نفد صبرنا . ولقد حل ذلك الوقت الرهيب الذى يصبح من الأفضل فيه أن نموت ، بدلاً من استمرار الآلام التى لا تحتمل » .

قطعت القوات العسكرية والبوليس الشوارع والساحات فى وجه المظاهرة . وكانت المدفعية على أهبة الإستعداد . وحشدت الحكومة ضد العمال صفوة قواتها : الحرس القيصرى والقوزاق . وبدأ إطلاق الرصاص على المتظاهرين عند البوابات والجسور المؤدية إلى وسط المدينة . إلا أن جماعات كبيرةً من العمال استطاعت الوصول إلى القصر القيصرى . وتجمع جمهور كبير - وخاصة من النساء والأطفال - فى حديقة « الكسندروفسكى » ، فواجههم - فى ساحة القصر والحديقة - الرصاص وسياط القوزاق ، وانطلقت النار على الجميع : العمال والنساء والأطفال . وراحت فرقة الخيالة تضرب المتظاهرين بالسيوف ، وتدوسهم بحوافر الخيل ، وتجهز على الجرحى .

وقتل فى ذلك « الأحد الدامى » أكثر من ألف عامل ، وجرح حوالى خمسة آلاف ، وأنهى الرصاص والسياط وسنابك الخيل الإيمان بـ « القيصر الطيب » .

(و)

وفى ١٤ يونيو من نفس العام ، ثار بحارة المدرعة « الأمير بوتومكين تافريتشيسكى » . فقد أمر كبير الضباط بإعدام ٣٠ بحاراً رميًا بالرصاص ، لرفضهم تناول حساء « البورش » المطبوخ باللحم الفاسد . فتسلح البحارة ، وقتلوا الكثيرين من الضباط ، واستولوا على المدرعة . ولكن لم تكن لدى البحارة خطة

واضحة للحركة .

واقتربت المدرعة - رافعةً الراية الحمراء - من « أوديسا » ، التى كان يشتعل فيها - فى ذلك الوقت - إضراب عام ، دون أن يستفيدوا من إمكانية الاستيلاء على المدينة ، انتظاراً لتوقع انتفاضات مشابهة فى السفن الأخرى .

وفى ١٨ يونيو ، أرسلت الحكومة القيصرية قوة بحرية مؤلفة من ١٢ سفينة ، للتنكيل بالمدرعة المتمردة . واقتربت « بوتومكين » من القوة البحرية فى جرأة ، فانضمت إليها المدرعة « جيورجى يوبيدونوسيتس » . لكن بحارة المدرعتين الثائرتين تركوا الضباط الرجعيين يسيطرون على مركز القيادة ، فجنحوا بالمدرعة « يوبيدونوسيتس » إلى المياه الضحلة ، فيما توجهت « بوتومكين » إلى الشواطئ الرومانية للتزود بالوقود والأغذية . وفشلت محاولات المدرعة فى الحصول على الفحم والغذاء ، لتطوف بالبحر الأسود - تحت الراية الحمراء - أكثر من سبعة أيام ، وهى تثير الرعب والفزع فى السلطات القيصرية . واضطرت المدرعة - فى النهاية - إلى الاستسلام للسلطات الرومانية ، بعد أن نفد الماء والفحم والغذاء .

(ز)

وفى ٧ ديسمبر ١٩٠٥ ، بدأ إضراب سياسى عام ، بمبادرة من البلاشفة ، شارك فيه أكثر من مائة ألف شخص . ولجأت الحكومة إلى القوات العسكرية والبوليس لتفريق الاجتماعات والمظاهرات . فامتشق العمال السلاح ، وتحول الإضراب إلى انتفاضة مسلحة . فأقيمت المتاريس فى أنحاء المدينة ، وساعدت النساء والأطفال فى بنائها . وحارب خلفها ستة آلاف متطوع من العمال المسلحين بالبنادق العسكرية القديمة ، وبنادق الصيد والمسدسات .

وفى حى « بريسنيا » - أحد أحياء موسكو العمالية - استطاع المنتفضون الاستيلاء على السلطة ، وتجريد البوليس من سلاحه .

لكن قوى الطرفين لم تكن متكافئة . وكان من المستحيل الانتصار عن طريق البطولة وحدها . وفى اليوم التاسع عشر من ديسمبر ، قرر مجلس سوفييت موسكو - الذى نظم الانتفاضة - إنهاءها .

وفى أعقاب هذه الهزيمة ، أُعلنت حالة الطوارئ فى العديد من المحافظات ، وانتشرت فرق التأديب فى كل البلاد ، وبدأ العمال الذين أنهكهم النضال المتواصل خلال عام ١٩٠٥ فى التراجع البطئ . وساد البلاد الإرهاب والرجعية المنفلتة . ونشطت فى كل مكان محاكم الميدان العسكرية ، التى كانت تصدر أحكامًا قاسية ضد المشتركين فى الثورة . وبلغ عدد أحكام الإعدام التى صدرت خلال ثلاث سنوات حوالى خمسة آلاف .

وامتّدت أعوامُ الفتورِ والانحِطَاط .

(ح)

واستعادت الحركة الجماهيرية فتوتها المتنامية فى بدايات ١٩١٢ . ففى هذا العام ، أضرب أكثر من مليون شخص . وفى عام ١٩١٣ ، اكتسبت الحركة العمالية نطاقًا أوسع ، فشملت بطرسبورج وموسكو والبلطيق وأوكرانيا والقفقاس . وكذلك ، اتسعت الحركة الفلاحية ، وحركة الجنود والبحارة .

وفى عشية الحرب العالمية الأولى ، بلغت الحركة العمالية - التى لعب الحزب البلشفى دوراً كبيراً فى تعميقها وتوسيعها - مدًى عاليًا ، حتى أعادت إلى الأذهان الانتفاضات الكبرى فى ١٩٠٥ . واتسمت الإضرابات بطابع سياسى ، موجه ضد الحكم المطلق .

فقد شمل إضراب عمال النفط فى « باكو » ، الذى بدأ فى مايو ١٩١٤ ، قرابة ٥٠ ألف عامل . فتوجهت القوات العسكرية والبوليس لقمع الإضراب . وهبَّ عمال « بطرسبورج » لمساندة عمال « باكو » . وأطلق البوليس النار على اجتماع تضامن عقده عمال مصنع « بوتيلوف » . وردًّا على هذا التنكيل ، أعلن العمال إضرابًا عامًا لمدة ثلاثة أيام ، تلبيةً لنداء البلاشفة ، الذين قادوا الإضراب . فنظم العمال المظاهرات ، ورفعوا الرايات الحمراء ، وشرعوا فى إقامة المتاريس فى المناطق العمالية ، فأرسلت القوات العسكرية لمواجهة العمال . وأصدر البلاشفة نداءً بإيقاف الإضراب بشكل منظم .

وكانت تحركات كل القوى تتجه - حثيثا - صوب ١٩١٧ ، ذلك العام الفاصل .

(ط)

أدت الحرب العالمية الأولى إلى بلوغ الحد الأقصى من بؤس ومعاناة الجماهير الشعبية . وبلغ الخراب الاقتصادي حد الكارثة . ففي شتاء ١٩١٦/١٩١٧ ، توقف العديد من المصانع الكبيرة عن العمل بسبب نقص الفحم ، فانتشرت بطالة واسعة . ودب الشلل في السكك الحديدية ، فلم تستطع - في يناير ١٩١٧ - أن تنقل الحبوب من « الدون » إلى موسكو وبتروجراد . وبدأت المجاعات في المدن الكبيرة ، وارتفعت أسعار المواد الغذائية إلى ثمانية أضعاف .

وتصدعت آلة دولة الحكم المطلق .

وشددت الحركة الثورية من نضالاتها ، في موسكو وبتروجراد وخاركوف والدونباس وباكو وغيرها من المدن الروسية .

ومن إضراب مصنع « بوتيلوف » ، إلى إضراب « يوم المرأة العالمي » في ٢٣ فبراير ، الذي اشترك فيه قرابة ٩٠ ألف شخص ، إلى الإضراب العام في ٢٥ فبراير ، إلى انضمام القوات العسكرية إلى جانب الشعب ، والاستيلاء على دار الأسلحة في بتروجراد ، لتصبح المدينة - مع انضمام ٧٠ ألف جندي إلى الثورة - في يد العمال والجنود المنتفضين ، قبيل مساء ٢٧ فبراير .

وفي المساء ، تم اعتقال الوزراء القيصريين ، وانتصرت الثورة .

وقبيل مساء الأول من مارس ، كانت موسكو في يد الثائرين . واشتعلت الانتفاضات في الدونباس وسيبيريا والأورال ونيجني نوفجورود ، لتنتصر الثورة في كل البلاد .

ونشأ ازدواج السلطة في روسيا ، بين الحكومة المؤقتة التي شكلت عقب سقوط القيصرية ، وبين سوفيتات نواب العمال والجنود ، التي شكلت أثناء الثورة ، كهيئات للسلطة الثورية .

وأنجزت السوفيتات حريات التعبير والنشر والاجتماع والأديان ، وأصدرت عفواً سياسيًا عامًا . وطبق العمال - دون إذن من السلطات - مبدأ اعتبار يوم العمل ثماني ساعات ، وأقاموا الرقابة على الإنتاج ، وأسسوا الحرس الأحمر .

وفي أول مارس ، أصدر سوفييت بتروجراد الأمر رقم (١) ، الذي ألغى

الأنظمة القيصرية فى الجيش ، ومنع الجنود حقوقهم المدنية ، واقترح تشكيل سوفيتات جنود منتخبة فى الوحدات العسكرية ، لمراقبة نشاط الجنرالات والضباط .

واتجهت الأوضاع والقوى إلى أكتوبر القادم .

(ى)

فى ٢١ أكتوبر ١٩١٧ ، عقد زعماء البلاشفة اجتماعهم التاريخى السرى . وحدد لينين كيفية معالجة الوضع الراهن ، فى دقة صارمة : « فى ٢٤ أكتوبر ، سيكون العمل مبكراً جداً : فالانتفاضة بحاجة إلى قاعدة تشمل روسيا بأسرها ، ولن يكون جميع المندوبين قد وصلوا بعد إلى المؤتمر (مؤتمر سوفيتات كل روسيا) ، فى ٢٤ أكتوبر . ومن ناحية أخرى ، سيكون العمل فى ٢٦ جد متأخر : ففى هذا الوقت سينتظم المؤتمر ، ومن الصعب على اجتماع ضخم منظم أن يتخذ تدابير عاجلة وحاسمة . فعلينا أن نعمل فى ٢٥ أكتوبر ، يوم افتتاح المؤتمر ، بحيث يكون فى وسعنا أن نقول له : ها هى السلطة ! فماذا ستفعلون بها ؟ » .

وكان يجلس فى إحدى غرف الطابق العلوى - فى نفس الوقت - رجل نحيل الوجه ، طويل الشعر ، عالم رياضيات ولاعب شطرنج ، كان فى الماضى ضابطًا فى الجيش القيصرى ، ثم أصبح ثوريًا ومنفيًا ، يدعى « أوفسيينكو » . بوصفه عالم رياضيات ولاعب شطرنج ، كان منهمكًا فى إعداد خطط الاستيلاء على العاصمة .

وأطاح سوفييت « بتروجراد » بالحكومة المؤقتة ، ووضع المؤتمر العام للسوفيتات أمام الأمر الواقع ، أمام الانقلاب . وتم تعيين مفوضين للوزارات المختلفة ، ودعى الجيش لانتخاب اللجان العسكرية الثورية .

وتسلم مؤتمر السوفيتات - ذو الأغلبية البلشفية - السلطة ، وشرعت قيادته الجديدة - برئاسة لينين - فى اتخاذ القرارات المصيرية ، التى كانت كالحلم البعيد : السِّلم ، وإلغاء الملكية الكبيرة للأرض . وصدر مرسوم تشكيل الحكومة الجديدة التى ستتولى إدارة شئون البلاد ، برئاسة « فلاديمير أوليانوف » (لينين) .

كانت روسيا الواسعة الأرجاء تعانى حالة تحلل ، بدأت منذ عام ١٩٠٥ . وجاءت ثورة مارس ، فمدت من أجل البنية الفارغة للنظام القديم . وها قد أطاح

البلاشفة – فى ليلة واحدة ، عصيبة ، وطويلة – بهذه البنية . ولم يعد لروسيا القديمة – من وجودها المسيطر السابق – سوى البقايا التى تحاول أن توقف التحول العظيم . كان المجتمع – غير المتبلور بعد – ينصهر ويسيل حممًا فى هيولى الخلق البدائى . وفى بحر اللهب المصطخب ، كان يجرى صراع شامل ، لا رحمة فيه ، تنبثق معه براعم التشكلات الجديدة ، وهى ما تزال – بعد – هشةً ، لتصلب عودها فى بطء وأناة ، وسط حلقة الحصار الضارى .

فمنذ ربيع وصيف عام ١٩١٨ ، اندلعت الثورات المضادة للنظام السوفيتى الجديد ، فى مناطق البلطيق وأوكرانيا والقوقاز والأورال . وشن الفرنسيون والإنجليز حملةً للتدخل عبر البحرين الأبيض والأسود ، لدعم الثورات المضادة ، فيما بدأ الأمريكيون واليابانيون عمليات الإنزال على شواطئ المحيط الهادى .

ودارت المعارك فى شوارع موسكو ، وتعرض المواطنون العزل للنيران ، وتهدد مبنى مؤتمر سوفييت كل روسيا بالحصار ، والكرملين – قلعة السلطة السوفيتية – بالاحتلال من جانب المتمردين .

وبرغم المخاطر الجدية التى هددت النظام الجديد ، إلا أن التاريخ الروسى كان قد تحول جذريًا ، تحولاً نهائيًا . ولم تكن هذه المخاطر سوى آلام الولادة الفتية .

* * *

- ٣ -

« كَانَ ذَلِكَ مَا قَادَنِى إِلَى جُلجُثَاتِ المَنَابِرِ
فِى القُرَى وَالمُدُن ، فِى الأَعَالِى وَالمنخَفَضَاتِ
وَلَم يَكُن هُنَاكَ مَن لَم يَصرُخ
وَمِنخَرَاه مُتَّسِعَان ،
« اصلُبُوه !
اَصْ - لُ - بُ - و ه ! »

(أ)

فى قرية « بغدادى » الجورجية البعيدة ، ولد ماياكوفسكى ، فى السابع من يوليو ١٨٩٣ ، وقضى طفولته فيها . تقع القرية فى وادٍ عميق تحوطه الجبال الشاهقة ، فتحميه من الرياح الباردة . أما والده « فلاديمير قونسطنطينوفيتش ماياكوفسكى » ، فكان مشرفًا على الغابات ، تمتد جذوره البعيدة إلى النبالة . ووالدته هى « الكسندرا ماياكوفسكايا » ، ابنة رجل عسكرى ، كانت تهوى الرسم والشعر فى صباها . وكرست حياتها - فيما بعد - لأسرتها الصغيرة ، موليةً اهتمامًا خاصًا بابنها الصغير « فلاديمير » ، بعد وفاة أبنائها الذكور الآخرين ، إذْ لم يبق لها غيره إلاّ « أوليا » و « لودميلا » .

وفى مناخ الحياة اليومية البسيطة ، استمتع الطفل « ماياكوفسكى » بطفولة متحررة من كل كبت ، ليقضى ساعات اليوم الطويلة فى اللعب مع أطفال الفلاحين ، الذين التقط منهم معرفةً هائلةً بالجورجية . وكان الأقارب والأصدقاء يأتون لزيارة العائلة الصغيرة ، أحيانًا ، هم وأطفالهم . كانوا من قوميات مختلفة : جورجيين ، وأرمينيين ، وبولونيين ، يغنون الأغانى الروسية والأوكرانية والجورجية ، ويرقص البولونيون رقصاتهم الشعبية .

وسرعان ما دخل عالم الحكايات والأساطير . كانت أمه تحكى له الأساطير والحكايات الشعبية ، لتنتقل به إلى حكايات « كريلوف » الخرافية ، ليتكفل أطفال القرية باستكمال هذا العالم الخرافى على طريقتهم الخاصة . ومع أمه ، عرف - من بعد - قصائد بوشكين وليرمونتوف ونيكراسوف . كان أول كتاب تناوله « فلاديمير » الصغير من رف المكتبة هو « حارس المدخنة » . كان الكتاب مطبوعاً بحروف كبيرة ، خصيصاً للأطفال ، ويضم صوراً كثيرة . قرأه ، فلم يعجبه . أما الكتاب الثانى ، فهو « دون كيشوت » ، وقد أحبه كثيرا .

وعندما ذهب إلى « كوتايسى » - فى خريف ١٩٠٢ - للالتحاق بمدرستها ، أدركه الشعور بالاغتراب وسط الأبناء المتعجرفين للموظفين الروس . وافتقد الإحساس بالتآلف والبراءة الذى عرفه مع أطفال قريته الجورجية ، لكنه عرف - فى المقابل - الصعلكة : الهرب إلى نهر « ريون » ، والتسكع ، والمقامرة مع الجنود ، والشهوة الموجعة إلى الطعام . ومعهم عرف الطرد من المدرسة .

وفى مناخ ١٩٠٥ ، بدأ ماياكوفسكى فى التعرف على الكتابات الثورية العلنية والسرية ، التى كانت تأتى بها شقيقته « لودميلا » من موسكو ، حيث كانت تدرس ، لينضم - من ثم - إلى الحلقة الماركسية فى « المدرسة العليا » فى « كوتايسى » . وفى أكتوبر من نفس العام ، اشترك فى مظاهرة الاحتجاج السياسية ، التى نظمت فى « كوتايسى » ، بمناسبة الجنازة التى أقيمت فى موسكو للبلشفى «نيقولاى باومان» ، الذى اغتالته جماعة « المائة السود » الرجعية . وفى العام التالى ، توفى والده بشكل مفاجئ ، بتأثير أحد أمراض الدم . وانتقلت العائلة إلى موسكو . وكتب ماياكوفسكى - فيما بعد : « كانت روسيا هى حلم حياتى . ولم يمثل أى شئ آخر لدىّ مثل هذه الجاذبية المرعبة » .

(ب)

التحق - فى موسكو - بالمدرسة الثانوية . ومعها ، انضم إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى (البلاشفة) ، وشارك فى الدعاية السياسية بين عمال موسكو .

واعتقل ماياكوفسكى - للمرة الأولى - فى ٢٩ مارس ١٩٠٨ ، فى مبنى المطبعة السرية للجنة الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى موسكو . وخرج ليوضع تحت الرقابة البوليسية ، وليلتحق بكلية الفنون التطبيقية .

وفى ١٨ يناير ١٩٠٩ ، يعتقل للمرة الثانية ، لمدة أربعين يومًا .

واعتقل للمرة الثالثة فى الثانى من يوليو ١٩٠٩ ، حين اشترك فى عملية تهريب ثلاث عشرة سجينة سياسية من سجن « نوفنسكايا » . ويطول اعتقاله – هذه المرة – إلى ستة شهور ، أرسل خلالها إلى سجن « بوتيركى » ، حيث وضع فى الحبس الانفرادى فى الزنزانة رقم ١٠٣ . وأراد البوليس نفيه لمدة ثلاث سنوات إلى إقليم « ناريم » ، لكن صغر سنه – إذ كان لا يزال قاصراً – وجهود أمه ، حالا دون النفى ، ليطلق سراحه ، تحت الرقابة البوليسية ، « إلى الإشراف المسئول لوالديه » . وفى السجن ، كتب قصائده الأولى ، فصادرها البوليس لدى الإفراج عنه .

أتاح له السجن اكتشاف « بايرون » و « شيكسبير » و« دوستويفسكى » و « تولستوى » ، لتدفعه هذه القراءات إلى الحلم الأدبى ، وطرح السؤال العصيب عن الدور ، وماهيته ، والكيفية التى يتحقق بها ، والعلاقة مع العمل السياسى الحزبى المباشر . وهكذا ، فعندما أطلق سراحه ، وجد نفسه غريقًا فى الحيرة الفكرية القلقة : « كيف أستطيع التعبير عن نفسى وسط هذا الطوفان الغريب ؟ ألا يتطلب دورى الثورى أن أدرس دراسةً منتظمة ؟ ذهبت لزيارة أحد رفاقى فى الحزب ، وقلت له : إننى أريدُ أن أخلق فنًا اشتراكيًا » . وضحك منى ذلك الرفيق ضحكة طويلةً عالية ، وقال : « إن عقلك أكبرُ من معدتك » .

وحينما أفرج عنه فى أوائل عام ١٩١٠ ، انسحب من العمل الحزبى ، وبدأ الدراسة . وبدأت رحلة جديدة .

(جـ)

شارك ماياكوفسكى فى ستديو الفنان الذى كان يشرف عليه « زوكوفسكى » ، لمدة تزيد على أربعة شهور . ودرس تحت إشراف الفنان الواقعى « كيلين » ، ليؤهل نفسه للالتحاق بكلية موسكو للنحت والرسم والعمارة . وفى أغسطس ١٩١١ ، التحق بالكلية .

واقتحم ماياكوفسكى – فى حُمى بحثه الفنى – الساحة المضطرمة والمتلاطمة للشعر الروسى . كانت الخريطة الشعرية تموج بشتى الاتجاهات والنزعات الفكرية والفنية ، يواكبها نهوض عارم فى الرسم والموسيقى والمسرح ، حتى شكلت الحركة

الفنية ثورةً جديدة ، تواجه الموروث الكلاسيكي ، وتحدث انقلابًا شاملاً في الأفكار والمفاهيم المتعلقة بالفنون والآداب . كانت الخريطة الشعرية - عندما اقتحم ماياكوفسكي الساحة في عنف - تموج بالتيارات والضجيج :

* مع نهايات القرن التاسع عشر ، كان « **المنحطون** » - الذين وافقوا بفخر على هذه التسمية - يسُودون الساحة الشعرية ، في هجومهم على النقد التقليدي ؛ واستخدامهم الإيقاعات الجديدة للتعبير على الحلم بالجمال والشبق والخيال ، والتأكيد النيتشوي على الذات ، واستخدام الرموز للتلميح إلى واقع خفي ، منفصل عن العالم المرئي .

كان « **فاليري بريوسوف** » (١٨٧٣ - ١٩٢٤) الشاعر الأول لهذا التيار ، فقدم جنون الأحاسيس ، أو الشهوانية الحسية للمضاجعة ، إلا أنه وقع في أسر المفاهيم المجردة ، والصور التراثية . وقد انتفت الصوفية من قصائده ، فيما استخدم الرموز كعلامات جمالية على نظام لفظي ، لتصبح القيمة الجمالية هي العليا .

وفيما كان « بريوسوف » يمنح الشعر الروسي دماءً جديدة ، فإن « **قسطنطين بالمونت** » (١٨٦٧ - ١٩٤٣) ، أورفيوس الحركة الجديدة ، قد اعتمد عفويته وتلقائيته ، لتدخل قصائده الميلودية المرحة ، وإغواء الأوزان المتحولة ، والقوافي الرنانة ، والجناس ، والقدرة الاستثنائية على الانتقال ، والأنساق النغمية المتغيرة . وقد تعرض شعره للكثير من التغيرات المزاجية ؛ إذ قدس « الهة السكون الصافي وآلهة الحركة » معًا ، كما كتب ذات مرة ، وانتقل من السوداوية إلى التمجيد العاصف للحب ، ومن تقليد الفولكلور إلى استعارة « بو » و « بودلير » و «كالديرون» و « شيللي » . لكن هذا « التروبادور » الروسي كان آخر من يستشعرون التغير ، فقد كان يحمل ملامح « دون كيشوت » شعري ، لا تُشوش عليه وقائع الحياة مطاردته المستمرة للأحلام . وهكذا ، وجد نفسه - بعد عام ١٩١٨ - من « المهاجرين » ، ليموت في باريس ، خلال الاحتلال الألماني ، بائسًا ، وحيداً ، منسيا .

ورغم أن « **فيودور سولوجوب** » (١٨٦٣ - ١٩٢٧) لم يبلغ شهرة وتأثير « بالمونت » أو « بريوسوف » ، إلا أنه خلف أعمالاً ذات قيمة شعرية نهائية . فالقصائد المحكمة ذات الأبيات المتوافقة ، على نحو مضاد لخطابية « بريوسوف » أو لفظية « بالمونت » ، قد تكشفت عن بساطة خاصة ، وإن تسترت على نظرة

تشاؤمية خفية .. فقد اعتقد « سولوجوب » أن الشيطان هو الذي يحكم العالم ، واعتمد الأحلام والانحراف الشبقي باعتبارهما المهرب الوحيد من واقع قمعي وخادع . لكنه أكد أيضا على الهزيمة الحتمية للحالمين . وعزل نفسه خلف «دائرة مشتعلة» - (عنوان أفضل أعماله الشعرية) - ليجرى الطقوس السحرية ، ويستدعى الأرواح ، ويبذل كل طاقته لينفلت من « سجن الوجود » ، منقسماً بين نكد الحياة والتحليق اللانهائى للخيال .

لقد كان الشعراء - فى نهايات القرن التاسع عشر - يؤكدون على ألوهية الفن ، ويعتبرون الفنان قديسه المتحرر من كل التزام . وهاجموا الانتلجنسيا لافتقارها إلى الإحساس الجمالى ، وتنسكها ، وهواجسها المتعلقة بالقضايا السياسية والاجتماعية . كما هاجموا - فى نفس الوقت - الاتجاه الواقعى ، الذى لا يرى إلاَّ ما هو مرئى فى الحياة الواقعية ، بحثًا عن واقع آخر ، أعلى ، لا يتكشف إلاَّ من خلال الإيماءات ذات الطبيعة الرمزية . فكان للساحة - إذن - أن تستقبل « الرمزيين » .

* استوعبت الحركة الرمزية - التى بدأت كتمرد شعرى - التطلعات السياسية والاجتماعية للانتلجنسيا الروسية ، حينما وحدت بين جماليتها والنزعات الراديكالية والسلافية . تمثل هذا التوجه الجديد - بصورة رئيسية - فى ثلاثة شعراء : « إيفانوف » و « بيلى » و « بلوك » .

كان « إيفانوف » (١٨٦٦ - ١٩٤٩) ، الذى غادر روسيا فى ١٩٢٤ ، ليموت فى إيطاليا ، شاعراً واسع المعرفة ، يعرف اليونانية واللاتينية على نحو ما يعرف الروسية . أما قصائده الحزينة ، المهيبة ، المثقلة بالإيماءات الخفية والإشارات الكلاسيكية ، فمن العسير فصلها عن معالجاته اللغوية والفلسفية . وفيما كان يقيم أسطورةً كليةً عن الوحدة والتعدد بين الطبيعة والإنسان ، بين الأرض والشمس ، فإنه وحد بين « ديونيزيوس » و « المسيح » . وفى رأيه ، أن أرقى الإنجازات الفنية مستمدة من نفس منبع الأسطورة والدين . وأتى عليه عام ١٩١١ ليبدى ميلاً قويًا إلى النزعة « الشعبية » و « السلافية » ، حيث الإيمان بالتطور الخاص لروسيا ، فى تعارضها مع تقاليد الطبقة الوسطى فى الغرب ، والاعتقاد فى الرسالة الثقافية الدينية لروسيا .

أصبحت هذه النزعات أكثر وضوحًا فى أعمال « أندريه بيلى » (١٨٨٠ -

١٩٣٤) ، الذى يوصف بأنه « جيمس جويس الروسى » . وقد بدأ « بيلى » صوفيًا ، ليبدى - فيما بعد - تعاطفًا قويًا مع الثوريين والشعبيين . لكنه يتتلمذ - فى ١٩١٣ - على « رودلف شتاينر » ، أحد كبار الأنثروبولوجيين الروس ، ليوصم بـ « الرمزية الرجعية » . لكنه يعلن ماركسيته فى الثلاثينيات ، لتمتزج ماديته الجدلية بالإشراقات الشتاينرية .

وقد قامت أعماله الشعرية - فى معظمها - على التكوين الموسيقى . وتضافرت خلفيته الدراسية الواسعة مع قدراته الإبداعية ، لتنطوى قصيدته على التنغيمات والتحولات ، والجناس ، والتراوحات الإيقاعية ، والتأثيرات السمعية . ويمتلك تحليله الشكلى لأعمال الشعراء الروس ومعالجته للقضايا الجمالية قيمةً أدبيةً عالية . وقدحاول خلال هذه المعالجات إقامة ارتباط بين الرمزيين وبين التقاليد الأدبية فى القرن التاسع عشر ، وخاصة لدى « ليرمونتوف » و « نيكراسوف » و « تيوتشيف » . وفى قصائده ، طرح « بيلى » المسائل المتعلقة بالليبرالية والثورة ، التى كانت تبدو - حتى ذلك الحين - امتيازًا مقصوراً على « الواقعية » .

وفى بدايات ثورة ١٩١٧ ، اتخذت النزعة الشعبية عند « بيلى » شكل مسيحية ثورية ، تصعد روسيا خلالها جلجثة الآلام ، من أجل خلاص البشرية .

وبلغت الحركة الرمزية الروسية قمتها وخاتمتها مع « الكسندر بلوك » (١٨٨٠ - ١٩٢١) الذى نشأ وسط مناخ من الموسيقى والأدب والفنون الجميلة ، وفى وسط رفيع الثقافة من الانتلجنسيا الروسية ، فيما كان والده أستاذاً للقانون ، وجده عالمًا ، موجهًا لجامعة سان بطرسبورج .

وقد مزج « بلوك » ميوله الدينية المسيحية بحبه لـ « ليوبوفا مندلييفا » - ابنة العالم الشهير « مندلييف » - فى قصائد عن السيدة الجميلة ، ذلك الديوان الشعرى الذى يضم مئات من قصائد الحب ، التى تحفل بالموسيقى والبهجة . وعندما نُشر فى ١٩٠٤ ، هلل له الرمزيون ، باعتباره ترنيمةً صوفيةً إلى « صوفيا » - « الحكمة الأبدية » . أما القارئ العادى ، فقد استهواه السحر العاطفى الكامن فى القصائد ، وجمالها الشفاف .

وخلال الأيام العاصفة من ثورة ١٩٠٥ ، ورد الفعل السياسى التالى لها ، استيقظ « بلوك » على عالم خفى من الألم والمعاناة ، وبدلاً من « السيدة الجميلة » ، اعترضته العاهرات . وبدلاً من قلاع الجنيات ، وجد نفسه على أرصفة المدن ، فى

مواجهة المصانع والثكنات . وانهارت أحلامه القديمة حينما واجهتها وحشية الحياة . وتبدت له الحياة كمشهد هزلي ، ينطوى على الفوضى ، والأجساد القذرة ، والقلوب الميتة . وتطلع نحو مخرج من الضياع ، والإيمان بالشياطين ، والتبديد الوحشى للطاقة ، الذى أخرج دواوين « قناع الجليد » و « القيثار والكمان » و « العالم المخيف » . وحينما أفلت « بلوك » من هذه الموجة ، تنامى اهتمامه بقضايا الحياة والثقافة .

ودخلت « الشعبية » و « الراديكالية » قصائده ، مع رتوش عارضة من السلافية ، كما فى « قصائد عن روسيا » و « حقل كوليكوفو » ، لتصبح روسيا ومصيرها : المحور والمدار . ومنح هاجس الانقلاب القادم قصائده نغمةً نبوئية ، تدعمها مقالاته التى أعلنت عن بدء مرحلة تاريخية جديدة . وبدت ثورة ١٩١٧ له كتحقيق لتوقعاته السابقة ، فكان حماسه لها جارفًا ، تبدى واضحًا فى قصيدته الشهيرة « الاثنا عشر » ، التى يظهر فيها المسيح قائدًا لاثنى عشر من الحرس الأحمر يجوسون خلال ضباب الثلوج .

لقد عبر « بلوك » ، بصراعاته الباحثة عن الحل ، وبثنائيته ، عن تطلعات الانتلجنسيا القديمة ومأساة جيله ، ممزقًا بين الآلهة وبين الإحساس بالانهيار الوشيك للعالم الذى ينتمى إليه . لكنه برغم صعوده فى مفترق طرق مرحلتين ، فإنه حاول - بإخلاص - أن يتجاوب مع إيقاعات الثورة . وفى ذلك ، فلقد وحد - فى قصائده - التيارات المختلفة للفكر الروسى ، من « الشعبية » إلى « السلافية » ، إلى الإحساس بذنب النبيل النادم ؛ ومن التطلعات الدينية للعاشق السابق للجمال ، إلى التقاليد الاجتماعية للواقعيين . وفى أسلوبه ، اندمجت التجديدات الشعرية للرمزيين مع كل التجديدات الشكلية فى الشعر الروسى ، مع تيار تحتى من الشعر الشعبى ، الذى يتضمن حكايات الغجر والأغانى الفولكلورية . وفى « الاثنا عشر » ، تحققت الوحدة الإيقاعية للقصيدة من خلال المزج بين الرباعيات المتسارعة وبين الأبيات الرصينة الشديدة الإحكام .

* ومنذ ١٩١١ ، توحد الغرماء الرئيسيون للرمزية فى جماعة « **القمين** » . فالفن هو « الصلابة والإحكام » . وفى أعمالهم ، انتصرت الصورة على الموسيقى ، وحلت الصورة الحادة الواضحة محل الإيماءات والإشارات . أحصيت الكلمات ووزنت ، وأعيد تأسيس الأنواع الأدبية .

كان « **نيقولا جميلوف** » (١٨٨٦ - ١٩٢١) - رأس الجماعة - مأخوذاً بعاطفتين قاهرتين : الفعل المغامر في الحياة ، والإحكام الشكلي في الشعر . وحيث أن « الفكر هو الحركة ، فعلى الشعراء - إذن - أن يستخدموا الأفعال بدلاً من الصفات » . وفي ١٩٢١ ، قاده « الفعل المغامر في الحياة » إلى التورط في مؤامرة ضد النظام الاشتراكي ، فحكم عليه بالإعدام ، وأعدم رميا بالرصاص .

وتمثل « **أنّا أخمتوفا** » (١٨٨٨ - ١٩٦٦) - وهي زوجة « **جميلوف** » الأولى - الصوت النسائي من « القميين » . وفي قصائدها القصيرة المحكمة ، وعباراتها الحادة ، قدمت الأفكار والأحاسيس الداخلية لامرأة تتراوح بين الخطيئة والتكفير ، بين الشهوة الجسدية والحمّى الروحية . وامتلكت قصائدُها درجةً عالية من التكثيف ، وألفة الأسلوب ، والبوح الخفي .

أما أهم شعراء القميين ، فهو « **أوسيب ماندلستام** » (١٨٩١ - ١٩٤٢) ، الذي اكتسب الخبرة من الرمزيين ، ليتمرد على أساتذته . وتنتمي قصائده ، ذات الإحالات الإغريقية واللاتينية ، إلى التقاليد الخطابية لـ « ديرجافين » و « تيوتشيف » . ورغم أنه أعلن « لست معاصراً لأحد » ، فقد كان يمتلك إحساسًا عميقًا بالتاريخ ، ليستشعر الانهيار القادم للامبراطورية وعالمها الذي تهاوى معها .

* ارتفع لواء معارضة الرمزية ، أيضا ، من جانب « **المستقبليين** » ، الذين واجهوا الذوق العام بحدة وصلت إلى العدوانية . فقد حاولوا صدمة رجل الشارع بارتدائهم سترات برتقاليةً زاهيةً بلا أربطة عنق ، وقبعات حريرية ، واستخدام كلمات - في المناقشات الأدبية - لا تمكن كتابتها . وعمدوا إلى صدمة القارئ في بيانهم النظري الشهير « **صفعة في وجه الذوق العام** » (١٩١٢) . الذي وقعه الشعراء « خليبنيكوف » و « كارينسكي » والأخوان « بيرليوك » و « كروشنيك » .

وقد دعا البيان إلى الإطاحة بمهابة التراث الكلاسيكي ، تحريراً للشعر من التجريدات الميتافيزيقية للرمزيين ، وتمكينًا له من أن يعكس الوقائع الجديدة للحياة المعاصرة ، ونفيًا لكل ما هو اصطلاحي - في القصيدة - كالجمال ، وتلك التصورات الشعرية التي أصبحت - في نظرهم - رثةً ، باليةً ، مبتذلةً إلى درجة الغثيان . ورغم العنف الثقافي لهذه « الصفعة » ، إلا أنها كانت بحثًا عن أشكال

جديدة للتعبير ، بحثًا عن النزول من السماء إلى الأرض ، بحثًا عن لغة جديدة تتحرر كلماتها من التداعيات السقيمة ، لتصبح قادرةً على نقل ارتعاشة العبقرية الشعرية .

(د)

كان التقاء « ماياكوفسكى » بالمستقبلية حاراً ، تفتحت - خلاله - طاقات الشاعر ، وقدراته الإبداعية على رحابتها ، وبلغت المستقبلية - خلاله - تحققها الشعرى .

كانت التيارات الشعرية الأخرى قد خبت ، أو كانت تشهد زمن غروبها ، فيما كانت المستقبلية - حينما اقتحم ماياكوفسكى الساحة الشعرية - تبتدئ زمن فتوتها الصادمة . وتفتحا معًا فى ذلك الزمن الصعب ، فى بدايات العقد الثانى من هذا القرن . وقوبل دخوله إلى الوسط الأدبى بالعدوان والضجيج الغاضب من قبل المجتمع البرجوازى . وواجه الكثير من الشتائم فى الجرائد والمجلات . أما رجال البوليس ، فكانوا يحضرون أمسياته الشعرية دون أن يدركوا - بالضبط - ما إذا كان ما يلقيه ماياكوفسكى هو شعر جاد أم نكتة .

وتحكى أمه : « عندما سألته - ولم نكن نفهم أحيانًا ماذا يعنى : « لماذا تكتب هذا النوع من الشعر ؟ » ، أجاب : « إذا كتبت كل شئ بوضوح ، فلن أستطيع العيش فى موسكو ، إنما فى مكان ما فى سيبيريا ، أو فى ترخاتشك ، فى المنفى ، فهم يراقبوننى » .

وركضت الدماء الفوارة فى عروق ماياكوفسكى ، ليتخطى حاجز الزمن ، فيمر العام وقد أنجز فيه ما يفى بعمر كامل . ففى عام ١٩١٣ ، تنشر قصائده « ميناء » و « أغنية الشارع » ، و « وأنت ؟ » و « من شارع إلى شارع » و « المسارح » و « شئ ما عن بطرسبورج » و « خلف امرأة » . ويلتقى بالشاعر « آسييف » . ويلقى كلمةً فى « جماعة الجماليات الحرة » ، فى موسكو ، تكريمًا للشاعر « بالمونت » . وتصدر مجموعته الشعرية الأولى بطريقة الطباعة الحجرية ، مع رسوم داخلية للفنانين « زيجين » و « شيبرين » ، أما الغلاف فمن أعمال ماياكوفسكى .

وفى أغسطس ، ينشر مجموعةً أخرى من القصائد . ويلقى قصيدته « فلتأخذ هذا ! » ، فى نادى « الفانوس القرنفلى » الخاص بالمستقبليين . وتقدم - للمرة الأولى - تراجيديته « فلاديمير ماياكوفسكى » فى مسرح « لونابارك » فى بطرسبورج ، ويؤدى الشاعر الجزء الرئيسى منها . فى نفس الشهر - ديسمبر - يكون التقديم الثانى للتراجيديا . ويختتم ماياكوفسكى العام بجولة طويلة - يشاركه فيها « بيرليوك » و « كامينسكى » - فى المدن والمقاطعات الروسية ، يلقى خلالها القصائد والمحاضرات فى « خاركوف » و « سيفروبول » و « سيفاستبول » و « كيرش » و « أوديسا » و « كيشنيف » و «نيكولاييف» و « كييف » و «مينسك» و « قازن » و « بنزا » و «روستوف» و « ساراتوف » و « تيفلس » و « باكو » .

وحينما يعود من رحلته الطويلة ، لا يلبث أن يجد نفسه مطروداً من الكلية ، إثر محاضرة أدبية ساخرة تحدث فيها باحتقار عن الفن البرجوازى .

(هـ)

ويتتابع نشاطه المحموم ، كتابةً ، وإلقاءً ، ونشراً . تنشر تراجيديته «فلاديمير ماياكوفسكى » فى مارس ١٩١٤ . وفى أبريل ، يلقى قصائده فى « كالوجا » . وعندما تبدأ الحرب العالمية الأولى ، يلقى قصيدته « الحرب قد أعلنت » فى الاحتفال بذكرى « سكوبيليف » ، ويبدأ فى الكتابة لمجلات ونشرات الجيش .

وفى النصف الثانى من فبراير ١٩١٥ ، تصدر حولية « رامى السهام » ، وهى تحمل مقاطع من قصيدته الشهيرة « غيمة فى بنطلون » . وفى أواخر الشهر ، يلقى كلمةً فى قاعة « الكلب الضال » - وهى قاعة خاصة بالفنانين - بمناسبة الاحتفال بصدور الحولية . كما يلقى « جوركى » كلمةً ، بدعوة من « بيرليوك » و « كامينسكى » .

ويبدأ ماياكوفسكى العمل فى جريدة « نيو ساتيريكون » . ويسافر إلى « موستامياكى » لزيارة « جوركى » ، ويقرأ له قصيدته « غيمة فى بنطلون » التى لم يكن قد انتهى منها بعد . ولدى انتهائه منها ، ينشرها له الكاتب « أوسيب بريك » فى طبعة منفصلة فى بتروجراد .

وخلال علاقته بـ « أوسيب بريك » ، يتعرف ماياكوفسكى على شقيقته

«ليلى» ، لتبدأ علاقة حب بينهما ، تفضى - بعد عام تقريبا - إلى قصيدته الرثائية « إلى ليلى الحبيبة ! بدلاً من رسالة » . وحينما تظهر مجموعته الشعرية الجديدة « بسيطا كما الخوار » ، فإنها تصدر - هذه المرة - عن « دار باروس » ببتروجراد ، لا عن آل بريك .

وإذْ تهب رياح ثورة فبراير ١٩١٧ البرجوازية ، يكون ماياكوفسكي في الشارع ، يشارك في اللقاءات الجماهيرية المتعلقة بالفن ، ويقود الاحتجاج العام ضد محاولات الحكومة المؤقتة فرض الرقابة على الأنشطة الثقافية .

(و)

وتبدأ مرحلة جديدة من وجود ماياكوفسكي مع قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية ، تبدأ ببلوغ العنفوان الروحي والجسدى أقصى ذروة إنسانية ممكنة ، وتنتهى بالانتحار .

فمنذ اللحظة الأولى لقيام الثورة ، كان موقفه محدداً في صرامة : « هل تقبل أم لا تقبل ؟ مثل هذا السؤال لم يكن مطروحًا لدَىَّ أبداً .. إنها ثورتى » .

وتتفجر طاقاته في كل الاتجاهات ، يشارك في المؤتمرات الحزبية السياسية والثقافية ، ويدوى صوته بالشعر الحماسي في القاعات الجماهيرية ، وتتتالى القصائد في كل شئ عاريةً بلا قناع ، عن الكومسمول (منظمة الشباب) ، والبترول ، وشهر مايو ، والبروليتاريا ، والحركة الشيوعية ، والحرب الامبريالية ، والحزب ووظائفه التنظيمية ، ومسئولياته السياسية والأخلاقية تجاه الشعب .

وحينما تضيق موسكو على هذا العنفوان الجامح ، ينطلق إلى أعماق روسيا ، إلى « مينسك » و « كييف » و « يالتا » و « خاركوف » و « أوديسا » و «جوميل» و « فينتسا » و « سيفاستوبول » و « فلاديكافكاز » و « مولتافا » و « مولينسك » و « روبستوف » و « باكو » و « تيفليس » و « ألويكا » و «إيفباتوريا » و « تاجانروج » و « قازان » و « سامارا » و « ساراتوف » .. إلخ .

وحينما يبدو الشعر التحريضى قاصراً عن الدعم المباشر للثورة ، يلجأ ماياكوفسكي إلى الملصقات الدعائية ، فينهمك محموماً في الرسم ، وكتابة الشعارات الملائمة ، في الحث على دعم الوطن الاشتراكى ، وهجاء الامبريالية المتربصة بالنظام السوفيتى ،

وكشف فلول النظام القديم .

ويمتد جموحه إلى السينما والمسرح ، كأدوات اتصال جماهيرى واسع . فيكتب السيناريو لأفلام « لم نولد من أجل المال » و « السيدة الشابة والسفاح » . ويؤدى الأدوار الرئيسية فى الفيلمين .

ويكتب مسرحية « هزلية الأسرار » فتعرض - للمرة الأولى - فى ٧ نوفمبر ١٩١٨ ، على مسرح بتروجراد الكوميدى الموسيقى ، من إخراج « ميبرهولد » . وفى مايو ١٩٢٠ ، يقدم ستوديو مسرح موسكو الساخر مسرحيته القصيرة « ماذا لو ؟ أحلام أول مايو فى كرسى برجوازى وثير » . وفى نوفمبر ١٩٢٧ ، تعرض مسرحيته « الخامس والعشرون » على مسرح لينجراد للأوبرا الصغيرة ، من إخراج « موليخ » . وفى فبراير ١٩٢٩ ، تصدر مسرحيته « البقة » ، ليتم عرضها فى نفس الشهر على مسرح « ميبرهولد » ، ومن إخراجه . ومن إخراج « ميبرهولد » أيضا ، وعلى مسرحه ، تعرض المسرحية الأخيرة لماياكوفسكى « الحمّام » فى مارس ١٩٣٠

(ز)

عرف ماياكوفسكى العالم الخارجى - لأول مرة - عندما سافر فى أول مايو ١٩٢٢ ، إلى لاتفيا . وفى أكتوبر من نفس العام ، يذهب إلى ألمانيا وفرنسا . ويلقى قصائده فى برلين وفرنسا . وقد سجل ماياكوفسكى انطباعاته عن الرحلة فى محاضرات « ما الذى تصنعه برلين ؟ ما الذى تصنعه فرنسا ؟ » ، وفى مقالاته التى نشرتها « الازفستيا » وجريدة « كراسنايانيفا » ، وفى قصائده « ألمانيا » و « باريس » .

وفى يوليو ١٩٢٥ من العام التالى ، يعاود زيارة ألمانيا ، ليكررها للمرة الثالثة فى منتصف أبريل ١٩٢٤ . وتتعدد زياراته لألمانيا وفرنسا .

وفى يوليو ١٩٢٥ ، يلتقى بالفنان المكسيكى « دييجو دى ريفيرا » و الشيوعيين المكسيكيين فى المكسيك ، فى طريقه إلى الولايات المتحدة .

ويصل إلى نيويورك فى ٣٠ يوليو . وخلال زيارته للولايات المتحدة ، يلقى محاضرات عن الأدب السوفيتى ، كما يلقى قصائده فى كل من نيويورك ، وكليفلاند ، وديترويت ، وشيكاغو ، وفيلادلفيا ، وبيتسبورج . ويلتقى بالكتاب الأمريكيين التقدميين . وتنشر قصائده فى الصحف الشيوعية الأمريكية .

وفى منتصف أبريل ١٩٢٧ ، يقوم بجولة أوروبية يزور خلالها بولندا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وألمانيا ، وفرنسا . ويلقى المحاضرات والقصائد فى براغ ، وباريس ، ووارسو ، وبرلين ، ويلتقى بالعديد من الكتاب التقدميين .

ويلتقى ماياكوفسكى مع « أراجون » خلال زيارته لفرنسا فى أواخر ١٩٢٨ ، وتكون زيارته الأخيرة لفرنسا ضمن جولة قام بها فى منتصف فبراير ١٩٢٩ ، زار خلالها كلاً من فرنسا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا .

وقد تبدى أثر هذه الرحلات الخارجية واضحًا فى إنتاج ماياكوفسكى . فقد احتلت قصائده « الخارجية » حيزاً وأهمية فنية ليسا متواضعين ، وسط أعماله الشعرية الكاملة . كما منحت رؤيته للعالم آفاقاً جديدة . ومن هذه القصائد : «باريس» و « المحيط الأطلنطى » و « جسر بروكلين » و « أسبانيا » و « الفلسفة الضحلة فى المياه العميقة » و « نحو الوطن » و « كل شئ هادئ فى الغرب » و « المرأة الباريسية »

(ح)

ورغم كل شئ ، فلم يكن التوافق كاملاً - أبداً - بين قيادة الحزب والدولة ، وبين ماياكوفسكى . وفى ذلك ، يكمن أحد جذور الانتحار .

وقد قامت هذه العلاقة الملتبسة بين قيادة الحزب والدولة وبين شاعر الثورة - بدايةً - على أساس من النظرة السلبية من جانب القيادة إلى « مستقبلية » ماياكوفسكى ، باعتبارها - « المستقبلية » - نزعةً مضادةً للواقعية ، كما يفهمها القادة ، وكما يحاولون - عمليًا - تسييدها بالاستناد إلى جهاز الدولة والحزب .

وبذلك ، أصبحت « المستقبلية » وصمةً لماياكوفسكى ، فى ذاتها ، حتى وإن غنى الثورة الاشتراكية ، من خلالها ، كما حدث فى قصيدته « ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ » .

ففى ٦ مايو ١٩٢١ ، كتب « لينين » إلى « لوناتشارسكى » - مفوض الشعب للتعليم : « ألا تشعر بالخزى من نفسك وأنت تقترح طبع ٥ آلاف نسخة من قصيدة ماياكوفسكى (١٥٠٠٠٠٠٠) ؟ إنها لحماقة وتَصَنُّع هُرَائى مُطبق . أعتقد أن عُشر الكمية فقط هو الذى يستحق الطباعة على ألاَّ يزيد عن ١٥٠٠ نسخة ، من أجل المكتبات والمهاويس . ويستحق لوناتشارسكى التأنيب على مستقبليته » .

وقد رد « لوناتشارسكى » على لينين بأن « هذه القصيدة لا تعجبنى كثيراً ، إلا أن شاعراً كبريوسوف كان مبهوراً بها ، وطالب بطبع عشرين ألف نسخة . هذا أولاً ، وثانيًا ، لقيت القصيدة عندما قرأها مؤلفها نفسه نجاحًا ظاهراً من الجمهور ، بما فى ذلك العمال أنفسهم » .

وإزاء هذا الرد ، استنجد لينين بـ « بوكروفسكى » : « أيها الرفيق بوكروفسكى ! أرجوك كثيراً أن تساعدنا فى كفاحنا ضد المستقبلية وما شاكلها . (١) عرض لوناتشارسكى على اللجنة (مع الأسف !) طبع قصيدة ماياكوفسكى (١٥٠٠٠٠٠٠) . ألا يمكننا أن نضع حداً لهذا ؟ يجب وضع حدٍّ لهذا الأمر . ولنتفق على أنه لا يجوز طبع هؤلاء المستقبليين أكثر من مرتين فى العام ، وبعدد نسخ لا يتجاوز ١٥٠٠ نسخة ؛ (٢) لقد طرد لوناتشارسكى مرة أخرى « كيسليس » الذى يقال عنه أنه فنان **واقعى** . وطرده بمساندته - بطريقة مباشرة وغير مباشرة - لأحد المستقبليين . ألا نستطيع أن نعثر على فنانين معادين للمستقبلية يمكن الاعتماد عليهم » .

ووفقًا لشهادة « جوركى » فقد كان موقف لينين من ماياكوفسكى يتسم بعدم الثقة ، بل والحدة : « إنه يصرخ ، ويخلق كلمات مخادعة . ولكن ليس كل مايكتبه هو المطلوب تماما ، فيما أرى ، ليس تمامًا هو المطلوب ، كما أنه صعب الفهم . وكل شئ عنده مبعثر للغاية وصعب القراءة . أتقول أنه موهوب ؟ بل ذو موهبة كبيرة ؟ هم - هم ، سوف نرى ! ألا ترى أن ما يُكتب الآن من شعر كثير للغاية ؟ إن هناك صفحات كاملةً من الشعر فى المجلات ودواوين تظهر فعلا كل يوم ».

ولاتكمن القضية - بالطبع - فى تفارت تقييمات الشعر والشعراء ، ولا فى أن لينين ليس « حكمًا كفئا » فى مسائل الشعر ، على نحو ما أقر أكثر من مرة ، ولكن تكمن فى استخدام الحكم غير الكفء سلطات موقعه فى الصراع مع هذا

الاتجاه الإبداعى ، أو ذاك ، إلى حد أن تصدر اللجنة المركزية رسالة بشأن قضايا الفن ، موجهة بشكل حاد ضد المستقبلية ، من خلف ظهر مفوض الشعب للتعليم ، المنوط به معالجة المسائل الثقافية . وتتبدى الخطورة الفادحة لمثل هذه المواقف المركبة إذا ما اتصلت - فى حالتنا هذه - بماياكوفسكى بالذات ، شاعر الثورة . فلنا - إذن - أن نتوقع المفارقة الأليمة ، إذ يرى شاعر الثورة نفسه موضع شك ، وأحيانًا موضع حصار ، من قيادة الثورة التى منحها كل شئ .

(ط)

ورغم ذلك ، فقد كان الوضع لايزال محتملاً . فكان له أن يجوب المدن الروسية والقرى ، يلقى القصائد فى المصانع أو المعاهد أو الجيش أو الأسطول ، إذا ما ضاق بالمناخ المعادى فى العاصمة . وكان له أن تكتظ الساحات والقاعات بالجمهور المتلهف على صوته الشعرى القوى . وكان له أن يسافر إلى الخارج ، إذا ما ضاق بقواعد اللعبة .

ولكن هذا الكثير تقلص تدريجيًا .

فحينما تحدث لينين - فى رسائله ومقالاته الأخيرة (١٩٢٢ - ١٩٢٣) - عن « حصر سلطة لا حد لها فى يد الأمين العام للحزب ، والشك فى أنه سيعرف على الدوام كيفية استعمال هذه السلطة بما يكفى من الاحتراس » ، وعن « الغطرسة والولوع الذى لا حد له بالجانب الإدارى الصرف من العمل » ، و « الإفراط فى الفظاظة » ، و « التكلف المضحك أو التزمت المضحك ، والتى تخدم بكل روعة مآرب بيروقراطيتنا سواءً فى مؤسساتنا السوفيتية أو فى مؤسسات الحزب » . حينما تحدث لينين عن ذلك ، فقد كان يحذر من مخاطر حقيقية ، لم يسمح له مرضه المتفاقم بمواجهتها ، لتستشرى بعد وفاته .

وتزايدت المسافة بين الشاعر والسلطة ، لتأخذ شكل الهوة . فلم يكن لماياكوفسكى أن يصمت على مهازل البيروقراطية ، من عبثيتها المضحكة المأساوية ، إلى إهدارها لقيمة الإنسان ، لصالح إعلائها من قيمة الورق والأرقام ، إلى شل الفعالية الإنسانية ، وإلى أن يصبح الزمن خواء ، بدلاً من أن يكون محلاً للفعل

الإنسانى . وكانت قصائده « فطائع الأوراق » و « جنون الاجتماعات » ، التى أعلن لينين – فى أحد اللقاءات السياسية – « إننى أؤكد صحتها المطلقة » بالنسبة للجانب السياسى ، وكانت – أيضا – مسرحياته هجاءً مريراً للبيروقراطية ، والهرب من المسئولية ، والذاتيّة الضيقة ، والانتهازية المختفية وراء الكلمات والعبارات الثورية . لم يصمت ماياكوفسكى على ما يتفشى من أمراض فى المرحلة الحرجة من عمر الثورة والدولة ، ففضح الانتهازيين ، والمتسلقين ، وسخر ممن يعوقون التفتح الإنسانى الكامل لروسيا الجديدة .

وبدأت إحدى الحلقات تضيق عليه الحصار ، حلقة البيروقراطيين فى قيادة الحزب والدولة ، وخاصة فى السنوات القليلة السابقة على انتحاره ، فرفعت أعماله من واجهات المكتبات ، وأصبح اسمه مثيراً لنفور القائمين على الثقافة الشعبية مع كل عمل فنى يتقدم به .

(ى)

تكاتفت مع الحلقة البيروقراطية حلقة ثقافية ضمت العديد من الفرقاء : أساتذة المعاهد وأصحاب النزعات الرجعية ، ممن أرادوا للشعر ألا يتحول عن اتجاه بوشكين وليرمونتوف . أولئك الذين لايريدون للشعر أن ينزل من سمائه العليا إلى أرض الحياة اليومية . وهناك السياسيون الذين كثيراً ماتساءلوا : « مابالـه يتكلم عن الحب كثيراً ، وما فائدته لقضية الجماهير ، ولحركة البروليتاريا ؟ » . وكان هناك – أيضا – الحسد والغيرة من أشباه الشعراء والنقاد ، الذين روعهم صوته القوى ، وتجديداته الشعرية المثيرة ، وأولئك الذين تناولهم بالهجاء المر ، دون إخفاء أسمائهم فى قصائده .

وفى أحد لقاءاته الجماهيرية ، انبرى له أحدهم ، فى محاولة لإثارته وتشويه صورته أمام حشد الحاضرين ، بالسؤال :« لماذا تكرر فى كلامك ضمير « أنا » .. « أنا » ؟ ألا يدل ذلك على طغيان الروح الفردية لديك ؟ » . وأجابه ماياكوفسكى : « هل تعتقد أن نيقولا الثانى كان يؤمن بالروح الجماعية عندما كان يقول « نحن » نحن » ؟ . وفى مرة أخرى ، اتهموه – فى أحد اللقاءات – بغموض قصائده ، واستعصاء فهمها على الجمهور . فطلب من جمهور الحاضرين الذى لايفهم شعره رفع

الأيدى ، فرفعها عدد قليل . فأجاب قائلا : « ألا ترون أن نسبة غير المتعلمين ليست عظيمة ؟ » . وحاول بعضهم إحراجه ، فطالبه بإبداء رأيه فى بوشكين ، باعتبار أن المستقبليين يقللون من أهميته كشاعر .. فكان رده هو قراءة قصيدة له كتبها فى ذكرى ميلاد بوشكين الخامسة والعشرين بعد المائة .

وظلت موجة التهجمات تتعالى بمرور الزمن . فكتب الشاعر « سيرجى سباسكى » يصف شعره بأنه « غشاوة باطنية وعدم مقدرة على التقاط وفهم إيقاع ومدلول العصر ، مما قاده إلى طريق مسدود » . ونظم الشاعر « سوسنوفسكى » حملةً ضده تحت عنوان « كفانا ماياكوفسكية » ، استعر – من خلالها – الصراخ وارتفعت الأصوات بأن شعره يعانى « أزمةً لاريب فيها » ، وأنه اتسم فى حقبة ما بعد الثورة بالبؤس والضحالة على حد سواء ، وأن الثورة قد أفقرت شعره ، وحطمت موهبته . وارتفعت أصوات أخرى بأنه لايمثل أبداً الروح الثورية ، وأنه ممن ظلوا على هامش الأحداث الثورية ، ولم يستطع التعبير عنها أو الاندماج فيها . فقالَ عنه البروفيسور « كوجان » أنه « غريب على ثورتنا . فماياكوفسكى من الموغلين فى السلفية والفردية بالمعنى البرجوازى القديم لهذه الكلمة » . ووصفه « ليجنيف » – فى مقاله « قضية جثة » ، ويعنى بالجثة ماياكوفسكى – بأنه « خطيب بارد متفلسف » . وعندما ظهرت قصيدته الطويلة « رائع ! » قال عنها « م . بيكر » : « إنها خطاب مقفى حول موضوع سياسى » . وأشار إلى أفوله الشعرى . واعتبرته جمعية الكتاب البروليتاريين الروسية من « رفاق الطريق » العَرضيين .

وبلغ الحصار درجةً عاليةً من التلفيقات والشتائم والاتهامات المختلفة ، إلى الحد الذى دفعه إلى البوح الأليم : « يُخَيل إلىّ أحياناً أنْ أرْحلَ إلى مكان ما وأعيشَ فيه سنة أو سنتين ، فقط حتّى لا أسمَع الشتائم » . وتكون رحلاته المتوالية إلى الخارج – فى أحد أبعادها – نوعاً من الهروب من الاختناق بالشتائم والاتهامات المبتذلة .

(ك)

عندما التقى ماياكوفسكى مع « تاتيانا ياكوفليفا » ، فى باريس ١٩٢٨ ، كان يجر خلفه تجارب حبه الفاشلة ، ولهفته على الحب المحكوم بالانطفاء .

كان قد عرف قبلها « ماريا الكسندروفنا » ، لكنها تزوجت من رجل ميسور الحال ، لتصنع بعد انتحار ماياكوفسكي تمثالاً له .

وحينما التقي بآل « بريك » ، لم تلبث علاقته مع « ليلى » أن توطدت ، لكنها تظل محكومةً بالتراوح والقلق والتوتر . وتسير نحو النهاية المحتومة : اتفق معها ماياكوفسكي - بعد سنوات من العذاب - ألاَّ يلتقيا لفترة من الزمن . وانسحب إلى حجرته التي تشبه الصَّدَفة ، معتزلاً الجميع ، منكبًا على القصيدة ، بحثًا عن مخرج من أزمته الروحية . وحينما تكتمل القصيدة ، وتوصد الحلقة الأخيرة من العلاقة ، يخرج هاتفا : « أنا أعظم دون كيشوت » .

ولم تشبع اللقاءات العابرة والعلاقات السطحية شهوته المحمومة للحب الحقيقي ، إذ « الحب هو قلبُ الأشْياءِ . فلو أنه توقف عن الوجود ، لمات الباقي ، لأصبح زائداً وغير ضروري » .

وعندما التقى مع « تاتيانا ياكوفليفا » - وهي من عائلة روسية تعيش في الخارج - بدا كأن العالم ينحو إلى مصالحته . فقد بادلته الحب ، وأعجبت بذكائه وموهبته الفذة ، ومنحته ما كان ينتظره طوال سنوات من العطش المميت : الحب . كتبت إلى أمها في ٨ نوفمبر ١٩٢٨ : « إنه إنسان رائع . والشئ الرئيسي أنني كنت أتصوره بشكل مختلف تمامًا . علاقته بي مدهشة ، فقد كان سفره من باريس منذ نصف عام تقريبًا مأساةً كبيرة بالنسبة له . وكان يتصل بي من برلين ، وكان حديثه عبارةً عن نواح . وها أنا أتسلم كل يوم برقيةً منه ، وقد أوصى بإرسال باقة زهور صباح كل أحد ، إلى أن يعود .. لقد بدا لي أنني أعيش في روسيا ، عندما كنت معه ، وبعد سفره ، أحسست بالحنين أكثر إلى روسيا » .

وتلاشت بعد حب « تاتيانا » له تلك النظرة التشاؤمية التي ولدها حبه الفاشل لـ « ليلى بريك » . وأصبح حبه وعمله الإبداعي هما كل شئ في حياته . كتب إليها في يناير ١٩٢٩ : « العملُ وانْتظارُكِ هُما فَرحتي الوحيدةُ في الحياةِ » . وعرض عليها المجئ إلى روسيا ليعيشا معًا ، وأن تعمل مهندسة في « آلتاى » . ويبدو أنها كانت مترددةً في الإقدام على هذه الخطوة ، لبعض المشاكل والارتباطات الخاصة بها .

وقرر ماياكوفسكي السفر إليها في باريس . وتقدم بطلب السفر إلى البيروقراطية

للعودة ، فتم رفضه . وعلم - بعد حين - بزواج « تاتيانا » من الفيسكونت « دوبليسيه » ، بعدما عرفت بقرار منعه من السفر إلى الخارج . وأحكمت دائرة الحصار القاتل .

(ل)

وعندما ذهبت إليه « راشيل » مساء ١٣ أبريل ، لتطلعه على الرسوم التخطيطية لديكور مسرحيته « موسكو تحترق » ، طلب منها أن تبقى معه ، وتحدثه عن شئ ما ، للخروج من المناخ النفسى الذى يعيشه . فحدثته عن زواجها المأساوى الذى انتهى بالانفصال عن زوجها . وفى اللحظة الأخيرة ، لمحت المسدس النائم على المنضدة .

وفى اليوم التالى ، عندما اكتشفوا الواقعة ، كان وجهه هادئًا ، لا يشبه وجوه الموتى . وكان شهود الجريمة : دم ، ومسدس ، ورسالة أخيرة . وكان مناخ الحصار هو القاتل .

(م)

لم تكمن مأساة ماياكوفسكى فى ازدواجيته النفسية ، أو فى انقسامه الداخلى ، على نحو ما يعتمد « لوناتشارسكى » - أول مفوض للتعليم والثقافة فى أول حكومة سوفيتية - التفسير السايكولوجى ، فى محاولة واضحة لنفى المسئولية الكبرى للبيروقراطية عن انتحاره . لكنها تكمن فى الصراع المحتوم ، غير المتكافئ ، بين الشاعر والطابور البيروقراطى المتغلغل فى الحزب والحكومة ، حين يرفض الشاعر الامتثال للقالب الحديدى الذى يراد فرضه فى مجال الإبداع ، بل حين يرفض التستر على العورات التى تتلبس مظهراً اشتراكيًا ، فيعريها ويفضحها أمام الجميع ، وأمام أصحابها ، وهو أعزل من كل سلاح ، إلا صوته المجلجل ، وموهبته الفذة ، وإيمانه العميق بالاشتراكية الحقيقية . يتبدى أحد ملامح هذه المأساة فى صفعته التى وجهها لطابور البيروقراطيين ، الذين تسابقوا على الصفوف الأولى فى الاحتفال بذكرى مقتل « بوشكين » : « فلتحمد الله يا الكسى سيرجيفتش بوشكين ، لأنك لم تولد فى هذا العصر . وإلا لاتهمك البيروقراطيون بالانتهازية والجمود ! » .

وحين يتعرض « لوناتشارسكى » مضطراً - من بعد - لواقعة انتحاره . يحاول التهرب مجفلاً ، متستراً بلواء « نحن لا نعرف الظروف » ! . لكنه لا يستطيع أن يفلت من دم الشاعر القتيل ، فيعترف : « لسنا كلنا نظراء لماركس ، الذى قال إن تجربة الشعراء تحتاج إلى كثير من الحُنُو . لسنا كلنا نفهم ذلك ، ولم نفهم أن مايكاكوفسكى كان فى احتياج إلى الكثير من الحنان ، وذلك أله لم يكن محتاجاً لشئ قدر حاجته إلى كلمة حانية ، ربما كانت أبسط الكلمات » . فهم مفوض الشعب للثقافة والتعليم الأمر أخيراً ، لكن بعد أن ضاع الدم النبيل ، ليتبدى وجه الفظاظة التى عاملوا بها شاعر الثورة الكبير ، فجًا ، وبشعًا ، ووحشيًا

* * *

- ٤ -

« تلكَ اللحظةُ المرعدَة ،
المضيئَةُ أكثرَ من الألعَابِ النَّاريَّة
لَن أبَادلَهَا بأيِّ شَيء ،
بأيِّ شَيء ، أبداً .... »

لا يصح النظر فى قصائد ماياكوفسكى . إلاَّ فى ضوء الثورة ، التى كانت حدّاً بين مرحلتين ، فى الكتابة لديه ، حدّاً واضحاً ، دون أن يكون فاصلاً .

تمثل قصائد ما قبل الثورة وحدةً ما ، فيما تمثل قصائده بعدها وحدةً أخرى ، تمتلك كل منهما سماتها الخاصة ، وحدودها المميزة . أما الوحدة العامة لشعره ، فليست حاصل الجمع بينهما ، وإنما حاصل جدلهما ، بما ينطوى عليه هذا الجدل من انقطاع واستمرارية ، وتحول ، وإضافة ، فى آن ، وفى القصيدة الواحدة - فى أحيان كثيرة .

(أ)

تنطوى قصائد ما قبل الثورة على وحدة العالم العامة ، التى تتخللها التناقضات الداخلية . إنها الوحدة التى تقوم على بشاعة العالم ، وفجاجته ، وإهداره لكل قيم التحقق الإنسانى النبيل ، بل للقيم الأولية للوجود الإنسانى ، بما هو إنسانى .

إنه عالم من هواة انتهاك المحرمات والقتل والجريمة ، والدخان الذى يخنق جوقة الروح ، والقبضات القذرة والوحشية التى تندفع خلال الابتسام والمرح . عالم من اليأس والغثيان ، وحظائر الشوارع التى تغدو أكثر وحشية . كما أنه عالم من

التهافت : من الشعراء الغارقين فى الدموع والنشيج ، الذين لا يكفون عن غناء أزهار الربيع وأثواب النساء القرنفلية ، من النظَّامين الأقزام ، والعاهرات والمقاولين ، والكلمات التى تتمدد على الشفاه جثثًا متعفنة ، والقلق الفارغ على الرشاقة فى الرقص ، والمستغرقين فى أناشيد اللوعة ، والقطيع النتن الزاحف بين الخمارات .

فى ظل هذا العالم ، يفقد الوجود معناه الحقيقى : يصبح القمر نوعاً من النفاية القديمة التى تفتقد الجدوى ، والمدينة جحيمًا هائلاً ، ومصابيح الشوارع قياصرةً فى تيجان من ألغاز تموت ، والقراءة لا تثير سوى الملل ، والكتب مرادفة للكراهية ، والشارع يئن تحت وطأة الألم ، صامتًا ، ولا يتبقى سوى الجنون .

ولا تفلت علاقات الحب - الشكل الأرقى للتحقق الإنسانى - من المصير المحتوم . فهى محكومة بعدم الاكتمال ، بعدم التواصل ، بامتدادها من طرف دون اتصال بالطرف الآخر . أو إن الاستجابة طارئة ، موقوتة ، تتبدد مع الظروف المتغيرة ، فى افتقادها أية جذور حقيقية ، وأى مناخ موات . تتحول - بذلك - إلى علاقة إهدار ، وتدمير ، وعبث جنونى ؛ لا منطق لها ، ولا يمكن التنبؤ بمسارها ، سوى ما تتخذه النتيجة الأخيرة من نكران . فبشاعة العالم المحيط تحاصر أية إمكانية حقيقية للتحقق والاكتمال . بل تمتد هذه البشاعة لتصيب داخل الإنسان بالتشوه والعجز ، فيصبح عاجزاً عن التواصل الحميم . يصبح كل فرد جزيرةً معزولة ، يفصلها عن الآخرين الهواجس والترددات والطموحات الزائفة والأوهام .

لا يتبقى - لمواجهة هذا العالم - سوى الثورة والتمرد . لكن الثورة تحكمها شروط وقوانين أكثر موضوعيةً من أن يفرضها - أو يكيفها - العمل الفردى . فلا يبقى سوى التمرد على العالم ، ووصمه بما يستحق ، واستفزازه والسخرية منه والهجاء ، والتشهير . إنه الرفض ، والمواجهة المستندة على طرفيها : « الفرد » و « النظام » الكامل من القوى والعلاقات والقيم .

تصبح الأنا - الشاعر مركز المعاناة الإنسانية ، والصورة الفردية النمطية للإنسان العادى ، البسيط ، الإنسان المغمور ، الذى يقع ضحيةً لمجتمع غير عادل ، فيندفع إلى التحدى الجرىء لكل النظام . « رجل مغمور » يمتلك القوة والموهبة ، فلا يرجو بل يطلب ، لا ينحنى ، بل يواجه ؛ لا يمتلك فضيلة الصمت ، إنما تدفعه شهوة التمرد إلى الكلام والصراخ إلى حد التهور ؛ بل إلى حد أن تعجز القصيدة عن التعبير **(عن ذلك / لا قصيدة يمكنها أن تحكى)** .

يقف هذا « البطل الشعرى » فى تعارض كامل مع العالم الكريه والوحشى لكائنات فاقدة الروح ، فاقدة لكل الملامح الإنسانية . ويتحقق هذا التعارض فى شكل « بطولى » ، حيث يمتلك هذا « البطل » الروح العظيمة المتسامية على الفجاجة السائدة ، والروح المقاتلة التى تواجه الفجاجة بما تمتلك من قوى داخلية لا تنفد : قوة السيطرة على هذا العالم ، التى تمنحه سلطة الحكم الصارم بفساده وأيلولته إلى الانقلاب الضرورى ، وقوة البصيرة التى تضىء له القوى التحتية للتغيير القادم ، فى ١٩١٦ .

لكن هذا التعارض يتحقق - أيضًا - فى شكل « هجائى » ، ينطوى على «المأساوى » . فالسخرية المرة والهجاء الخشن هما الأداة الشعرية لمواجهة العالم ، وأداة تحقيق التعارض معه . لكنه يتكشف عن إحساس مأساوى دفين بالعزلة والعجز الفرديين ، فى خضم علاقة صراعية غير متكافئة ، بين « أنا » صغيرة فردية ، و « لا انا » أخطبوطية ، مهولة وساحقة ، هى « لا أنا » عالم كامل معاد وقاهر لكل الكيانات الصغيرة . يتعمق هذا البعد المأساوى حينما تتحول الثورة القادمة - فى القصيدة - إلى « نبوءة » أو « حلم » ، لا يمتلك الشاعر إزاءهما سوى فعالية التنبؤ أو الحلم أو التبشير ، دون امتلاك فعالية المشاركة ، فعالية «الفعل» المحقق . فالثورة - بذلك - عبء ملقى على « الآخرين » ، يتحقق فعليًا على نحو مستقل عنه ، برغم أنه المبشر بالثورة والحالم بها ، والتى تمثل خلاصه الوحيد . إن العجز عن تخطى حاجز العزلة الفردية هو ما يحقق هذا الوضع المأساوى للبطل الشعرى عند ماياكوفسكى ، فى قصائد ما قبل الثورة .

(ب)

لكن هذا العالم المعادى يتغير مع قيام الثورة ، التى علق عليها ماياكوفسكى كل الآمال والتطلعات . تدخل القصيدة الشعارات الثورية ، والتحريض المباشر ، والاصطلاحات السياسية والاقتصادية ، والعلم السوفيتى الأحمر ، وأسماء قادة الثورة ، ومواقع الانتفاضة . تدخلها وجوه البحارة والسفن ، ودخان المصانع ، وزئير الآلاف المحتشدين فى الاجتماعات السياسية ، والبيانات ، ووجوه الخونة المطاردين ، وعرق العمل .

ها هنا ، انتفت الرمادية من القصيدة ، لينفرد الأبيض والأسود بساحتها . أصبحت القصيدة تحريضاً سياسياً ، أو اتهاماً ، أو تفسيراً ، أو تعليقاً ، أو كل ذلك - فى آن واحد . لكنها صارت - فى جميع الأحوال - خطاباً مباشراً ، ينفى التأمل والرثائية ، ويعتمد المواجهة الخارجية التبشيرية والدعائية .

استند ذلك التحول على قبول ماياكوفسكى الكامل للعالم الجديد الذى تقيمه الثورة ، وقبلاً - على رفضه الكامل للعالم القديم . فهاهنا ، أصبح جزءاً عضوياً من الثورة ، هى ثورته التى يغنيها ، يحرض على أعدائها ، ويتبنى كل خطواتها الإصلاحية ، باعتبارها الحلم الذى تحقق من أجل استكمال الإنسان لأبعاد وجوده الحقيقية .

انتفى - من ثم - وضعه المأساوى السابق ، القائم على تمرده المعزول الفردى على العالم ، لتتكشف القصائد عن عضوية « الأنا » الشعرية مع العالم - من ناحية - ومع قوى التغيير - من ناحية ثانية . وينتفى - من ثم - الشكل « الهجائى » ، أو يتقلص إلى حدود دنيا ، فيما ينطلق الصوت « البطولى » مجلجلاً ، موحداً تواريخ الألم الروسى ، وأقاليم الجغرافيا ، فى لحظة نادرة : لحظة الهدم العظيم والبناء العظيم . ويصبح هذا الصوت هو اندماج أصوات النبى والشاهد والحكم والفاعل ، فى لحظة تاريخية تستقطب التاريخ ، وفى حدود جغرافية تستقطب الجغرافيا . هى أحفل اللحظات وأكثرها تعبيراً عن الجوهر الإنسانى .

يصبح كل حدث بسيط مناسبةً احتفاليةً بمجد الإنسان على الأرض ، فى الصحارى والجبال وعلى سطح المياه وفى جوف المناجم ، وكل ذكرى موعداً للفرح والصلاة للطاقات العملاقة المتفجرة من الإنسان البسيط الفانى ، وكل خطوة وعداً بسماء جديدة يمشى عليها الإنسان ، وأفقاً قزحياً يجوبه دون عناء . ينتفى من السماء الأزرق الكابى لتعربد فيها الألوان فى جوقة من البهجة الخالصة .

تصبح الأحلام السابقة بعالم جديد تحققاً ، أو - فى الحد الأدنى -قابليةً ماديةً مؤكدةً للتحقق . ويصبح التعارض السابق مع العالم ، التئاماً ، وتوحداً به ، لا يقبل الانفصام . تتفتح كل الاحتمالات والإمكانيات على التحقق الإنسانى ، الذى يبتدئ بالإنسان الروسى ، ليتخطاه - دون توقف عنده - إلى الإنسان فى أقاصى الأرض . فهى ليست سوى البداية التى لا تشبه أية بداية أخرى ، لا تشبه إلا ذاتها .

ولا تشبه صور العالم الجديد - فى قصائد ماياكوفسكى - اليوتوبيات المثالية . فهى تقوم على دعائم راسخة من الوقائع التاريخية التى تناقض الخيال ، وإن لم يتداخلها منه شىء . فالحكم القيصرى الذى يمتد عميقًا إلى مئات السنين ، وآلاف من ساحت دماؤهم فى الإضرابات وخلف المتاريس وأمام بوابات قصر الشتاء ، ينهار كل هذا العالم أوائل العام ، لتتسلم الحكم قبضة البورجوازية . وفى أواخر العام - بعد ستة شهور فحسب - يسقط الحكم البورجوازى ، ليدخل العمال والجنود - بأسمالهم المهترئة وعيونهم المرهقة - قصر الشتاء العتيد ، لتدخل القاعات القيصرية المرمرية - لأول مرة ، كما فى الحلم البعيد - الوجوه الملطخة بالدخان وفقر الدم والأقدام الحافية التى تحمل آثار الطين الجليدى ، والشعر المشعث الآتى - توا - من خلف متاريس أكتوبر العاصف . إنها نفس الوجوه التى كانت تعيش - قبل أكتوبر - على حافة الحياة .

تقوم صورة العالم الجديد - أيضًا - على دعائم راسخة من بحار العرق التى يسفحها الملايين من كدح مميت ، من أجل إعادة بناء العالم ، عالمهم هم - هذه المرة ، وعلى دعائم راسخة من التبنى الطوعى للتوجهات العامة التى تحكم مسيرة البناء .

(جـ)

لكن العين لا يعميها الفرح بالمتحقق عما يحول دون الاكتمال ، لا أقل من الاكتمال . تمتد لذعة الهجاء المر القديمة ، لتعرى البيروقراطية التى تتسرب إلى زوايا وأركان العالم الجديد ، لتحول الإنسان إلى محض بقعة على الهامش ، وتستبدل العقول بالتعليمات ، ويتحول الإنسان إلى خادم للورق ، ليذوى كبرياء الإنسان إلى النسيان الأبدى ، ويخبو مستقبل الإنسانية .

إنها - من ناحية أخرى - الدائرة العبثية الجنونية للاجتماع ، إلى حد التحول إلى شهوة أو إدمان ، بلا شفاء . (**إنهم فى اجتماع : مزاد زجاجة حبر للهيئة التعاونية الإقليمية**) . وتنفجر طاقة التهكم والهجاء ، فبعد الاجتماع ، يذهب الجميع إلى اجتماع « الكومسومول » ، ثم إلى اجتماع « لجنة أ - ب - ت - ث » ، بل يحضرون اجتماعين فى نفس الوقت ، لتتحول السخرية والتهكم إلى الجنون واللعنات المتساقطة على الرؤوس ، وحلم وحيد : اجتماع أخير وحاسم يقرر إلغاء كل

الاجتماعات . وإذ لا يتحقق الحلم ، لا يبقى سوى التحول إلى ذئب مجنون ، يلتهم الأوراق ، وينتزع أحشاء البيروقراطية؛(فلا احترام للتعليمات - بل الخلاص الكامل !) .

(د)

ويبقى الحب المجهض هو ملمح الأسى المستديم فى قصائد ماياكوفسكى كلها ، ما قبل وما بعد الثورة . فها هنا ، لا طاقة على الانتظار ، إلى أن يستكمل العالم الجديد كل مقوماته . *إنه الإنسان - الدم واللحم والأعصاب والإحساس -* الذى يبحث عن التحقق الذاتى الآنى العميق . إنها شهوة التواصل التى لا يجدى معها إرجاء أو استناد على حلم مستقبلى . فآنيتها هى مصدر العذاب والاحتراق الأليم .

لكن انهيار مؤسسات النظام القديم ، الذى تحقق فى عام ١٩١٧ ، والشروع فى إقامة أسس النظام الجديد ، لا يرتبان - آليًا - انهياراً لنظام القيم والأفكار القديم ، وشروعًا فى إقامة نظام حديد ، بشكل مواز . وظل التحقق الإنسانى منقوصًا ، إذ استكمل البطل الشعرى - عند ماياكوفسكى - مقومات وجوده العام ، فى النظام الجديد ، فيما ظلت مقومات وجوده الفردى ، والخاص ، مفتقدة الالتئام والانسجام ، فى الحكم المستديم على الحب بالإجهاض .

وانقسم الصوت الشعرى على ذاته : إنه القوة والمجاهرة والخطاب المباشر والسخرية والتفاؤل - فى مواجهة العالم الخارجى ، والوجود العام ؛ لكنه الأسى والبوح والرثاء واليأس - فى مواجهة العالم الداخلى ، والوجود الخاص (**فَلْيَمتَد الانتظارُ حتَّى اليَأس / وَلتَتَحوَّلْ الحَيَاةُ إلى كَابُوسٍ وَاحِدٍ طَوِيل ، وَلتَمضِ مِن سَىءٍ إلى أسوأ**) . ولا أمل فى أن يلتئم الإنسان ، أو يتحقق للصوت توحده الشعرى ، أو آن الأمل الوحيد فى التوحيد الذاتى هو أمل يحمل طابع اليأس من التحقق ، لا الثقة فى الإمكانية القادمة (**سَبعَ سَنَواتٍ ظَلَلتُ أنتَظِرُ ذَلِكَ أن يَتَحقَّق ، وسَوفَ أستَمِرُّ مَصلُوبًا هُنَا ، عَلَى مَرِّ القُرُون**) . إنه - بمعنى ما - الأمل المرادف لليأس .

وكان ماياكوفسكى - نفسه - واعيًا بهذا الانقسام الذاتى ، وعيا مرهفا :
« **إننى لا أخْشَى هذا القَرين فى السِّياسةِ ، ولا فى الشِّعر ، ولا بعيداً هناك فى**

البحَار العَاليَة ، حيثُ تَكلَّمتْ والبُوقُ فى يَدى ، مع السَّفينَة « نيت » ، لكنَّ هُنَاك فى بُحَيْرةٍ وجْدانيةٍ صغيرةٍ ، حيث يُغنِّى الكرَوَانُ ، ويضىءُ القَمرُ ويُبَحرُ قاربِ الحب ، هناك تحَطَّم قاربى » . لكن ، ليس بالوعى وحده يحيا الإنسان . فالحب « هو قلبُ الأشياء » .

(هـ)

كان الانقسام - إذن - فى الصوت الشعرى ، عند ماياكوفسكى . وهو انقسام ينتفى فى قصائد ما قبل الثورة . فلقد كان العالم موحداً - غير منقسم - فى فجاجته ووحشيته . كان العفن يوحده بالشكل الذى يفرض توحد الموقف ضده : الرفض والتمرد . كانت وحدة العالم فى تهرئه وقذارته ، فلا يفلت منه هذا البعد أو ذاك من أبعاد الوجود الإنسانى ، سوى الحلم بنفى الإهدار الإنسانى ، وتحقيق الاكتمال ؛ ذلك الحلم الذى ارتهن على الثورة القادمة . لكن الثورة - إذ قامت فعلاً، وفى المدى الزمنى الذى تنبأ به ماياكوفسكى - فإنها لم تحقق سوى « العام » دون « الخاص » . ونشأ انقسام الصوت الشعرى عنده .

ولايتجلى هذا الانقسام داخل كل قصيدة من أعمال ما بعد الثورة ، بل إنه نادراً ما يتبدّى فى القصيدة الواحدة . لكنه يأخذ شكلاً خاصًا ، فاصلاً : فهو انقسام بين القصائد وبعضها البعض ، لا داخلها . بمعنى آخر ، إن الصوت الشعرى لاينقسم على ذاته داخل القصيدة الواحدة ، إذ غالبًا ماتأخذ كل قصيدة أحد قسمى الصوت ، ليشملها كلها ؛ وإنما تنقسم القصائد - ككل - إلى قسمين ، غير متعادلين ، موزعين على قسمى الصوت الشعرى .

وحينما يتجلى هذا الانقسام فى القصيدة الواحدة ، فإنه لا يتبدى انقساماً متكافئًا ، أو مقتربًا من التكافؤ ، لكنه يتبدى ازدواجًا بين طغيان وسيادة شاملة لأحد القسمين ، وبين خفوت ومراوحة القسم الآخر . فهو نوع من تسلل اللاوعى إلى الوعى ، أو الوعى إلى اللاوعى . أو هو نوع من انفلات أحدهما المؤقت من السيطرة الشاملة للآخر ، دون أن يتحول هذا الانفلات إلى ازدواج حقيقى بينهما .

(و)

تمثل قصائد ماياكوفسكى « الأوربية – الأمريكية » – التى كتبها أثناء وأعقاب رحلاته إلى الخارج – تعميقًا لرؤيته للعالم وكشفًا لجوانب لم تستطع قصائده الأخرى الكشف عنها .

لقد افتتن بباريس ، بجمال ميادينها ، والشوارع الفسيحة المشجرة ، والقصور الأثرية : « إننى أحبُّ باريس فوقَ كل تصور » . إنها – فى قصائده – ليست مدينة البورصة والشكنات والوزراء الرجعيين فحسب ؛ إنها – أيضًا – مدينة « العاملِ الفرنسي » والتقاليد الثورية المجيدة . « فأنْتَ لاتَسْتَطيعُ أنْ تنتزِعَ عَيْنيكَ عن هذه الباريس الأُخرى الرَّمادية » .

وتكشف قصائده « الأمريكية » عن رؤيته المركبة لهذا العالم الآخر . فالتقدم الصناعى الأمريكى – دونما مشاعر عنصرية دفينة – المجسد فى « جسر بروكلين » ، هو تحقيق للرؤية فى الكفاح من أجل البناء ، هو شارة على طاقة الإنسان التى لاتنفد ، (كَمَا يَسيرُ المؤمنُ الورِعُ إلى كنيسَةِ الأحَد / خاشعاً مَسحُوراً بالتَّقوَى / هَكَذا ،أخطو ، بقَلبٍ مُتَواضِع ، على جِسرِ برُوكلين) ، بما يمثل من تلك الطاقة . لكن هذا الافتتان لم يستطع أن يخفى بعض ملامح المأساة الأمريكية : (فَلَيسَ غَيرَ الرُّوحِ العَارِيَةِ للأبنِيَة) ، و(الحَيَاةُ هُنَا ، للبَعضِ ، صَيحَةُ مُتعَةٍ / وللبَعضِ الآخَرِ ، صِرخَةُ جُوعٍ طَوِيلَة) .

لم يسقط ماياكوفسكى فى الهوة الفاصلة بين المستوى الفائق للتقدم التكنولوجى الأمريكى ، ومستواه البدائى فى روسيا ، التى خرجت – تواً – من العصور الوسطى ؛ إذ عصمه – من ذلك – وعيه العلمى بحركة العالم ، وإيمانه واعتزازه الراسخان بالتجربة الاشتراكية فى وطنه ، برغم إدراكه لوجود هذه الهوة .

(ز)

اعتمدت قصائد ماياكوفسكى مبدأ المفارقة ، الذى يصنعه التحول والانتقال – الحاد أحيانًا ، وغير المتوقع فى كثير من الأحيان – من حالة لأخرى ، ومن أسلوب لآخر : من الرثائى للتهكمى ، من الديالوج إلى المونولوج إلى الخطابة ، من الفصيح

إلى الدارج ، من البهجة إلى الغضب ، من التمجيد إلى الهجاء ، من أية حالة لأخرى ، ومن أى أسلوب لآخر ، لتصبح القصيدة - من هذه الزاوية - غابةً من الانتقالات المفاجئة ، أو شبكةً من التحولات بين الأساليب والحالات .

هنا - على سبيل المثال - تفقد رثائيته لـ « سيرجى ايسينين » الطابع التقليدى فى الرثاء ، طابع التمجيد المقترن بالبكاء ، لتدخل مناخًا آخر : مناخ الحدث الإنسانى العام ، الذى قد ينطوى على الألم ، لكنه لايتحول إلى تفجع وانهيار ، وينتاب الرثائية ما ينتاب الحدث الإنسانى من تحولٍ وانتقال : (كَومَةُ عِظَامٍ مُتَهَاوِيَةٍ تَبدو فِى نَاظِرِى ، وجَدَاوِلُ حَمرَاءُ تَفِيضُ مِن شُرَيَانِ مِعصَمِكَ المَقطُوعِ ./ولَكِن قِف . كَفَى ! هَل أنتَ فِى كَامِلِ عَقلِكَ ؟ حَتى تَترُكَ كِلسَ المَوتِ يَكسُو خَدَّيكَ ؟) .

وهنا تنفجر المفاجأة فى تكوين الصورة الشعرية فى المفارقة بين مقدمتها - التى تتسم عادةً بالاعتياد الشعرى والألفة - وبين الخاتمة ، التى تتخطى حدود التوقع المبنى على المقدمة . تمثل المقدمة - بذلك - شَركاً يستدرج المتلقى إلى الاستنامة عند مستوى معين من التوقعات الاحتمالية ، لتطيح الخاتمة بكل شئ ، وتضرب فى أقاليم أخرى ، خارج الحدود المتاحة . لايعنى ذلك الانقطاع بين أجزاء الصورة ، لكنه يعنى تعدد مستويات مقدمة الصورة ، بما يتيح تعدد احتمالات كيفية إنهائها ، ليعتمد مایاكوفسكى أبعد المستويات عن الوضوح ، وآخر الاحتمالات الممكنة : (أَنظُرِى إِلَىّ - إِنَّنِى هَادِئ / كَمَا نَبضُ جُثَّةٍ) ، (أرأيتُم ما هو أكثَر رُعبًا مِن الرُّعب - وَجهِى عِندَمَا يَكُون هَادِئًا ؟) ، (أَيُّهَا المُتَنَقِّلُونَ بَينَ الحَانَات ، أخرِجُوا أيدِيَكُم مِن جُيُوبِ بَنطَلُونَاتِكُم . وَانتَزِعُوا القَنَابِل ، أو الأحجَارَ ، أو السَّكَاكِين ، أو مَا شَابَهَ . أَمَّا هَؤلاءِ الذِينَ لاَيَملِكُونَ أسلِحَةً وَأَيدِى / فَليَضرِبُوا رُؤوسَهُم فِى الحَائِط) .

أما إذا انطوت المقدمات - ذاتها - على تخطى الاعتيادى ، وبلغت حد الاكتشاف ، فإن الختام - بدوره - يتخطى مستوى هذا الاكتشاف إلى مستوى أعلى ، أكثر عمقًا ، أو خفاءً ، أو رهافة ، أو إلى مستوى يجمع كل ذلك فى وحدة واحدة ، يمثل الضربة الأخيرة فى الصورة (راجع قصيدة « غيوم الخديعة » فيما يلى من قصائد مترجمة) .

وفى جميع الحالات ، فإن الصورة الشعرية تنطوى على حركية فائقة ، وتخاصم الركود

التأملي ، وسكونية التصميم الذهني . تستمد هذه الحركية مقوماتها من اعتماد الصورة العناصر الحية في حركة العالم . إنها - أساسًا - عناصر الشارع الموسكوفي ، أوائل هذا القرن ، وعناصر الحياة المعيشية ، إنها - في « **غيمة في بنطلون** » على سبيل المثال - الموعد المضروب في الساعة الرابعة ، والمساء الديسمبري ، وزجاج النافذة اللامع ، والعربات المقرقعة ، والمطر المتساقط على الزجاج ، والجص الذي يسقط من السقف ، وصرير أبواب الفندق ، ورجال الإطفاء ، والتاكسيات المنتفخة والزحام ، والكنيسة ، والحانات .. إلخ .

وحينما تستعيد الصورةُ أحد الرموز الثقافية ، فإنه يكتسب - في سياقه الجديد - حركيةً جديدة تهدر ، أو تعارض ، حركيته السابقة ، ليصبح عنصراً تأكيديًا على المعاصر والآني (**مَـا الذي يَعنيـه فَـاوست لي ، وَهو يَنطَلقُ مَع مفستُوفيليس خِلالَ الألعَابِ النَّاريَّة السَّمَاويَّة ؟ إنَّني أعرِفُ أنَّ مِسمَاراً في حذَائي أكثَر تَرويعًا مِن خَيَـالاتِ جُوته**) . وهو تأكيد يعتمد - في نفس الوقت - مبدأ المفارقة بين المعاصر والتراثي ، فيما يعتمد التزاوج الأسلوبي بين التهكمي والوصفي .

لكن الصورة الشعرية تعتمد - أيضًا - في حركيتها ، على صوت وحركة هذه العناصر ؛ أي أنها تعتمد - تحديداً - على هـذه العناصر في حركيتها وصواتها . لكن الحركة تتخطى حد مجرد الإعلان عن نفسها - كحركة - لتتكشف عن الحدة والقوة والعنف على نحو ما يكشف عنه الرصد الأولي للأفعال في أحد مقاطع «**غيمة في بنطلون** » : (تَندفعُ . تَعْمَى . يَقْفزُ . تَخنق . تَقْتربُ . يَبْحَثُ . نَهَضَ . قوَّم . صاح. تُلتَف . يَصْرخُ . يُلقي . يُبادلُ . يَطْلَعُ . يَجْرؤُ . تُزَقْزقَ . تَسْحَقُ . يَقْلَقُ . رَقَصَ . يُسَلِّي . أمْضي . تَنْطَلِقُ . تُدْرِكُ . يَتَحدرُ . يَشْهَقُ . يَتَخبَّط . إلخ) . فهذه الأفعال تحدد المستوى الحاد من الحركة ، الذي كثيراً ما يصل إلى حدٍّ مركب من الحركة والصوت ، أو الصوت الناجم - مباشرةً - عن عنف الحركة ، أو الصوت الضمني المتولد - تخيلاً - عن الفعل الحركي (تسحق : صوت السحق ، ينحدر : صوت الانحدار ، تطعن : صوت الطعن ...) .

لكن الصوت - الذي يمثل ، في جوهره ، انتقالاً لذبذبات معينة ، في وسط معين - يمتلك وجوداً متميزاً عن أفعال الحركة السابقة ، برغم أن بعضها ينحصر في كونه أفعالا لعملية إصدار الصوت (يصرخ ، صاح ، تزقزق) . يتبدى هذا الوجود المتميز في حضور الصوت - نفسه - في بنية الصورة (القرقعة ، الرنين ، الصرخات ،

طاخ ، الصرير ، الاصطكاك . الغناء . النطق . الكلمات . الهذيان . الصفع . النشيد . الزئير . القهقهة . التهاليل) .

إنها - أيضًا - تلك الأصوات المستمدة من شوارع المدينة المعاصرة ، التى تختلط فيها الأصوات الإنسانية المتضاربة ، المعبرة عن حالات إنسانية متضاربة ، مع الأصوات الميكانيكية المختلفة للآلات والورش والمصانع .

تصبح القصيدة غابةً من الأصوات لا تخبو ، وبحراً من الحركة المتلاطمة ، لا يهدأ ، وعالمًا من الصور الشعرية المتعددة العناصر والمستويات .

(ح)

لكن استناد الصور الشعرية على الحياة اليومية - الذى يمثل إحدى أهم سماتها - يصنع مستوى آخر من المفارقة ، يقوم على العلاقة بين الشعر والحياة المباشرة . فالصورة لا تقدم وجه الحياة اليومية المألوفة ، على النحو المألوف . بل تقوم على أحد مبدأين ، أو كليهما معًا : فهى قد تقدم وجه الحياة اليومية المألوف ، على نحو تتفجر معه طاقاته الكامنة ، أو احتمالاته البعيدة ، أو الإسقاطات الشعرية القادرة على التواصل معه . فالمسألة - هنا - فى « الكيفية » ، التى يبدو - من خلالها - وجه الحياة اليومية غير المألوف ، المتخفى وراء قناع العادة والآلية ، على نحو يضىء - أو يعرى - الأركان المعتمة ، والزوايا الخبيئة . فالمسألة هى « الموضوع » و « الكيفية » ، فى آن . وفى الحالين ، تكمن المفاجأة عن انكشاف العادى عن اللاعادى ، والرتابة عن الدهشة ، والألفة عن الاستغراب .

تتبدى هذه المفارقة أكثر وضوحًا فى ترادفها مع اللحظة التهكمية ، التى تنتشر لدى ماياكوفسكى . فغالبًا ما يقع هذا النمط من المقارنة متخذاً طابع التهكم والهجاء والسخط . ذلك يشير إلى أنه كثيراً ما يتبدى فى ارتباطه بأوضاع أو سلوكيات حياتية معينة ، يصمها ماياكوفسكى بالسلبية ، كإدمان البيروقراطية للاجتماع (مَا هَذَا ! لاَ أرَى غَيرَ أنصَافِ النَّاسِ ! / « أينَ هُم » / أصيح ! / «تلكَ الأنصَافُ الأخرَى المفقُودَة ؟ / جَرِيمَةُ قَتلٍ ! / مَجزرَةٌ بَشَرِيَّة ! » .. ثُم أسمَعُ الصَّوتَ الهَادِىءَ للسكرتير : « آسف ، / إنَّهُم يَحضُرُونَ اجتمَاعَينِ فِى نَفسِ الوَقت . / فَنَحنُ يَجِبُ أَن نَحضرَ عَشرَ جَلسَاتٍ يَومِيًا ، / طَوعًا أم كَرهًا ، / فَنَنقَسِمَ نِصفَينِ - فَمِن أسفَلَ حَتَّى الخَصرِ / هَا نَحنُ هُنَا ، / أمَّا بَقِيَّتُنَا - فَهُنَاك » .)

(ط)

استند بناء الصورة على اكتشاف لغة جديدة ، هى **اللغة اليومية** ، التى كانت محل ازدراء من قبل الشعراء ، باعتبارها لغة فاقدة ومجافية لـ « الشعرية » . وكان نزوع ماياكوفسكى نحو تحطيم الشعرية التقليدية للغة ، وخلق شعرية جديدة لها ، إنجازاً هاماً فى تاريخ الشعر الروسى .

لم يستخدم ماياكوفسكى الكلمات الميتة ، أو الكتبية ، لكن قصيدته انفتحت - عن آخرها - لتدخلها اللغة اليومية ، فى المناقشات ، والأحاديث ، والخطابات ، والتعبيرات العامية ، والجمل المتداولة . إنها اللغة الحية الآنية القابلة للتشكيل الآنى ، والقادرة على تحقيق تواصل مؤكد مع الجمهور ، بما تمتلك من جذور ضاربة فى أعماقه . يدخل القصيدة **هَذَيانُ الحُمَّى والملاريَا** ، و « **سَوفَ آتِى فِى الرَّابِعَـةِ** » ، و « **هَـالُّو ! مَنِ الـذِى يَتَكَـلَم ؟ مَن ؟ أمىٌّ ؟** » ، و « **حِسَـاءُ الـكُرُنب** » ، و « **ابنُ الزنَا** » ، و « **أيُّهَـا المَواطِنُون** » ، و « **رَائع** » ، و « **اشـرَبُوا كَاكَاو فَان هُوتِين** » ، و « **دَعِينى أدخُل يَا مَارِى** » ، و « **افتَحِى** » ، و « **هَا ! لَقَد فَتَحَت !** » ، و « **ألاَ تَشعُر بِالضَّجَر ؟ !** » ، و « **يَالكُم مِن أوغَاد** » ، و « **سَوفَ أمـزِّقُكم** » ، و « **دعُونِى أمضِى** » ، و « **لَن تُوقِفُونِى** » . إنها اللغة المرادفة للحالات المتبدلة لليوم الإنسانى ، لغة الهذيان ، وتحديد موعد اللقاء ، والإخبار الفاتر ، والحديث التليفونى ، والإعلان التجارى ، والرجاء ، والسؤال الاستنكارى ، والشتيمة ، والتهديد ، والانفضاض .

وحينما يستخدم ماياكوفسكى - فى بعض الأحيان - اللغة التراثية ، فإنه لا يتقمصها ، لا يتبناها ، ولا يتقازم إزاءها . وإنما يستخدمها كأداة ، أى يسيطر عليها ، مستقلاً عنها ، لتلعب دورها المحدد ضمن الأدوات الأخرى . فهو يستخدمها - أحيانا - منتزعاً عنها قداستها ، فى اتجاه نفيها (**مَجِّدُونِى ! إنَّنِى أضَعُ فَوقَ كُلِّ المَوجُودَاتِ هُرَائِى**) ، أو يستخدمها كأداة تشبيه ومقارنة (**كَانَ ذَلِكَ مَا قَـادَنِى إلَى جُلجُثَاتِ المَنَابِر / فِى القُرَى والمُدُن ، فِى الأعَالِى والمنخَفَضَات / وَلَم يَكُن هُنَاكَ مَن لَم يَصرُخ / ومِنخَرَاه مُتَّسِعَان / أصلُبُوه ! / أ صـ ـلُـ ـبُـ و ـ ه !**) ، أو يستخدمها كأداة تشبيه ساخرة ، لما تنطوى عليه من مفارقة (**مارِى ! / أتَوسَّل** ،

فحَسب ، مِن أجلِ جَسَدك / كَمَا المسيحيُّون من أجلِ عَطلتِهم : « أيهَا ، أعطِنَا / خُبزَنَا اليَومِي / هَذَا اليَوم ! ») . فهو استخدام لهذه اللغة متحرر من أية سطوة لها ، فيما يتمثل دقائقها وإيحاءاتها ورموزها . بل لعله - في حقيقة الأمر - استخدام مضاد لها ، ومضاد لمناخ القداسة الذي تستدعيه . إنه - بمعنى آخر - هدم لذلك العالم الذي تمثله تلك اللغة وترمز إليه .

لكن « الشعرية » لا تكمن - في الحالين - في مجرد إيراد هذه الألفاظ والتعبيرات بذاتها ، لكنها تتحقق من خلال السياق الذي ينتظمها في كلية أعم . إنه - في الحد الأدنى - سياق الصورة الشعرية ، وفق آلياته المتعددة ، السابق الإشارة إليها . ولكن الآلية الأكثر ارتباطًا بكيفية استخدام اللغة اليومية ، هي الانتقال - الحاد والمفاجيء ، في كثير من الأحيان - من هذه اللغة الاعتيادية ، التي لا تُكوِّن في حد ذاتها صورةً شعرية ، إلى لغة الجموح الخيالي (سَوفَ أمزِّقكُم كُلّكُم ، مَحصُوراً بالتَّسلُّق ، / ابتداءً مِن هُنَا ورَأسًا إلَى آلآسكَا !) ، (ألاَ تَشعُرُ بِالضَّجَر / وأنتَ تَغمِسُ العَينَيَن الرَّخوتَين كُلَّ يَوم / فِي هُلاَمِ الغُيُوم ؟) . وأحيانًا ما تتحقق هذه الانتقالية في الاتجاه العكسي ، من لغة الصورة الشعرية إلى لغة الحياة اليومية (رَائِعٌ أن يَصرُخَ مَن يُلقَى بِهِ إلَى أنيَابِ المشنَقَة / « اشربُوا كَاكَاو فَان هُوتِين ! ») ، لتتولد حالة شعرية قائمة على الصورة الشعرية ، وعلى ناتج العلاقة - وهو ليس حسابيًا - بينها وبين ما تشيعه اللغة اليومية من ألفة حيوية ، وإيحاءات آنية .

(ى)

لكن البناء الصُّوَرِي والبناء اللُّغَوِي يمثلان الأساس التحتي للبناء الكلي للقصيدة . وهو بناء يقوم على عدد من المستويات والأشكال ، تتخذ - خلالها - « الأنا » الشعرية سمت التحول الدائم ، وتغاير الوجوه . فـ « الأنا » الشعرية هي اختصار وتكثيف للوجوه الإنسانية . فهذه الأنا - في تحولاتها الدائبة - هي المرادفة لتعدد وتحولات الوجوه الإنسانية ، حيث لا يقتصر الضمير « أنا » على إشارته النحوية والصرفية ، باعتباره ضمير المتكلم الفرد ، لكنه يتجاوز وضعيته تلك ، ليصبح - في أحيان كثيرة - شارةً على الـ « نحن » ، التي تمثلها « أنا » الشاعر ، وتعبر عنها ، وينطق باسمها . ولكن ذلك لا يلغي - في نفس الوقت - أن « الأنا » شارة ، في مواضع أخرى ، على الذات الفردية للشاعر ، في فرديته ، لكنه يقيم

تداخلاً حميمًا ، يستبعد الفواصل القاطعة والحادة ، بين الـ « أنا » الحاضرة لغويا - على نحو ساحق - وبين الـ « نحن » المضمرة ، التى تمتلك حضوراً لغويًا أقل وضوحًا ، وإن امتلكت حضوراً ضمنيًا مكافئنا لحضور الـ « أنا » .

ذلك يشير - فى أحد أبعاده - إلى طبيعة العلاقة الوجودية بين الشاعر والجماعة . فهى علاقة لاتذوب فيها الذات فى الجماعة ، بل تمتلك الذات - خلالها - استقلالاً ما ، يمكنها منّ التعبير عما هو خاص ، ذاتى . وهى علاقة لا تغيب عنها الجماعة خلف سطوة الذات ومغالاتها فى تأكيد نفسها ، بل تمتلك الجماعة حضورها الخاص ، الذى يتحقق - فى غالبه - من خلال اكتساب الذات ملامح جمعية مشتركة . فالعلاقة بين الذات والجماعة - هنا - هى علاقة استقلال نسبى ، تستبعد الانفصال ، كما تستبعد الذوبان .

(ى - ١)

يمثل « **المونولوج الداخلى** » أحد أشكال تحقق هذه العلاقة ، وإن يكن أقلها حضوراً فى القصيدة . فهو - هنا - ليس استبطانًا للذات . أو هروبًا من سطوة العالم الخارجى ، لكنه طرف حوار أصيل مع هذا العالم ، أو هو معارضة له تتحقق فى شكل خاص ، شكل داخلى ، تحت وطأة التعارض الكامل بينه وبين قوانين العالم الخارجى ، وبديهيته الصاعقة ، وخاصة إذا ما اتصل بذلك المجال الإنسانى الذى يستبعد القطع والحسم النهائيين : مجال العلاقة بين الرجل والمرأة : (**تَذكُرين - / كُنت دائمًا مَا تَسألين : / « جَاكِ لَندن ، النُّقُود ، الحُب ، الرَّغبَة - / أَليسُوا حَقيقيِّين ؟ » / وَأنَا - كُلُّ مَا كُنتُ أعرفُه / هُوَ أنَّكِ الجيُوكَندا التِى يَشرَعُ فِى سرِقَتِهَا شَخصٌ مَا / وذَلكَ مَا حَدَث .**) . إنه - أيضًا - تعليق على الحدث الخارجى ، إضاءة له ، وأحيانًا تعريته وفضح زيفه . لكن يظل المونولوج الداخلى ، هو أقل الأشكال البنائية حضوراً فى قصيدة ماياكوفسكى ، فـ « الداخل » يتحقق من خلال « الخارج » ، وبالعلاقة الجدلية معه ، ولا يتحقق ذاتيًا . لذا ، تمتلك أشكال العلاقة مع « الخارج » سطوةً كبيرة فى بناء القصيدة .

(ى - ٢)

يمثل « الحوار / المحادثة » أحد هذه الأشكال . قد يتحقق هذا الشكل من خلال المخاطبة المباشرة التى توجهها الأنا الشعرية إلى أخرى . لكن الأنا الأخرى تظل - فى هذه الحالة - غائبةً ، غالبًا ، عن الوجود العينى فى القصيدة ، فلا تستكمل طرفى علاقة المخاطبة المتبادلة ، على نحوها المباشر والتقليدى . لكنها تستكملها على نحو آخر ، حيث يصبح على الطرف المتكلم - الأنا الشعرية - أن ينقل جوهر الصوت الغائب ، ومضمون موقفه الحوارى ، دون تدخل من هذا الصوت نفسه **(مارى ! / جَسَدك .. / لاً ؟ / لاً تُريدين ؟ هَا !)** . تتحقق المخاطبة بذلك - إذن - بين طرفين حاضرين ، برغم الغياب العينى لأحدهما .

لكن هذه المخاطبة تأخذ - أحيانًا - شكلاً يغيب خلاله أحد طرفيها غيابًا كاملاً ، ليظل وجوده ضمنيًا ، دونما حضور عينى ، ودونما حضور صوتى ، بأى شكل من الأشكال . إنه - فى هذه الحالة - مخاطَب ، يمثل وجوده الضمنى القيمة ، والمناسبة لتحول « الأنا » الشعرية ، واكتسابها ملمحًا جديداً (المخاطبة التليفونية فى « **غيمة فى بنطلون** ») .

أما الشكل الأخير لهذه المخاطبة ، فهو غياب الصوت المباشر للأنا الشعرية ، وحضور صوت الآخر المباشر . لكن الغياب -هنا- ضمنى ، أيضًا ، بالمعنى المباشر ؛ إذ يتحقق صوت « الأنا » الشعرية من خلال أشكال أخرى مغايرة : من خلال حركته ووجوده العام بامتداد القصيدة ، أو من خلال المونولوجات الداخلية ، أو الإيماءات والإشارات الخاصة ، أو من خلال الوحدة بين هذه الأشكال كلها ، أو بعضها . هذا الحضور غير المباشر ، هو ما يتيح إمكانية المخاطبة ، ليصبح صوت « الآخر » رداً مباشراً على قول ضمنى ، غير مباشر (قصيدة « **مجنون الاجتماعات** ») .

لكن أشكال « الحوار / المحادثة » هذه لا تتحقق - شعريًا - على هذا النحو من التحديد الصارم ، بل يسمح تحققها المرن بطواعية عالية للتداخلات المختلفة ، والتحورات المتبادلة ، التى تُعَضونها فى جسد القصيدة .

(ى - ٣)

تصل « المخاطبة » إحدى ذراها فى « الصوت الخطابى » الذى يتغلغل فى قصيدة ماياكوفسكى . إنه الصوت الذى يتوجه إلى الخارج ، إلى الآخرين ، متفرداً ، دون جواب . هو - أحيانًا - صوت الخطيب السياسى ، وأحيانًا - صوت المحرض ، صوت الضمير الجمعى العام . إنه - تحديداً - صوت الانتماء للجماعة ، فى أكثر أشكاله مباشرةً ، وجهرا . ولذا ، فهو أكثر الأصوات ارتفاعًا ورنينًا وحماسًا . فالثقة التى يمنحها وجود الجماعة - فى نهوضها - تستبعد الثنائيات والترددات والأصوات الداخلية ، ليخرج الصوت عاليًا ، فيما يبدو وكأنه يحتفل - أخيراً - بإنسانيته ، التى طال قمعها . لكن وجود الجماعة يتطلب ما يشده فى وحدته ، فى مواجهة التهديد بالانفراط . ويكون الرنين العالى للإيقاع هو ما يوحد ضربات القلوب والنبض عند آلاف البحارة والعمال والجنود والمثقفين ، فيما يبدو كأنه الحبل السُّرِّى المتوتر الذى يشد الجميع .

(ى - ٤)

يوحد بين هذه الأشكال السابقة ويتخللها صوت الأنا الشعرية ، فى تحولاتها المختلفة ، لكن فى وحدتها العامة ، أيضًا . فهو صوت الراوى الذى يحكى ما فات من وقائع وتواريخ ، ويستعيد الذكريات والوجوه ، ويحيى الماضى المنطوى على الخبرة الإنسانية الجليلة . وهو لا يفعل ذلك مجانيًا ، لكن ليلتقط العبرة الخافية ، والدرس المنسى بين طيات الذاكرة . ولكنه لا يؤدى دور المؤرخ أو المفكر الرصين ، إنما يشوب ممارسته الكثير من النزق الطفولى والعبث الصبيانى ، وخراقة مهرجى السيرك والسائرين على الأسلاك المشدودة على الهاوية .

وهو صوت المشاهد الذى يصف ما يرى ، ويكشف ما يتخفى وراء أستار العادة أو التواطؤ أو اللامبالاة ، وما يتلبس مسوح الحقيقة من بهتان وفساد ، وما يتقنع بالرطانة الثورية المباحة من انتهازية وعفن . وهو - فى ذلك - ليس متفرجًا ، وإنما فَضَّاح أعظم ، يهوى إباحة الأسرار ، وانتهاك التواطؤات ، وكسر

أسوار الصمت الضمنية . إنه - بمعنى أدق - ليس مشاهداً وإنما شاهد . وهو شاهد متطفل ، لا ينتظر دعوةً لن تجيئ للنطق بشهادته ، وإنما يمنح نفسه حق إطلاقها ، أو الصراخ بها ، من تلقاء نفسه ، وقتما يريد ، وكيفما يريد . ولذلك ، فهو الشاهد الذي لا يرحب أحد بوجوده، ولا بشهادته. فهو ليس شاهد نفي، لكنه شاهد إثبات ، وربما كان شاهد الإثبات الوحيد . لكنه - رغم ذلك- غير قابل للتشكيك في شهادته . فلقد حقق صوته معمدانيته في الزنازين القيصرية الانفرادية منذ صباه المبكر ، ليستكملها على إيقاع تصفيق وتهاليل الآلاف من العمال الملطخين بشحم ودخان المصانع ، والجنود المنهكين من سنوات الحرب بلا طعام أو ذخيرة ، وعشرات المدن الصغيرة والقرى البعيدة في أقاصي روسيا التي عرفت صوته يجلجل في أنحائها ، فرددته طويلا .

فهو - بذلك - شاهد مرفوض ، لكنه غير قابل للتجاهل ، كما لا يمكن تجاهل الفضيحة الدامغة .

لكن الشاهد المرفوض لا يكتفي بشهادته ، بل يحولها إلى عريضة اتهام ، لا تعير التفاتاً للشكليات والرسميات ، وإنما تتوجه - مباشرةً - صوب الموضوع والجناة ، دون مقدمات . تنتفي - إذن - المسافة بين شاهد الإثبات الوحيد والمتهِم (بكسر الهاء) ، ليتوحدا في صوت واحد ، يصرخ في شوارع المدن الكبيرة والقرى النائية بالحقيقة المرة ، والفضيحة .

بل أحياناً ما يمنح هذا الصوت المزدوج نفسه الحق في إصدار الإدانة الواجبة . وهي إدانة يثق - مقدماً - في حيازتها على مصداقيتها العامة ، ورضاء الجميع ، سوى الجناة والمتواطئين والمستفيدين من الجريمة . فهو - هنا - يمثل الضمير الجمعي ، ولسانه الفصيح . وهو - أيضاً - الصوت المعبر عن الذات ، في معاناتها المشتركة مع الجميع .

لكن هذا الصوت المتحول لا يتخذ - دائماً - سمت الجدية الصارمة ، في شكلها الخارجي ، بل تتخفى هذه الجدية الدامية - حقاً - خلف أقنعة من الهجاء المرير ، والتهكم الكاريكاتوري المغالي ، واللعن والسباب الحاد ، في كثير من الأحيان . إنه الفعل اللفظي الأقصى ، البديل الممكن عن الفعل الجسدي غير الممكن في القصيدة . هو الحد الأقصى الذي تبيحه الكتابة من المواجهة والفضح والاشتباك .

وتبيح هذه الطاقة الروحية الهائلة - من نفاذ الحدس والإحساس والبصيرة ، والتوحد

بأدق خلجات الضمير الجمعى العام – تبيح لهذا الصوت أن ينطق بالعرافة والنبوة . فالخبرة العارمة بالتحولات الاجتماعية والسياسية ، وحركة جماهير الشارع ، والوعى بالقوانين العامة التى تحكم المسيرة التاريخية ، متجادلين مع طاقته الروحية العظيمة ، أتاحوا له القدرة على امتلاك طاقات الأنبياء ، بلا قداسة : **(أنَا ، مَن يُثيرُ قَهقَهة القَبيلَةِ المعَاصِرَة ، كَنُكتةٍ طَويَلةٍ وفَاحِشَة ، أرَى الآتِي عَبرَ جِبَالِ الزّمن / أرَى مَا مَا لَم يَرَه بَعدُ أحَد / وحَيثُ تَتَوقّف عيُونُ البَشرِ ، قَاصِرةً / عندَ رأسِ الحُشُودِ الجَائِعَة / فإنّني أرَى مِن بَعيد / عَام ١٩١٦ يَقتَرِبُ وَئِيداً / مُتَوّجًا بأكَالِيلِ الثّورَة)** .

لكن هذا الصوت المجلجل بالشهادة الدامغة – حينًا ، وحينًا – بالاتهام الفاضح ، وتارةً – بالإدانة واللعنة ، وفى كثير من الأحيان – بهم جميعًا فى نفس الوقت ؛ لكن هذا الصوت يروعه اكتشاف الحقيقة الأليمة : أن الأصوات المدوية – وحدها – لا تصلح من شأن العالم ، ولا تحيل القبح إلى جمال الحلم ، ولا تنزع العثرات من طريق المحبين . فينكشف هذا الصوت ، المجلجل بالسخط واللعنات التى تتساقط على الرؤوس ، عن صوت العاشق الأسيان ، وبوحه الشفيق ، وأناته وتوسلاته إلى حبيبته الحجرية .

وتنساب العذوبة مصطدمةً بصخور الألم والعذاب **(أخَافُ أن أنسَى اسمَك / كَمَا يَخَافُ الشّاعِر / أن يَنسَى كلمةً مَا / عَثَرَ علَيهَا تَواً ، لم يَلحَقهَا الجَفَافُ وَالابتِذَالُ بَعد / عَظمَتُهَا مُسَاوِيَةٌ لعَظَمَةِ الإله)** ، **(إنّنِي وقَلبِي لَم نَرَ أبداً بَهجَةَ مَايُو/ فَلَم يَكُن هُنَاكَ غَيرُ قَذَارَةِ أبرِيلَ الفَجّة .)** . ولا يبقى سوى البكاء الجارح **(دَعِينِي أبكِي ، مَرَارَةَ تَعَاسَتِي ، فِي زَفرَةٍ أخِيرَة)** ، والانكسار عند الرحيل **(آهٍ ، دَعِي بَقَايَا حُبّي تَحنُو عَلَى مَوطِيء أقدَامِك ، إذ تَرحَلِين !)** .

يتكشف هذا الصوت المجلجل الوحدة التى صنعها حصار من توجهت ضدهم شهادته المتطفلة ، واتهامه الدامى ، ولعناته وتهكماته المتساقطة ، دون جزافية . إنها الوحدة التى تجعل الصوت ينكسر على أسوارها الصلدة ، ليرتد إلى الداخل ، واهنًا ، مبعثراً جريحًا **(لا أنفَاسَ حَيّة تَدبُّ قُربِي .. فَتَحمّل وَحدَكَ الفَرحَ والألَم)** . إنه – وحده – الألم ، ألم الحصار ، وألم الحب المشروخ دون التئام . هى وحدة الألم ، أو ألم الوحدة **(هَا أنَا وَحِيد / كَعَينٍ وَحِيدَة / لِرَجُلٍ يَمضِي مُسرِعًا نَحوَ العَمَى)** .

(ك)

ولا تتخذ العلاقة بين هذه الأشكال والأساليب البنائية طابعًا واحداً ، أحاديًا ، استاتيكيًا . فهى لا تتتالى ، أو تتراتب ، وفق نسقية واحدة مكررة ، من قصيدة لأخرى ، وإنما تتخذ أكثر الأشكال مرونةً ، وعفويةً مدروسة ، وجدلية ، وخاصةً فى القصائد الطويلة ،نسبيا ، التى تتيح مساحتها مجالات أرحب من الحركة ، وطواعيةً أعلى للانتقالات والتحولات المتراوحة والمتبادلة من أسلوب بنائى لآخر ، لثالث . يتداخل « المونولوج الداخلى » مع المخاطبة الأحادية الصوت . يتداخل الرثاء الذاتى مع صب اللعنات على رأس العالم . وتتداخل الشهادة الدامغة مع التوسل إلى الحبيبة الحجرية الصماء . وتتداخل النبوءة بالثورة القادمة فى ١٩١٦ مع الخطابة المحرضة على التجار . وتتداخل كل الأساليب بعضها فى البعض الآخر ، دون حدود أو فواصل ، مكونةً وحدةً متشابكةً من العناصر والصور والأساليب ، عمادها صوت الأنا الشعرية ، التى تأخذ وجوهًا وتبدلات بتعدد وجوه وعمق تبدلات العالم الإنسانى .

(ل)

وتكتمل وحدة البناء فى قصيدة ماياكوفسكى . ويضىء كل بُعد الأبعاد الأخرى ، فيما يستضىء بها . فالأبعاد والمستويات المختلفة لبناء القصيدة تتخللها المفارقة بين جزئياتها ، والتحولات والانتقالات الدائبة من بعد لآخر ، ومن مستوى لآخر ، بما يصل إلى حد القانون الناظم لتحقيق القصيدة لوجودها الكلى .

تمتد العناصر الحية فى الشارع الموسكوفى - أوائل هذا القرن - من لغة فى أشكال استخدامها المختلفة ، إلى المشاهد الحياتية ، إلى مفردات وعناصر الحياة ، إلى المؤثرات الإيقاعية السمعية - لتصنع الأرضية التحتية للقصيدة ، وتحدد مسار البناء العام ، ليخضعَ - بدوره - لقانون وجودها الحى : الجدل ، فيحكم البناء الذى ينتظمه إيقاع حياة الشارع من تداخلات وتبدلات وتحولات بلا انقطاع .

وفيما لعبت هذه العناصر اليومية دوراً كبيراً فى تحديد ماهية الصورة الشعرية :

التجسيد ، فإن أساليب البناء قد استمدت وجودها الجوهرى من طبيعتها الحياتية اليومية ، لتنحرف – فى سياقها الجديد – عن ألفتها ورتابتها الاعتيادية ، مكتسبةً طابعها الشعرى القائم على الماهية التجسيدية .

يصبح – إذن – مبدأ **التعددية** ، فى العناصر والأساليب والأشكال والأبعاد ، مبدأ جوهرياً في تجربة مايا كوفسكى الشعرية . لكنها ليست تعددية التجاور السكونى الميت ، بل تعددية التناقضات والتداخلات والتحورات والتوافقات معًا ، وفى آن واحد . إنها – فى جوهرها العميق – تعددية أشكال الوجود الإنسانى .

(م)

وتتشابك رؤية ماياكوفسكى للعالم – فى تحققها الشعرى – مع كيفيات بناء العالم .

فالوحدة القائمة على التعدد والتحولات الدائبة تتجلى – واضحةً ومكتملة – فى قصائد ما قبل الثورة : وحدة العالم فى بشاعته وفجاجته ، وحصاره وإجهاضه للتحقق الإنسانى ، وفى رفضه والثورة القادمة ، ووحدة البناء القائمة على تعدد العناصر والأساليب والأشكال المتضافرة . تتجلى هذه الوحدة الأعلى – بين الرؤية والبناء – فى غالبية قصائد ما قبل الثورة ، على أساس من وحدة العالم ، المبنية على إهدار وسلب الفردى والجمعى ، الخاص والعام ، بما يفرض من شكل المواجهة / النفى : الشمولية والجمعية ، فى آن .

لكن قصائد ما بعد الثورة ينتابها شرخ خفى يصيب هذه الوحدة . فقد انقسم العالم إلى الخارجى العام ، والداخلى الخاص ، فيما كان الداخلى الخاص – قبلاً – مندرجا عضويًا فى الخارجى العام . فأحدهما – الخارجى العام – تحقيق ، فى وجهه الرئيسى ، للحلم بالثورة الاجتماعية السياسية ، فيما يمثل الآخر – الداخلى الخاص – استمراراً لإجهاض التحقق الفردى من خلال انكسار علاقات الحب .

تحقق هذا الشرخ – شعريًا – فى الاستقلال الغالب ما بين القصائد « السياسية » والقصائد « الذاتية » ، من ناحية ، وفى انفراد كل منهما – إلى حدود معينة – بأدوات وكيفيات بنائية خاصة ، دون الأخرى ، من ناحية ثانية .

لكن النظرة العامة للنتاج الشعرى لمايا كوفسكى - ككل - لتتكشف عنصراً « عامًّا » إضافيًّا يضئ هذا الشرخ البنائي : إنه الموقف من البيروقراطية ، وصمة العالم الجديد ، الذى حلم به مايا كوفسكى . فهى عنصر السلب « الخارجى » العام ، الذى يعمق السلب الداخلى الخاص . لكن هذا السلب لا يصل إلى حد سلب العالم برمته ، على نحو ما كان العالم فيما قبل الثورة . فالاختلاف بينهما كيفى ، انطلاقًا من طبيعتهما ومحيطهما المتغايرين المتناقضين . ومن ثم ، فطبيعة هجاء مايا كوفسكى الحاد للبيروقراطية تتناقض - جذريًا - مع طبيعة رفضه للعالم السابق على الثورة . فهو ينطلق من موقع الانتماء إلى التجربة الاشتراكية التى كانت تتحقق ، لا من موقع الرفض لها والثورة عليها . هذا التناقض فى الطبيعتين ، هو ما لا يجعل هجاءه للبيروقراطية امتداداً لرفضه للمجتمع السابق ، وإن كان يشير - فى نفس الوقت - إلى طبيعة علاقة مايا كوفسكى بالعالم : رفض كل أشكال الإفساد الإنسانى .

القاهرة

الجمعة ٧ ديسمبر ١٩٨٤

الجمعة ٢٢ يناير ١٩٩٣

مـايـاكـوفـسـكـي

أنـا نفـسـي

أنــا نفـسـى

•• الموضــوع :

أنا شاعر . مستمتع أنا بذلك . وعن ذلك أكتب . أما الباقى – فآه لو أعثر ، فحسب ، على الكلمات المناسبة .

•• ذاكــــرة :

يقـول « بيرلـيوك » : « لماياكـوفسـكى ذاكـرة تشـبـه طـريقًا فى « بولتافا » – كل شخص يترك خُفَّ المطر وراءه » . لكنى لا أتذكر الوجوه والتواريخ . أتذكر – فقط – أن ١١٠٠ ممن يدعون « الدوريين Dorians » قد هاجروا إلى مكان ما . لا أذكر التفاصيل ، ولكن لابد أنها كانت بالغة الطموح . فأن يتذكر المرء « كُتبت فى الثانى من مايو . بافلوفسك . النافورات » ، لمسألة تافهة تمامًا . ولهذا ، أبحر حُرًا إلى الأمام فى تأريخى الشخصى .

•• ماذا يهـم :

ولدت فى ٧ يوليـو ١٨٩٤ (أو ١٨٩٣ ، فرأى أمى وسجلات الخدمة الخاصة بأبى متعارضان) . على أية حال ، ليس قبل ذلك . مكان الميلاد قرية « بغدادى » ، كوتايسكايا جوبرنيا . جورجيا .

•• أعضاء الأسرة :

الأب : فلاديمير قونسطنطينوفيتش (مشرف غابات فى بغدادى) ، وتوفى عام ١٩٠٦ .

الأم : الكسندرا الكسييفنا .

الشقيقات :

أ : ليودا .

ب : أوليا .

ولا يوجد آخرون - فيما يبدو - من آل ماياكوفسكي .

•• الذكرى الأولى :

تصورات للرسم . مكان مجهول . شتاء . أبي يشترك في مجلة « رودينا » (الوطن) . لـ « رودينا » ملحق فكاهي . الرسوم المتحركة تتم مناقشتها وانتظارها . أبي يتمشى منشداً أنشودته الخالدة « **هيا يا أبناء الوطن** » . « رودينا » تصل . أفتحها ، وتنفجر - في الحال - الرسوم ضاحكة : « ياللعجب ! عمي وعمتي يقبلان بعضيهما ! » ؛ يضحكون . فيما بعد ، عندما وصل الملحق وجاء وقت الضحك الحقيقي ، بدا لي أنهم كانوا يضحكون مني ، فيما سبق . هكذا ، زاغت أفكارنا عن الرسم والفكاهة .

•• الذكرى الثانية :

تصورات شعرية . صيف . حشود من الناس تصل . « ب . جلوشكوفسكي » طالب أنيق ، طويل القامة . يرسم . كراسة مجلدة بالجلد . جريدة ملونة مصقولة . في الجريدة ، رجل طويل القامة بلا سروال (أو - ربما - يرتدى جوارب طويلة محبوكة) أمام مرآة . الرجل يدعى « يوجين أونيجين » . بوريس طويل ، والرجل - في الرسم - طويل . كل شئ واضح . لابد أن « بوريس » هو « يوجين أونيجين » . تستمر هذه الفكرة ثلاث سنوات .

•• الذكرى الثالثة :

تصورات عملية . مساء . همس بلا انتهاء لأبي وأمي وراء الجدار . بالقرب من البيانو . لا أستطيع النوم طول الليل . جُملة تُلح علىّ . في الصباح ، أندفع إليهم : « بابا ، ماذا يعني السداد بالتقسيط ؟ » . التوضيح يسعدني كثيرا .

•• عادات سيئة :

صيف . عدد مخيف من الضيوف . تتكدس أعياد القديسين . أبى يتفاخر بذاكرتى . لقد خُلقت لأحفظ القصائد عن ظهر قلب لكل أعياد القديسين | أتذكر ، فيما يخص عيد قديس أبى :

ذَات مَرَّة

أمَام حَشدِ الجِبَال المُتشَاكِلَة ...

أغاظتنى « المتشاكلة » . لم أعرف ماذا تعنى ، ولم تشأ أن تصادفنى فى الحياة الحقيقية . وعلى ذلك ، فقد تعلمت أن كل ذلك شعر ، وبدأت - فى صمت - أمقته .

•• جذور الرومانسية :

أذكر البيت الأول ، فى وضوح . طابقان . الأعلى لنا . السفلى لتاجر خمور . عربات كارو تجئ مكدسةً بالعنب ، مرةً فى العام . يُعصر . آكل . يشربون . كل ذلك كان يجرى فى أرضية قلعة جورجية عتيقة قرب « بغدادى » . كانت القلعة محصنةً بالمتاريس . ثمة فتحات للبنادق فى الأركان . وللمتاريس - نفسها - منافذ للهروب . خارج المتاريس ، كان ثمة خنادق . بعد الخنادق ، الغابات وأبناء آوى . وفيما وراء الغابات ، الجبال. كنت أكبر . أصعد القمة . تنداح الجبال إلى الشمال . فى الشمال ، كان ثمة فجوة . حلُمت أنها روسيا . أحسست أننى مشدود - على نحو خارق - للذهاب إلى هناك .

•• غير العادى :

حوالى سبع سنوات من العمر . أبى بدأ يأخذنى معه على ظهر الحصان إلى جولات فى عالم الغابات . جبل يمر . الليل . الضباب يحيط بنا . لا أستطيع حتى رؤية أبى . مر ضيق تمامًا . لابد أن أبى قد أمسك بوردة برية شوكية بقفازه . اتر الغصن ، وغرس أشواكه فى خدى . انتزعت الأشواك ، وأنا أعوى من الألم . انقشع الضباب والألم فى الحال . كانت أكثر إشراقًا من السماء التى يتكسر ضبابها تحت أقدامنا . لقد كانت الكهرباء مصنع الأمير « ناكاشيدزى » . بعد الكهرباء ، فقدت - بشكل كامل - الاستمتاع بالطبيعة . بالنسبة لى ، أصبحت شيئًا ناقصا .

●● دراسـات :

تعلمت على يد « ماما » وبنات الأقارب . الحساب بدا لى غير حقيقى . كان علىَّ أن أحصى التفاح والكمثرى التى يتم توزيعها على الصغار . كانوا دائمًا ما يعطونها لى ، وكنت دائمًا ما أتخلص منها بلا إحصاء . كل الفواكه التى يمكن أن تتمناها موجودة فى القوقاز . لكنى استمتعت بتعلم القراءة .

●● الكتاب الأول :

« أجافيا فتاة الدواجن » ، أو ما شابه . ولو أن بضعة كتب من هذا القبيل قد صادفتنى فى ذلك الوقت ، لكنت قد هجرت القراءة كلها . لحسن الحظ ، فالكتاب الثانى كان **« دون كيشوت »** . هذه المرة ، كان كتابًا حقيقيًّا ! صنعت سيفًا ودرعًا من خشب ، وهجمت على المناطق المجاورة .

●● الامتحـان :

رحلنا . من « بغدادى » إلى « كوتايسى » . امتحان القبول بمدرسة النحو . اجتزته . أحد الأسئلة كان عن الهلب (المرسوم على كُمِّى) . كنت أعرفه جيداً . لكن أحد الكهنة سألنى عن معنى كلمة « أوكو oko » ، أجبت « ثلاثة جنيهات » (معناها فى الجورجية) . لكن الممتحن الطيب شرح لى أنها تعنى « العين » فى اللغة الكنسية السلافية القديمة . كنت على وشك الرسوب بسبب ذلك . وهكذا ، أضمرت الكراهية لكل ما هو قديم ، لكل ما هو كهنوتى ، وكل سلافى . ولربما جاءت « مستقبليتى » من ذلك ، والحادى وأمميتى .

●● مدرسة النحو :

الابتدائية ، الأولى والثانية . كنت أفضل التلاميذ . الدرجات النهائية فى كل شىء .

قرأت « جول فيرن » . الخيالى بشكل عام . رجل له لحية يكتشف أننى أمتلك موهبة فنية . أدرس مجانًا .

•• الحرب اليابانية :

عدد الصحف والمجلات فى البيت يتزايد . روسكى فيدوموستى ، روسكوى سلوفو ، روسكوى بوجاتستفو ، وغيرها . أقرأها كلها . كانت عصبيةً بلا تفسير . أنتشى بصور الطرادات الحربية فى كروت المناسبات . أكَبِّرها وأطبعها . كلمة « بيان » تظهر . البيانات يصدرها الجورجيون . الجورجيون يشنقون على يد القوزاق . أصدقائى جورجيون . أبدأ فى كراهية القوزاق .

•• أنشطة ممنوعة :

وصلت شقيقتى من موسكو . فى حالة غبطة ـ تعطينى سراً صفحات ورق طويلة . أحببت ذلك : بالغة الخطورة . أتذكرها حتى الآن . كانت الأولى تقول :

هَيَّا ، أيُّهَا الرِّفَاق ، استَيقظُوا ،
هَيَّا ، يَا إِخوَتِى ، استَيقِظُوا .
أسرِعُوا الآن وهَاتُوا بنَادِقَكُم .

وشىء ما آخر ، يقول فى نهايته :

. . . وإلاَّ –

فَإِلَى الألمان مَعَ الابنِ ، والزَّوجَةِ ، وَالمَامَا ...

(والخطاب إلى القيصر) .

كانت الثورة . كان الشعر . الشعر والثورة جاءا معًا إلى عقلى .

●● ١٩٠٥ :

لا اكتراث بمذاكرتى . بدأت فى الحصول على درجات منخفضة . انتقلت إلى الصف الرابع ، فقط لإصابة رأسى بحجر (فى مشاجرة بجوار نهر « ريون ») ، وقد أحسوا بالأسى علىَّ عند إعادة الامتحان . بالنسبة لى ، بدأت الثورة على مثل هذا النحو : قفز زميلى إيزيدور طاهى القس ، إلى الموقد ، حافيًا ، وهو يلهو - وقد تم اغتيال الجنرال اليخانوف . فى جورجيا . الاجتماعات والمظاهرات ابتدأت . ذهبت أنا أيضًا . كانت جيدة . شهدتها بمصطلحات الرسم : الفوضويون يرتدون الأسود . الاشتراكيون الثوريون يرتدون الأحمر ، الاشتراكيون الديموقراطيون يرتدون الأزرق الكابى ، والفيدراليون بألوان أخرى .

●● الاشتراكية :

خطب ، وجرائد . خارج كل ذلك ، أفكار وكلمات غريبة . كتيبات بيضاء فى النوافذ . بيريفيستنيك . نفس الشئ تقريبًا . اشتريتهم كلهم . استيقظت فى السادسة صباحًا . أقرأ بشراهة . أولاً « فليسقط الاشتراكيون الديموقراطيون » ، ثم « دردشات حول الاقتصاد » . لقد انبهرت طيلة حياتى بمقدرة الاشتراكيين على كشف غموض الحقائق وتأطير العالم . « ما الذى ينبغى أن نقرأه ؟ » - لروباكين ، على ما أذكر . أقرأ ما يُشَارُ به علىّ . لم أفهم غالبيته . أسئلة مطروحة . يتم تقديمى إلى حلقة ماركسية . أنتهى إلى « برنامج إرفورت » . المنتصف . إلى جوار « البروليتاريا الرثة » . بدأت فى اعتبار نفسى اشتراكيًا ديموقراطيًا : أخذت بنادق أبى إلى لجنة الاشتراكيين الديموقراطيين .

أحببت « لاسال » كشخص . كان لابد أن يحدث ذلك لأنه كان بلا لحية . شخص أصغر . تشوش « لاسال » فى ذهنى بـ « ديموستينيس » . فلأذهب إلى « ريون » وأتحادث مع الحصى الموجود فى فمى .

●● رد الفعل :

فى رأيى ، بدأ الأمر كما يلى : فى الرعب (ربما المُشتت) خلال مظاهرة فى ذكرى «باومان» ، ضُربت (بعد السقوط) باسطوانة على رأسى . ارتعبت . اعتقدت أننى أنا نفسى قد انشرخت .

●● ١٩٠٦

توفى أبى . وخز إصبعه عندما كان يخيط بعض الأوراق . تسمم فى الدم . لم يعد قادراً على احتمال الإبر منذ ذلك الحين . رخاؤنا انتهى . بعد جنازة أبى ، لم يكن لدينا غير ثلاثة روبلات . بصورة غريزية محمومة ، بعنا المناضد والكراسى . انتقلنا إلى موسكو . لماذا ؟ لم يكن لدينا - حتى - أى معارف هناك .

●● الطـــريق :

باكو أفضل الجميع . أبراج ، صهاريج ، أفضل رائحة - البترول ، ومن بعد - السهوب . الصحراء ملساء .

●● موسكو :

أقمنا فى « رازوموفسكوى » . شقيقات بلوتنيكوف ، اللاتى نعرفهن . وصلنا إلى موسكو بمركب بخارى فى الصباح . استأجرنا شقة صغيرة فى شارع « برونايا » .

●● حياة موسكو :

صعوبات فى الغذاء . الإيجار عشرة روبلات فى الشهر . شقيقتاى وأنا ندرس . كان على أمى أن تستأجر الغرف بالغداء . غرف قذرة . طلبة يعيشون فى بؤس . اشتراكيون . أتذكر أول بلشفى قابلته ، بشخصه ، فاسيا كانديلاكى .

●● مبهـــج :

أرسلونى لشراء كيروسين . خمسة روبلات . فى الدكان ، أعطونى الباقى أربعة عشر

روبلا وخمسين كوبيكا : عشرة روبلات ربع صاف . أحسست بالعار . طفت بالدكان مرتين (و « برنامج إرفورت » تحت ثيابى) . بهدوء ، سألت الكاتب عمن ارتكب الخطأ ، البائع أم المدير . المدير ! . اشتريت أربع كعكات سكر وأكلتها . قمت برحلة فى قارب بالباقى . لم أعد قادراً على مقاومة رؤية كعك السكر منذ ذلك الحين .

•• العمـــل :

لا نقود فى الأسرة . أقوم بأشغال حفر ورسم على الخشب . أتذكر - بصورة خاصة - بيض عيد الفصح . مستدير ، ينعطف ويصدر صريراً كالأبواب . بعت البيض إلى محل المشغولات اليدوية فى شارع نيجلينايا . من ١٠ إلى ١٥ كوبيكا للواحدة . منذ ذلك الحين ، نَمت لدىَّ كراهية أوانى « بيم » الزجاجية ، ورسوم تقليد الأسلوب الفولكلورى ، والأشغال المعدنية .

•• مدرسة النحو :

انتقلت إلى الفصل الرابع من المدرسة العليا رقم ٥ . درجات القاع ، موشاة بقليل من درجات ما فوق القاع . « أنتى دوهرنج » تحت المنضدة .

•• القـــراءة :

رفضت الكتابات الأدبية كلها . الفلسفة ، هيجل ، العلم الطبيعى . لكن - أساساً - الماركسية . لم يشدنى عمل فنى أكثر من « **مقدمة** » ماركس . الكتابات الممنوعة كانت تأتى من غرف الطلبة . « تكتيكات قتال الشوارع » ، إلخ . أتذكر بوضوح « تكتيكان » الأزرق الكابى للينين . أحببت الطريقة التى فُصلت بها الهوامش لأغراض التهريب . جماليات الاقتصاد الأقصى .

•• شبه القصيدة الأولى :

المدرسة الثانوية رقم ٣ كانت توزع المجلة السرية « بوريف » (الحافز) . استأت . الآخرون يكتبون ، فلماذا لا أفعل ؟ بدأت فى الإبداع . كانت النتيجة ثوريةً ، بصورة مدهشة ،

وقبيحة بنفس المستوى . لا أستطيع تذكر سطر واحد . كتبت قصيدةً ثانية . كانت النتيجة غنائية ، بالغة العذوبة . عندما اعتبرت مثل هذه الحالة العاطفية متناقضة مع « الكرامة الاشتراكية » ، ألغيت الأمر كله .

●● الحزب :

١٩٠٨ . انضممت إلى حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي (البلاشفة) . مررت باختبار في الحي التجاري والصناعي . نجحت . محرض . ذهبت إلى الخبازين ، ثم الاسكافيين ؛ وفي النهاية إلى عمال طباعة الصحف . انتخبت في لجنة موسكو في مؤتمر عموم المدينة . أطلق عليَّ اسم الرفيق « قونسطنطين » . لم يكن عليَّ أن أعمل لكسبهم ؛ على أية حال - اعتقلت .

●● الاعتقال :

في ٢٩ مارس ١٩٠٨ ، سقطت في كمين في « جروزني » . مطبعتنا السرية . أكلت كراسة . مع العناوين والغلاف . مركز بوليس « بريسنيا » . الأمن . مركز بوليس « سوشكوفسكايا » . المحقق « فولتا نوفسكي » (تخيل نفسه شخصًا ماهراً ، فيما يبدو) طلب مني أن أكتب إملاء : كنت مشحونًا بكتابة التصريحات . في طيش وتهور شوشت الإملاء . كتبت «الديموقراطي الاشتراكي » . لعلي أفلت من العقوبة . تقرر الإفراج عني تحت المراقبة . حينما كنت في المركز ، قرأت « سانين » بشراهة . كان الكتاب متاحًا في كل مراكز البوليس لسبب ما . لإنقاذ الروح ، كما هو واضح .

أطلق سراحي . حوالي عام من العمل الحزبي . ومدة قصيرة في الداخل من جديد . أخذوا مسدسي . مخمد بيكوف ، الذي كان صديق أبي ، كان آنئذ مساعداً لرئيس السجن ، وألقى القبض عليه مصادفة في كمين عندي ، شهد أن المسدس له ، وأطلق سراحي .

●● الاعتقال الثالث :

بعض من يعيشون في نفس المكان معنا كانوا يحفرون نفقًا تحت « تاجانكا » . لإطلاق سراح السجينات . نجحن في الهرب من سجن « نوفنسكايا » . ألقى القبض عليّ . لم أرغب في الذهاب إلى السجن . افتعلت تمثيلية . تم ترحيلي من مركز شرطة لآخر - وأخيراً إلى «بوتيركي » زنزانة انفرادية رقم ١٠٣

●● ١١ شهراً فى بوتيرسكى :

فترة بالغة الأهمية ، بالنسبة لى . بعد ثلاث سنوات من النظرية والممارسة ، غرقت فى الكتابات الأدبية .

قرأت كل الإنتاج الأخير . الرمزيون ، بيلى وبالمونت . الجدَّة الشكلية فتنتنى . لكنها كانت غريبةً عنى . الأفكار والصور ليست من حياتى . حاولت الكتابة مثلهم ، لكن عن شئ آخر . التوصل إلى أنه من المستحيل الكتابة « عن شئ آخر أيضًا » . جاءت مفتعلة . شئ من هذا القبيل :

بالأرجوان والذهب تكتسى الغابات

قباب الكنيسة مشرقة فى أشعة الشمس المتراقصة .

انتظرت : فى الشهور كانت الأيام تضيع

مئات من الأيام المملّة .

ملأت الكراسة كلها بهذا النوع من الهراء . عرفانى للمراقبين - أخذوها منى عندما خرجت . وكان لى أن أفكر فى نشرها !

بعد قراءة المعاصرين لى ، انقضضت على الكلاسيكيين . بايرون ، شيكسبير ، تولستوى . « أنا كارينينا » كان الكتاب الأخير . لم أكمله . طُلب منى فى الليل أن أمضى بأشيائى عبر المدينة . مازلت لا أعرف كيف انتهى الأمر بآل كارينين .

أطلقوا سراحى . كان علىّ أن أذهب (حسب قرارات الأمن) إلى « توروخانسك » لثلاث سنوات . مخمد بيكوف توسط لى لدى كورلوف .

خلال فترة اعتقالى ، قضوا بأننى مذنب فى التهمة الأولى ، لكنى صغير السن . وكان لزامًا أن يتم تسليمى تحت إشراف الشرطة ، وعلى مسئولية الوالدين .

●● ما يسمى متاهة :

خرجت فى حالة من الاستثارة : هؤلاء الذين قرأت لهم كانوا ممن يسمون بالعظماء .

لكن لابد أن الكتابة أفضل منهم ليست صعبة . حتى الآن ، كنت أمتلك التوجه الصحيح نحو العالم . كل ما كنت أحتاجه هو الخبرة فى الفن . فمن أين أحصل عليها ؟ كنت غير مدرب . لابد لى من التدريب الصحيح . ولكننى طُردت - حتى - من مدرسة النحو ومن «ستروجانوفسكى» . لو أننى ظللت بالحزب ، لكان علىّ أن أمضى إلى العمل السرى . السرية ، فيما يبدو لى ، لم أكن لأتعلم خلالها أى شئ . لكان علىّ مواجهة احتمال أن أقضى طول عمرى فى كتابة المنشورات ، فى نشر الأفكار المنقولة من الكتب الصائبة ، دون أن تكون أفكارى . فلم أنهم أفرغونى من قراءاتى ، فما الذى يتبقى ؟ المنهج الماركسى . لكن ، ماذا لو أن هذا السلاح لم يصل إلى يد الصبى ؟ فمن اليسير استخدامه لو أن لديك ما تفعله بأفكار شعبك . ولكن ماذا عن الاشتباكات مع العدو ؟ إننى - مع كل ذلك - لا أستطيع الكتابة بأفضل من «بيلى» . كان مبتهجًا بما حدث له - «طرحت بفطيرة التفاح إلى السماء» - وكنت أتباكى على ما حدث لى - « مئات من الأيام المملة » . كان كل شئ على ما يرام بالنسبة للآخرين من أعضاء الحزب . كانوا يمضون نحو الجامعة ، أيضًا . (أما المدارس العليا ، فلم أعرف - حتى - ما الذى تعنيه - وكنت أبجلها من ذلك الحين !) .

ماذا يمكننى أن أفعل فى مواجهة جماليات الكلمة القديمة التى تساقطت فوقى ؟ ألا تتطلب الثورة تعليمًا جادا ؟ تطلعت إلى ميدفيديف ،كان مايزال رفيقى فى الحزب حتى ذلك الحين ، وقلت إننى أريد إنتاج فن اشتراكى . ضحك « سيريوزا » طويلا .

برغم ذلك ، فلا أظن أنه أساء تقدير جسارتى .

تخليت عنالعمل الحزبى ، وجلست إلى دروسى .

●● بدايات الإجادة :

كنت أظن أننى غير قادر على كتابة الشعر . محاولات يائسة . توجه نحو الرسم . درست تحت رعاية «جوكوفسكى». رسمت أدوات الشاى الفضية الأنيقة مع سيدات شابات . بعد عام ، أدركت أننى أسلك الطريق الخاطئ . ذهبت إلى « كيلين » . فنان واقعى . رسام هندسى جيد . أفضل مدرس . حاد . متقلب .

مهارة - ناقصة . لا أستطيع احتمال أى شئ ذى جاذبية سطحية .

« ساشاشيورنى » شاعر أقدره . كنت سعيداً بنزعته المضادة للجمالية .

●● المدرسة الأخيرة :

جلست على « رأسي » لمدة عام . التحقت بمدرسة الرسم والنحت والعمارة . المكان الوحيد الذي يقبلك بدون شهادة حسن سير وسلوك . عملت جيداً .

كنت مدهوشًا : المقلدون يتم تشجيعهم . والمستقلون يتم التضييق عليهم . بالغريزة الثورية ، أساند من يتم التضييق عليهم .

●● ديفيد بيرليوك :

ظهر بيرليوك في المدرسة . سحنة وقحة . ردنجوت . يغني وهو يتمشى . بدأت في إغاظته . أوشكنا على التشابك .

●● في غرفة التدخين :

تجمع رفيع . حفل موسيقى . رحمانينوف . جزيرة الموتى . هربت من الملل النغمي غير المحتمل . فعل بيرليوك ذلك بعد دقيقة . انفجرنا بالضحك معًا . خرجنا للتمشية معًا .

●● أمسية مشهودة :

محادثة . ذهبنا من ملل رحمانينوف إلى ملل المدرسة ، ومن ملل المدرسة إلى الملل الشامل للكلاسيكية . لدى ديفيد حنق الأستاذ الذي تخطى معاصريه . ولديَّ رسالة الاشتراكي الذي يعرف أن انهيار العالم القديم حتمي . ولدت المستقبلية الروسية .

●● الأمسية التالية :

كتبت قصيدةً فيما بعد الظهيرة . شذرات من قصيدة ، أكثر إحكامًا . قصائد رديئة . لم تنشر في أي مكان . المساء . شارع سريتنسكي . قرأت السطور الأخيرة إلى بيرليوك . أضفت أنها لأحد الأصدقاء . توقف ديفيد . تطلع إليَّ من فوق لتحت . زعق . « ولكنه أنت

الذى كتبت ذلك بنفسك ! لماذا ، أنت عبقرية شعرية ! » . انتشيت من استخدام مثل هذه الصفة الضخمة ، غير المستحقة . غرقت بكلّى فى الشعر . هذا المساء ، وبصورة غير متوقعة تمامًا ، أصبحت شاعرا .

●● وهكذا كل يوم :

لابد أن أكتب . كتبت أولى مقطوعاتى الاحترافية المنشورة : « **الأبيض والقرمزى** » ، ومقطوعات أخرى .

●● بيرليوك المدهش :

أفكر فى « ديفيد » بحب أبدى . صديق مدهش . معلمى الحقيقى . لقد صنع منى بيرليوك شاعراً . كان يقرأ الفرنسية والألمانية لى . يمدنى بالكتب . يتمشى ويتكلم بلا انتهاء . لايدعنى أغيب عن ناظريه . يمنحنى ٥٠ كوبيكا فى اليوم . لهذا ، كان يمكننى أن أكتب دون أن أتضور جوعًا .

فى عيد الميلاد ، اصطحبنى إلى مسكنه فى «نوفايا ماياشكا» . أحضر لى « ميناء » وأشياء أخرى .

●● صفعة على الوجه :

عدنا من « ماياشكا » . إذا ما كنا بآراء غير محددة ، فعلى الأقل بمزاجين مشذبين . خليبنيكوف كان فى موسكو . بالنسبة لى ، كانت عبقريته الهادئة فى خسوف تام ، فى ذلك الحين ، بفعل بيرليوك الفائر . هنا ، أيضًا ، كان كروشنيك المستقبلى اليسوعى .

بعد عدة ليال ، تمخض الشعراء الغنائيون عن بيان مشترك . شارك فيه ديفيد معنا ، وطبعه ؛ أعطيناه عنواناً ، وظهر - بذلك - « **صفعة فى وجه الذوق العام** » .

●● الأشياء تبدأ فى الحركة :

معارض « الولد الديناري » . مشاجرات . الأحاديث المشبوبة بينى وبين بيرليوك .

الصحف تبدأ فى الانشغال بالمستقبلية . اللهجة ليست مهذبة . على سبيل المثال ، أطلق علىَّ « ابن عاهرة » ، لا أكثر ، ولا أقل .

●● القميص الأصفر :

لم يكن لدىَّ بذلة أبداً . قميصان شاحبان كالموتى . الأدوات المحسوبة والمجرَّبة كانت تقتضى إضافة ربطة عنق من أجل التأثير . لا نقود . أخذت شريطًا من وشاح أختى . ربطته حول رقبتى . إثارة . كان ذلك يعنى أن أجمل الأشياء وأكثرها لفتًا للانتباه فى الرجل هى ربطة عنقه . بوضوح ، كلما زدت من حجم ربطة العنق ، كلما زدت من الإثارة . وطالما أن أبعاد ربطة العنق محددة ، فقد لجأت إلى الإبداع : صنعت قميصًا كربطة عنق ، وربطة عنق كقميص .

انطباع لا يقاوم .

●● لا حاجة إلى القول :

انتفضت هيئة الأركان العامة للفن . الأمير لفوف . مدير الكلية . طالب بأن نكف عن النقد والتحريض . رفضنا .

قام مجلس « الفنانين » بطردنا من الكلية .

●● السنة البهيجة :

قمنا بجولة فى روسيا . قراءات شعرية . محاضرات . حكام الأقاليم يحاذرون من الخطر . فى « نيكولاييف » ، اقترحوا ألا نأتى على ذكر القمم أو بوشكين . كثيراً ما كان رجال البوليس يندفعون فجأة علينا فى منتصف الندوة . « فاسيا كامنسكى » انضم إلى الحلقة . المستقبلى العجوز .

بالنسبة لى ، كانت أعواماً من العمل الحرفى ، وسيطرة تدريجية على الكلمة .

رفضنا الناشرون . الأنف الرأسمالية اشتمت - من بيننا - مفجرى الديناميت . لن يشتروا منى سطراً واحدا .

عند العودة إلى موسكو ، عشت - بصورة رئيسية - فى الشوارع ذات الأشجار .

توجت تلك الفترة بالعمل التراجيدى « فلاديمير ماياكوفسكى » . تم تقديمه فى بطرسبورج . لونابارك . وجهوا له نقداً حادا .

●● بداية ١٩١٤ :

أحس بمهارتى الخاصة . يمكننى السيطرة على الفكرة بصورة شاملة . حددت بنفسى مشكلة الفكرة . فكرة ثورية . أعكف على « **غيمة فى بنطلون** » .

●● الحرب :

كانت مثيرةً للغاية . نظرت إليها - فى البداية - من الزاوية الزخرفية ، العنصرية . ملصقات تحت الطلب و - بالطبع - عن الحرب . بعد ذلك ، قصيدة « **الحرب أعلنت** » .

●● أغسطس :

المعركة الأولى . الرعب من الحرب بكل قامته . حرب تثير الغثيان . المؤخرة أكثر إثارة للغثيان . على المرء أن يشهد الحرب ، قبل أن يتحدث عنها . ذهبت للتطوع . رفضونى . لا مصداقية .

والكولونيل موديل لديه فكرة جيدة .

●● الشتاء :

اشمئزاز وكراهية للحرب . « **آه ، أغمضوا ، أغمضوا عيون الصحف** » ، وقصائد أخرى .

الاستمتاع بالفن ضاع كله .

●● مايو :

كسبت ٦٥ روبيلا . سافرت إلى فنلندا . كوكالا .

●● كوكالا :

نظام الأصدقاء السبعة (المناوبة بين المحاصيل) ، حددت سبعةً من معارفي من أجل الغداء . في الأحد ، آكل « جوكوفسكي » ، والاثنين « يفرينوف » ، إلخ . الخميس ، كان الأسوأ - أكلت أعشاب « ريبين » . بالنسبة لشاعر مستقبلي طوله سبعة أقدام ، لم يكن في ذلك ما يضحك .

قضيت الليلة أتمشى وحدى على الشاطىء . أكتب « غيمة ... » .

الوعى بالثورة المقتربة أصبح أقوى .

ذهبت إلى موستومياكي . جوركى . قرأت له جزءاً من غيمة .... بللت دموع جوركى - المتأثر بعمق - صدريتى كلها . كنت فخوراً . واتتنى - فى الحال - فكرة أن جوركى يبكى على صدرية كل شاعر .

احتفظت بالصدرية كتذكار ، لا أكثر . ربما أتركها لشخص ما من أجل أحد المتاحف الإقليمية .

●● ساتيريكون الجديدة :

ذهبت الـ ٦٥ روبيلا ببساطة وبلا ألم . بدأت كتابة « فى مناقشة ما الذى سنأكله » لـ « ساتيريكون الجديدة » .

●● استدعاء :

استدعونى . لا أريد الذهاب إلى الجبهة .

زعمت أننى رسام . فى الليل ، أتعلم جر العربات تحت إشراف أحد المهندسين . والحال مع الطباعة أسوأ . الجنود ممنوعون من النشر . بريك وحده مبتهج . يشترى كل قصائدى مقابل ٥٠ كوبيكًا للسطر الواحد . يطبع « النادى العظمى » و « غيمة .. » . انتشرت الغيمة كالريش . مزقها الرقيب . ست صفحات من السطور المنقطة .

منذ ذلك الحين ، كراهية للسطور المنقطة ، والفواصل أيضا .

•• الجندية :

فترة كالحة . أرسم (بتلفيق على نحو ما) بورتريهات للضباط . « **الحرب والسلام** » تدور في رأسي ، و « **إنسان** » في قلبي .

•• ١٩١٦ :

اكتملت « **الحرب والسلام** » . بعد ذلك بقليل « **إنسان** » . نشرت مقطوعات في «ليتوبيس» (تأريخ) . بصفاقة ، لم أعد أذهب إلى الثكنات .

•• ٢٦ فبراير ١٩١٧ :

ذهبت مع السيارات إلى « الدوما » . انسللت إلى مكتب « رودزيانكو » . تمعنت في « ميليوكوف » . لم يقل شيئًا . لكن - لسبب ما - بدا لي أنه يعاني من الفواق عندما يتكلم . أصابني السأم معهم ، بعد ساعة . إلى الخارج . تحملت مسئولية مدرسة السيارات لعدة أيام . إنها دورة جوشكوف . الضباط القدامى يتمشون حول « الدوما » بالطريقة القديمة . من الواضح لديَّ أن الاشتراكيين قادمون - حتمًا - بعد ذلك . البلاشفة . خلال الأيام الأولى من الثورة ، أكتب « **الثورة** » (تأريخ شاعر) . ألقى المحاضرات - « بلاشفة الفن » .

•• أغسطس :

روسيا تخلع عن نفسها « الكيرينسكية » تدريجيًا . فقدوا الاحترام . أترك « نوفايا جيزن » . أعكف على « **هزلية الأسرار** » .

•• أكتوبر :

أن أقبل أو لا أقبل ؟ لا وجود لمثل هذا السؤال عندي (أو عند المستقبليين الآخرين في موسكو) . ثورتي . ذهبت إلى معهد « سمولني » . اشتغلت . كل شئ صادفني . يبد وأن في عقد الاجتماعات .

●● ينـــاير :

ذهبت إلى موسكو . ألقيت الخطب. فى المساء، بـ «مقهى الشعراء» فى ناستاسنبسكى . الجدة الثورية للمقاهى الشعرية .

أكـتب سيناريوهات أفـلام . ألعب أدواراً فـيـهـا . أعـد ملصـقـات للسـينمـا . يونيـو . بطرسبورج ، من جديد .

●● ١٩١٨ :

الـ RSFSR لا وقت لديها للفن . لكن وقتى - بالضبط - لذلك . قـمت بزيارة مفاجئة لـ « برليتكولت » .

لماذا لم ألتحق بالحزب ؟ كان الشيـوعيـون يعملون فـى الجبهة . فى الفن والتعليم ، هم توفيقيون ، فى الوقت الراهن . عليهم أن يرسلوا بى إلى استراخان لصيد السمك .

●● ٢٥ أكتــوبر ١٩١٨ :

أنهيت « **الهزلية** » . قرأتها . أحاديث كثيرة . أخرجها ميـيرهولد مع مـالفيتش . كانوا يجأرون بصورة مفزعـة . خاصـة الانتليـجينسيـا الشـيـوعيـة . اندرييـفا فـعل كل شىء ممكن للتدخل . عرضوها ثلاث مرات ، ثم مزقوها شذرات . وبدأ « آل ماكبث » .

●● ١٩١٩ :

قـمت بجولة فى المصـانع مع الـهزليـة وأعمـال أخرى لى ولـلرفـاق . اسـتـقـبـال حمـاسـى . إنهم يؤسسون « كومفوت » ، ونصدر « اسكوستفو كوميونيتى » ، الأكاديميات تتصدع .

فى الربيع ، أسافر إلى موسكو .

رأسى مفعمة بـ « ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ » . بدأت العمل التحريضى فى « روستا ROSTA » .

•• ١٩٢٠ :

أنهيت « ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ » . أنشرها مُجهلَة المؤلف . أردت لكل واحد أن يكون قادراً على استكمالها وتنقيحها . ما من أحد فعل ذلك . لكنهم جميعًا عرفوا اسمى . لا يهم . إزاء ذلك ، أنشرها باسمي .

أيام وليال فى روستا . أكتب وأرسم . أنجزت ما يقارب ثلاثة آلاف ملصق وحوالى ستة آلاف تعليق .

•• ١٩٢١ :

أشق طريقى خلال الشريط الشيوعى ، وحالات الكراهية ، والروتين المكتبى ، والصفقات ، وأصدر طبعةً ثانية من **الهزلية** . يتم عرضها فى مسرح RSFSR رقم ١ من إخراج مييرهولد مع الفنانين لافينسكى وكراكوفسكى وكيسيليوف ، وفى السيرك بألمانيا للمؤتمر الثالث للكومنترن . يتم عرضها من إخراج جرانوفسكى مع التمان ورافدل . حوالى مائة عرض .

بدأت الكتابة فى « ازفستيا » .

•• ١٩٢٢ :

أدير دار نشر رابطة المستقبليين فى موسكو ، أحشد المستقبليين وأشكل جماعة . آسييف وتريتياكوف ورفاق الجيش الآخرون وصلوا من الشرق الأقصى . بدأت كتابة « **الأممية الخاصة** » التىّ عكفت عليها لما يزيد عن عامين . يوتوبيا . عرض للفن فى ٥٠٠ سنة .

●● ١٩٢٣ :

ندير « ليف LEF » ، « ليف » تحقق فكرة اجتماعية كبرى بكل أدوات المستقبلية . هذا التحديد لا يستنفد - بالطبع - المشكلة ؛ إننى ألفت انتباه هؤلاء المهتمين إلى أعدادنا . ملتحمون معًا - بريك وآسييف وكوشنر وأرفاتوف وتريتياكوف ورودشينكو ولافنسكى .

كتبت «**شئ ما**» بدوافع شخصية عن الحياة بشكل عام . أعكف على إحدى القصائد ، « **لينين** » . أحد الشعارات ، وأحد المكاسب الكبرى من « ليف » هو البنائية ، أى إسقاط النزعة الجمالية عن الفنون الإنتاجية . التطبيق الشعرى : الـ « أجيتكا AGITKA » والأجيتكا الإدارية أو الإعلان . برغم صيحات الاستهجان ، فإننى أعتبر « **لا مكان إلا فى موسلبروم** » شعراً من أرقى المستويات .

●● ١٩٢٤ :

« **نصب تذكارى لعمال كيرسك** » . محاضرات كثيرة للغاية على طول الاتحاد السوفيتى حول « ليف » ، « قصيدة « **يوبيل** » إلى بوشكين . وشعر من هذا النوع - سلسلة . سَفَر : تيفليس ، بالتا - سيفاستوبول . « **تامارا والشيطان** » ، إلخ . أنهيت قصيدة « **لينين** » . قرأتها فى تجمعات عمالية عديدة . كنت خائفاً للغاية من هذه القصيدة ، من زاوية أنه من السهل الهبوط بها إلى مستوى حكاية سياسية بسيطة . أبهجنى رد فعل المتلقين من الطبقة العاملة ، ودعم ثقتى فى آنية القصيدة . أسافر إلى الخارج كثيراً . التكنولوجيا الأوربية ، والتصنيع ، أحاول دمجهما بروسيا السابقة التى ماتزال مغروزةً فى الوحل - الفكرة الخالدة للمستقبليين فى « ليف » .

برغم تعطيل معلومات الطباعة عن المجلة ، إلا أن « ليف » توسع من دائرة عملها .

نعرف هذه « المعلومات » - هى ، ببساطة ، الإهمال المعتاد للروتين المكتبى تجاه مجلات معينة ، من قبل الجهاز الضخم ، القاسى لدار نشر الدولة .

●● ١٩٢٥ :

كتبت قصيدة تحريضية « **البروليتاريا المحلِّقة** » ومجموعة من الشعر التحريضى

« تقدم بنفسك عبر السماوات » .

أتجول في العالم . بداية هذه الرحلة - القصيدة الطويلة الأخيرة (المكونة من عدة قصائد قصيرة) عن باريس . أردت التحول ، وهو ما أفعله ، من الشعر إلى النثر . هذا العام ، سيكون عليَّ أن أنهي روايتي الأولى .

« هنا وهناك » لم تُكتب . أولاً ، سُرقت في باريس ، ثانياً ، بعد سفر لنصف عام ، انطلقتُ كرصاصة إلى الاتحاد السوفيتي . لم أذهب - حتى - إلى سكان فرانسيسكو (كانوا يريدون أن ألقى محاضرةً هناك) . زرت كل المكسيك والولايات المتحدة وأجزاء من فرنسا وأسبانيا . والنتيجة - كتب : نثر دعائي : **« اكتشاف أمريكا »** ، وشعر : **« أسبانيا »** و **« المحيط الأطلنطي »** و **« هافانا »** و **« المكسيك »** و **« أمريكا »** .

أنهيت الرواية في رأسي ، لكنى لم أنقلها إلى الورق ، لأنى فيما كنت أنهيها ، انتابتنى حالة كراهية لما اختمرت به ، وبدأت فى مطالبة نفسى بضرورة أن ترتكز على الأسماء والوقائع . بالمناسبة ، ذلك أيضًا استغرق عامى ١٩٢٦ و ١٩٢٧ .

●● ١٩٢٦ :

خلال عملي ، أحول نفسى - بوعى - إلى صحفى . التسلية ، شعار . الشعراء يثرثرون بعيداً ، ومع ذلك فلا يستطيعون أن يكونوا هيئة تحرير جريدة من أنفسهم ، لكنهم ينشرون كثيراً فى الملاحق غير الرسمية . أجد هراءهم الغنائى مضحكًا ، حيث من السهل ارتكاب هذا النوع من الأشياء ، لكنه لا يهم أحداً غير زوجة صاحبه .

أكتب فى ازفستيا ، ترود ، رابوشايا موسكفا ، زاريا فوستوكا ، باكنسكى رابوشى وجرائد أخرى .

الوظيفة الثانية - أواصل التقليد المتقطع للتروبادور ومنشدى القرون الوسطى . أتجول فى المدن وأنشد : فى نوفوشير كاسك ، تيفليس ، برلين ، قازان ، سفيدلوفسك ، تولا ، براغ ، لينتجراد ، موسكو ، فورونيش ، يالتا ، أوباتوريا ، فيكاتكا ، أوفا ، إلخ ، ألخ ، ألخ .

●● ١٩٢٧ :

أعيد الآن إحياء « ليف » ، «جديدة» (كان ثمة محاولة لوأدها) . الموقف الأساسي : ضد التصنع ، والتجميل ، وإضفاء الطابع السايكولوجي بأدوات الفن الإبداعية ، لصالح التحريض والتقارير الإخبارية والصحفية المتقنة. العمل الأساسي في «كومسمولسكايا برافدا» ، وأشرع في كتابة « رائع ! » خارج ساعات الدراسة .

أعتبر « رائع ! » قصيدة برنامج . كما كانت « غيمة في بنطلون » كذلك بالنسبة لحقبتها . يجب استبعاد التقنيات الشعرية المجردة (المبالغات والتكثيف) ، واختراع تقنيات من أجل التقارير الصحفية ومادة التحريض .

ملاحظة ساخرة في وصف التفاهات التي يمكن - رغم ذلك - أن تكون الخطوة الأولى إلى المستقبل (الأجبان - ليست وصمة - المصابيح متوترة ، « انكسار الأسعار ! » ، ومقدمة ، لإعادة صياغة الخطط ، من حقائق المعيار التاريخي المتعدد الأشكال ، الصحيحة فحسب ، وفقا للتضامنات الشخصية (« محادثة مع بلوك » ، « بافل اليتش لافيت ، يهودي دمث ، قال لي ») .

سوف أطور ما سبق أن خططت له .

فضلاً عن ذلك ، كتبت سيناريوهات وكتب أطفال .

فضلاً عن ذلك ، واصلت أداء دور منشد القرون الوسطى . جمعت حوالي ٢٠ ألف ملحوظة من المتلقين ، أفكر في كتاب . « الإجابة العالمية » (لأصحاب الملحوظات) . أعرف ما يفكر فيه جمهور القراءة .

●● ١٩٢٨ :

أكتب قصيدة « رديئ » . مسرحية وسيرة أدبية . كثيرون قالوا لي : « سيرتك الذاتية ليست جادةً تماما » . حقيقي . لم أصبح بعد أكاديميًا ، ولم أتعود على تدليل نفسي ، وعلى أية حال فلا أستطيع الاستمتاع بعملي إلا إذا كان مرحًا . صعود وسقوط كتابات عديدة ، الرمزيين ، الواقعيين ، إلخ ، كفاحنا معهم - كل ذلك ، مما يحدث أمام ناظري ، هو جزء من تاريخنا الجاد للغاية . إنه يتطلب الكتابة عنه . ولسوف أكتب .

القصـــائد

صــباح

المطرُ الكئيب

يَنظرُ

شَذراً .

ووراءَ النَّافذَة الحَديديَّة

الوَاضحَة السَّاكنَة

- حَيثُ التَّفكيرُ الحَديديُّ للأَسْلاك الممدُودَة فَوقَ الرَّأس -

سَريرٌ مِن القَش .

وفَوقَه

اسْتَقرَّتْ فِي خِفَّة

سِيقَانُ النُّجُومِ المضِيئَة .

لَكِن عِندَمَا

تَبدأُ مَصَابِيحُ الشَّوارِع

- قَيَاصِرَةً فِي تِيجَانٍ مِن الغَاز -

فِي الموْت ،

تُصبِحُ المُشَاجَرَاتُ الصَّغِيرَة

لِبَاقَة بَغَايَا الشَّوارِع

أكثرَ إيلامًا للعَيْن .
وبَشعًا ،
يَخرُج
الضّحِكُ المرِح
الرّهِيب
الذى تُخَلِّفُه النّكَات
مِن الصُّفُوفِ المسْمُومَة
لِلورُود الصّفراء
فِى خَطٍّ مُتَعَرِّج .
لَكِنْ خَلف
كُلِّ الرُّعْبِ الْـ
ـمُدَمِّر
والقَذَارَة
تَبتَهِجُ العَينُ ، فِى النِّهَايَة ،
فَعبدُ الصُّلبَان
اللامُبَالِى ، فِى رَبَاطَةِ جَأشٍ ، بِصُورَةٍ ألِيمَة ،
وتَوابيت
المَوَاخِير
الممتَلِئَةُ بالرِّعَاع
يَندَفِعُون فِى بَاقَةٍ وَاحِدَةٍ مُشتَعِلَة
نَحوَ الشّرقِ الذى يَبزُغ .

● ١٩١٢ ●

وانـــت ؟

نَثَرْتُ بَعضَ الألوانِ مِن أَحَدِ الأَقداح
ولَوَّنتُ العَالَمَ الكَئيبَ بِالعَاطِفَة .
رَسَمْتُ عَلَى طَبَقٍ جِيلِى
العِظَامَ النَّاتِئَةَ لِوَجْنَةِ المحِيط .
وعَلَى صَفَائِحِ عُلبَةِ السَّلْمُون المحْفُوظ
قَرَأتُ نِدَاءَاتِ الشِّفَاهِ البَكْمَاء .
وأَنْت ،
هَلاً عَزَفْتَ مَقطُوعَةً حَالِمَة
بِمَاسُورَةِ الصَّرْفِ ، بَدَلاً مِنَ النَّاى ؟

● ١٩١٣ ●

جحيمُ المدينة الهائل

النَّوَافذُ تُهَشِّمُ جَحيمَ المدينَةِ الهَائِل
إِلَى جُحَيْمَاتٍ صَغِيرَةٍ - مُرَقَّعةٍ بِالمصَابِيحْ .
والعَرَبَاتُ - الشَّيَاطِينُ الصَّغِيرَةُ - تُفَجِّرُ صَرخَاتِهَا
فِي أُذنِك ، وَهِيَ تَشِبُّ عَلَى أردافِهَا .

وهُنَاك ، تَحتَ اللافِتَة
مَعَ سَمَكِ الرِّنجَةِ الآتِي مِن « كيرش » ،
ثَمَّةَ رَجُلٌ عَجُوزٌ ، مُهَدَّمٌ ، يَنحَنِي
لِيَبحَثَ عَن نَظَّارَته ، وَهو يَنشِجُ عَالِيًا ،
إِذِ انتَزَعَ زُجَاجَهَا
تِرَامٌ مُترَنِّحٌ ، فِي التَّبَاهِي الشَّفَقِي .

وَفِي الفَجَوَاتِ مَا بَينَ نَاطِحَاتِ السَّحَاب ،
المليئَةِ بِالمعدَنِ الملتَهِب ،
حَيثُ يَأتِي حَدِيدُ القِطَارَاتِ الصُّلبُ مُقَعقِعًا ،

هَوَتْ طَائِرَةٌ مَعَ زَئِيرِهَا الأخِير
إلَى السَّائِلِ الذِى يَنِزُّ مِن عَيْنِ الشَّمسِ المرِيضَة .

آنَئذٍ ، افتُتِنَ الليلُ بنَفسِه ،
وَهو يُكَرمِشُ مُلاَءَةَ الأضواء ، داعِراً مَخْمُوراً ،
وَخَلْفَ شُمُوسِ الشَّوَارِعِ ، الحَزِينةِ المَلامِحِ ،
غَاصَ القَمَرُ المتَرهِّلُ ، نِفايةٌ قَدِيمةٌ لا احْتِيَاجَ إلِيْهَا .

● ١٩١٣ ●

أنصِتْ !

أنْصِتْ ، الآنَ !
فإذَا ما كانَت النُّجومُ مُضيئَة
أيَعْنِي ذَلكَ أنَّ شَخْصًا ما يَهفُو إليْهَا ،
شَخصًا مَا يُرِيدُهَا أنْ تُضيءَ أكْثرَ قليلاً ،
شَخْصاً ما يُسمِّيهَا نُقْطةً صَغيرةً
من الرُّضَاب ، أو جَوْهَرة .

ومَسْحُوقًا
تَحْتَ وطْأة العَواصِفِ التُّرابيَّة لِلظَّهِيرة ،
يَبْكِي إلى اللّه ،
خَائفاً مِن فَوَاتِ الوَقْت ،
ويُقَبِّلُ اليَدَ القَاهِرَة ،
مُنْتَحِبًا ،
يُقْسِم
أنّه لاَ يَسْتَطِيعُ ، بِبَسَاطَةٍ ، أنْ يَحْتَمِلَ مَصِيراً
بلاَ نُجُوم !

يَجبُ أنْ يَكُون ثَمَّةَ نَجْمٌ ، يَجِبْ !

. . . ثُمَّ يتَمشَّى قَلِقًا ،

برَغْمِ مَظْهَرِه الهَادِئ ،

هَامِسًا لِشَخْصٍ مَا ،

« هَل أنْتَ بِخَيْر ؟

أَلَسْتَ خَائِفًا ؟

أَعَلَى مَا يُرَام ؟ »

أنْصِتْ الآن ،

أيَجِبُ أنْ يَكُونَ ثَمَّةَ نُجُومٌ تُومِضُ لِشَخْصٍ مَا ،

شَخْصٍ مَا يَهْفُو

إلى أن فَوْقَ سُطُوحِ البيُوت

يَجِبُ أن تُضِيءَ ، علَى الأقَلِّ ، نَجمَةٌ وَاحِدَة ؟

● ١٩١٣ ●

وُ و و ، إنَّه مُستَحِيل !

لَسَوفَ يُمَزِّقُنِي الغَضَبُ كُلِّي ، الآن .

غَاضِبٌ ، لَكِن لَيس مِثلَك بِتَكشِيرَتِك ،

بَل كَكَلبٍ فِي مُوَاجَهَةِ القَمَرِ الأجرَد

أَنبَحُ فِي الكُلِّ وَالجَمِيع .

الأعصَاب ، رُبَّمَا …

سَأَمضِي ،

أَتَمَشَّى …

لَكِن لاَ أَحَد فِي الشَّارِعِ ، أَيضًا ، يُمكِنُه تَهدِئَتِي .

مَسَاءَ الخَير ! تَهتِفُ امرَأَةٌ ، وَهِيَ تَعبُرُنِي .

إِحدَى مَعَارِفِي …

لاَبُدَّ مِن قَولِ شَيءٍ مَا ،

أُرِيد ،

لَكِنِّي لاَ أَستَطِيع ، كَإِنسَان .

إِنَّه ، بِبَسَاطَة ، أمرٌ شَائِن .
أَنَائِمٌ أَنَا ، أم مَاذَا ؟
أُحِسُّ نَفسِي أعلَى :
كَمَا كُنتُ مِن قَبل .
نَفسُ الوَجهِ الذِي اعتَدْتُ عَلَيه –
إِذَن ، فَلِمَاذَا كُلُّ هَذِه الجَلَبَة ؟
ثُم أَلمسُ شَفَتِي –
من تَحتِهَا ، يَا الله ،
نَاب !

أُركُض ! أُغَطِّي وَجهِي كَمَا لَو كُنتُ أعطَس
وَأَندَفِع ، فِي سُرعَةٍ مُضَاعَفَة ، عَدْوًا إِلَى البَيت ،
مُتَحَاشِيًا رِجَالَ البُولِيس
لَكِن فَجأَة ،
يَضرِبُنِي الصَّمَم :
« أَيُّهَا الشُّرطِي !
ذَيل ! »

أَمُدُّ يَدًا وَأَتَسَمَّر ، كَصَنَمٍ سَاكِن .
فَلاَ أَهَمِّيَّةَ للأثيَابِ بِالقِيَاسِ إِلَى ذَلِك .
لَم أَلحَظه ، وَأَنا أَعدُو :

فَمِن تَحت سُترَتى ،
يَتَجَرجَرُ خَلفِى
ذَيلٌ ضَخم - مِكنَسَة ! -
هَائِلاً ، كَلبِيّاً .

فَمَا العَمَلُ الآن ؟
صَاحَ أَحَدُهُم فِى الحَشدِ المُتَزَايِد ،
وَأَتَى آخَر ، وثَالِثٌ ورَابِع .
شَقَّت عَجُوزٌ طَرِيقَهَا
بَعدَمَا رَسَمَت شَارَةَ الصَّلِيبِ عَلَى نَفسِهَا ،
مُتَوقِّفَةً عَلَى الرَّصِيف ،
تَخطُبُ عَن شَىءٍ مَا حَولَ الشَّيطَان .

وَحِينَمَا مَاجَ الحَشدُ حَولِى ، هَائِلاً ،
وَقد التَصَقَت بِوَجهِى شَوَارِبُ تُشبِه المِقَشَّة ،
انسَحَبتُ عَلَى الأَربَع -
خِزىٌ أو لاَ خِزْى -
وبَدَأتُ فِى النُّبَاح :
بَاو - جِرر - بَاو - وُوو - وُوو !

● ١٩١٥ ●

ليلى الحبيبة! بدلاً من رسالة

الحُجْرَةُ فَصلُ مِنْ جَحِيمِ « كرُوشونِيك » .
والهَوَاء
تآكَلَه دُخَانُ السَّجَايِر .
أتَذكُرِين -
وأنَا أربِّتُ ، مُحْتَرِقًا ، علَى ذِراعَيْك
بحُبٍّ مَجْنُون ،
للمَرَّةِ الأولَى ،
عندَ النَّافِذَة ؟
تَجْلسِينَ الآنَ هُنَاك
والقَلبُ فِي الدُّرُوع ،
وربَّمَا ،
ذَاتَ يَوم ،
سَوْف أطْرَدُ إلى الخَارِجِ ،

إلَى القَاعَةِ الغَائِمَة :
فَلنَرتَدِ ثِيَابَنَا : كُنْ أكثَرَ هُدُوءًا ،
أيُّها القَلبُ المَجْنُونُ ، لاَ تَدُقَّ عَالِيًا هَكَذا !

وَلَسَوْفَ أَنْدَفِعُ ، عَاصِفًا ،
أُطْلِقُ جَسَدِي إِلَى الشَّارِعِ ،
وَقَدْ أُدمَانِي اليَأسُ مِن القَدَمِ حَتَّى الجَبِين .
لاَ تَفْعَلِي ،
لاَ تَفْعَلِي ذَلِك ،
حَبِيبَتِي ،
فَاتِنتِي !
فَالأَفْضَلُ أَنْ تَقُولِي وَدَاعًا الآنَ ، فَوْرًا .
وعَلَى أيَّةِ حَال ،
فَحُبِّي عِبءٌ مَشْلُول
عَن أن يَتَعلَّقَ بِك
حَيثُمَا تَهْرُبِين .
دَعِينِي أَبْكِي ،
مَرَارَةَ تَعَاسَتِي ،
فِي زَفرَةٍ أَخِيرَة .

يُمْكِنُ لِلثَّورِ المُنْهَكِ بَعْدَ يَوْمٍ مِن العَنَاء
أَنْ يَقتَحِمَ المِيَاه ،
أَنْ يَبْتَرِدَ وَيسْتَرِيح .
أَمَّا أَنَا

فَلاَ بَحْرَ لِي سِوَى حُبِّك ،
وإِلَى الآن
فَهو لاَ يَمْنَحُنِي الرَّاحَةَ مِن هَذِهِ الدُّمُوعِ المنسَابَة .
ولَو أنَّ فِيلاً مُتعَبًا يُرِيدُ بَعْضَ الهُدُوء ،
فَلسَوفَ يَتَمشَّى ، فِي وَقَار ،
عَلَى الرِّمَالِ التِي أحرَقَتْهَا الشَّمس .
وأنَا لَدَيَّ
حُبُّكِ وَحْدَه
بَديلٌ عَن الشَّمسِ وَالبَلْسَم ،
لَكنَّنِي لاَ أستَطِيعُ أن أخَمِّنَ مَن الذِي سَيُرَبِّتُ عَلَى يَدِك .
ولَو أنَّ شَاعِراً تَعذَّبَ إِلَى هَذَا الحَد
لأمكَنَه أن يُبَادِلَ حُبَّه بِالمَالِ وَالشُّهرَة .
وبِالنِّسبَةِ لِي
فَالعَالَمُ لاَ يَحمِلُ لِي أيَّةَ بهجَةٍ أخرَى
أكثَرَ مِن رَنِينِ وتَألُّقِ اسمِكِ الحَبِيب .
مَا مِن حَبلِ مشنَقَة
ولا نَهرٌ مُتواثِب
ولاَ رَصَاصَةٌ أو سُمٌّ سَيَقتُلُنِي .
مَا مِن قُوَّةٍ تَفُوقُنِي
غَيرَ نَظرَتك ،
التِي لَهَا شَفرَةُ سِكِّين .

وغداً سَوفَ تَنْسَيْنَ
أنَّ مَنْ تَوَّجَكِ كَانَ أنَا ،
أنَا
مَن أذبَلَ رُوحًا مُزهِرَةَ .
وسَوْفَ تُدَوِّمُ صَفَحاتُ كُتُبِي
حَوَالَيْكِ
فِي دوامَةِ احْتِفَالٍ وجُودٍ عَقِيم .
فَهَلْ تَسْتَطِيعُ كَلِمَاتِي ،
وَهْيَ لَيسَت سِوَى أوراقٍ جَافَّة ،
أن تستَبقِيك
مَعَ قَلْبٍ خَافِق :
آه ،
دَعِي بَقَايا حُبِّي
تَحنُو عَلى مَوطِيءِ أقْدَامِكِ إذ تَرحَلِين !

● ١٩١٦ ●

تخمة

لاَ قُدرةَ علَى البَقاءِ فِى البيَت .

أتينسكِى ، تيُوتشِيف ، فِيت ...

والضَّجَر يَسُوقُنِى

- مِن جَدِيد - بَين الهَائِمِين ،

أمضِى

إلِى السِّينمَا ، والخَمَّارَةِ ، والمقهَى .

إلِى المِنضَدَة .

هَالَةُ الأمَلِ تَبدُو مُشرِقَة .

وَقَلبِى الأحمَقُ تَنقُصُه دَقَّةٌ وَاحِدَة .

فَمَاذَا لَو

أنَّ الأسبُوعَ المَاضِى قَد غَيَّرَ كَثِيراً مِن هَذَا القَروِىِّ الأحمَق ،

إلَى حَدٍّ أن ألهِبَ خَدَّيه بِالقُبلاَت ؟

حَذِراً ، رَفَعتُ عَينَى ، وحَدَّقتُ حَولِى ،

مُقتَحِمًا الجُمهُورَ المُتَدَثِّر .

« خِيَانَة !

خيَــانَة !

خيَــانَـة !

والصَّرخَاتُ تَنطَلِقُ مِن قَلبِي ،
تَجتَاحُ وَجهِي ، كَئِيبَةً وبَائِسَة .

بِلاَ مُبَالاَة ،
تَحُطُّ عَينَايَ عَلَيه :
إلَى اليَمِينِ قَلِيلاً ،
مَا سَمِعَ عَنه أَحَد ، أو رَآه مِن قَبل ،
مُستَغرِقًا بِأكمَلِه فِي سَاقٍ مِن الضَّأن ،
إنَّه أكثَرُ المَخلُوقَاتِ إثَارَةً لِلحيرَة .

تَنظُرُ وتَتَعَجَّب - هَل يَأكُلُ أم لاَ ؟
تُرَاقِبُ وتَندَهِش - هَل يَتَنَفَّس أم لاَ ؟
خَمسَةُ أقدَامٍ مِن عَجِينَةٍ قرنفُلِيَّة ، بِلاَ مَلاَمِح ،
لاَ تُشبِه - كَثِيراً - خِرقَةً فِي بُقعَةٍ مُلاَئِمَة .

عَلَى الكتفَين ، تَتَدَلَّى أكيَاسٌ حَرِيرِيَّةٌ ، مَلسَاء ،
تَضُمُّ مِسَاحَاتِ الأجنَابِ اللاَّمِعَة .
سَاخِطًا ، مُمَزَّقًا ، يَصرُخُ قَلبِي أكثَرَ جُنُونًا :

« فَلتتَرَاجَعُوا ، الآن !
فَمَاذَا بَعد ؟ »

أستَدِيرُ إلَى اليَسَارِ : فَاغِرَ الفَم ،
ثُم إلَى اليَمِينِ مِن جَدِيد ، مُتَرَاجِعًا فِي الرَّأْي .
فَلِمَن رَأَى الشَّكلَ الثَّانِي السَّاخِر ،
يَبدُو الأوَّل
كَأَنَّه لِيُونَاردُو دَافِينشِي مُضَاعَفًا .

لَيسَ بَشَرًا ! هَل يُمكِنُكَ إدرَاك
صَرخَةِ أَلَمِ أَلفِ يَوم ؟
الرُّوحُ لاَ تُرِيدُ أن تُصَابَ بِالخَرَسِ ، حَتَّى النِّهَايَة ،
لَكِن لِمَن تَشكُو ؟

لَسَوفَ أرمِي نَفسِي إلَى الأرض ،
أسلَخُ وَجهِي عَلَى أحجَارِ الطَّرِيق ؛
أغسِلُه مِن يُنبُوعِ دُمُوعِي الحَارَّة ،
وبِشِفَاه العَطَشِ لِلحُب
تَنغَرِسُ أَلفُ قُبلَةٍ وَأكثَر
عَلَى جَبهَةِ التُّرَامِ الوَضِيئَة .

سأمضِى إلى البَيت ،
أتشَبَّثُ بورَق الحَائط .
فَأينَ - فِى سواه - تَستَحِقُّ الورُوْدُ تَوَسُّلاَتِى ؟
عَزِيزِى ، أيُّهَا الشّىءُ المُلَطّخ ،
هَل أقرأ لك « بَسِيطًا كَمَا الحُوَار » ؟

مِن أجلِ التَّاريخ

حينَمَا يَتَكَيَّفُ الجَمِيعُ فِى الجَنَّةِ والجَحِيم ،
وتَتَوقّفُ مُحَاسَبَةُ القدّيسِ والمُرتَد ،
فِى عَام ١٩١٦
- تذكّرُوا جَيّداً -
سَيَكُون المُتأنّقُون قَد زَالُوا مِن بتروجراد .

● ١٩١٦ ●

مــزاد رخيــص

سَوَاءٌ مَا إِذَا كُنتُ أُوقِعُ بِامرَأَةٍ فِى مُغَامَرَةٍ عَابِرَة
أو أُرَاقِبُ ، فَحَسب ، شَخصًا مَا يَمُر -
فَكُلُّ امرِىءٍ يَقبضُ علَى محفَظَته ،
فَلاَ أُستَلُّهَا مِنه - إِذَن - بِالـمُصَادَفَة .
حَمَاقَة !
أَيُّهَا الـمُتَسولُّون ،
مَا الَّذِى يُمكِنُكُم أَن تُقَدِّمُوه لِى ؟
إِنَّنِى أسأل .

كَم مِن السِّنِين لابُدَّ أَن تَمُر
قَبلَ أَن يَكتَشِفُوا
أَنَّنِى - أَنَا الـمُؤَهَّلُ لِثَلاَث يَاردات مِن مشرَحَةِ الـمَدِينَة -
ثَرِىٌ بِصُورةٍ مُطلَقَة -
بَل أَكثَرَ ثَرَاءً مِن أَىِّ « بِيرپُون مُورجَان » .

وبَعدَ الكَثِيرِ ، الكَثِيرِ جداً مِن السِّنِين -

إلى حدٍّ أنّنِي لن أكُونَ حيّا حتّى ذلِكَ الحين –
وسَوَاءٌ مَا إِذَا كُنتُ أتَصَوّرُ جُوعًا
أو أعيشُ علَى بُندُقِيّتِي –
أنَا ، مُنشِدُ العَصرِ الحَاضِرِ ،
لَسَوفَ يَعكفُ الأسَاتذَة
علَى كُلِّ شَارِدَةٍ مِنِّي ووَارِدَة :
كَيفَ ،
وأَين ،
ومتَى وُلِدْت .
نَعَم ، فَمِن فَوقِ مِنبَرِ الخَطَابَة
سَوفَ يُثرثِرُ بَعضُ حَمقَى المُستَقبَل
عَن نِصفِ الشّيطَانِ نِصفِ الإلَه .
وَسَوفَ يَنحَنِي الحَشدُ إِلى الأرض ،
فِي مُدَاهَنَة ،
مُترَعًا بِالخُيَلاَء .
بَل لَن تُدرِكُوا
مَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ أنَا أم لا .
ورَأسِي الصّلعَاءُ بِالتّفَاهَةِ المُعتَادَة
سَوفَ يُصَوِّرونَهَا مُتَوّجَةً بِهَالَةٍ أو قُرُون .

وكُلُّ فَتَاةٍ جَامِعِيّةٍ ، حِينَمَا يَقتَرِبُ وَقتُ النّوم ،

سَوفَ يَسيلُ لُعَابُهَا عَلَى قَصَائِدِى فِى نَشوَةٍ صَافِيَة .
شَىءٌ وَاحِدٌ - عَلَى الأَقَل - يَدفَعُنِى إِلَى التَّشَاؤُم :
سَتَكُون هُنَاكَ دَائِمًا فَتيَاتٌ جَامِعيات عَلَى الأَرض ،
أَنَا مُتَأَكِّد .

اسمَعُوا .

كُلُّ ذَلِك تَملِكُه رُوحِى -
اذهَبُوا ، فَقَدِّرُوا الثَّروَةَ التِى تَذخَرُ بِهَا -
وأَبَدِيَّتِى نَفسُهَا ، التِى لاَ تَعرِفُ الحُدُودَ أَو القُيُود ،
المرعِدَةُ خِلاَلَ العُصُورِ ، مَهمَا نَأَت ،
سَوفَ تَدعُو إِلَى اجتِمَاعِ الرَّاكِعِينَ فِى العَالَم -
كُلُّ ذَلِك ،
لَو أَردتُم
لَسَوفَ أُغَيِّرُه
هَذِه اللَّحظَة
مُقَابِلَ كِلمَةٍ وَاحِدَة ،
حَانِيَة ،
إِنسَانِيَّة .

أَيُّهَا النَّاس !

وأَنتُم تُثيرُون اضطِرَابَات الشّوَارِع ، وتَسحَقُون السَّادَة ،
احتَشِدُوا على امتِدَاد الأَرض .
فَاليَوم فِي بِترُوجرَاد
فِي نَادجِدنْسكَايَا
سَأَبِيعُ بِالمَزَاد
أَغلَى التِّيجَان مُقَابِلَ أُغنِيَة :
مُقَابِلَ كَلِمةٍ إِنسَانِيَّة !
ثَمَنٌ بَخس ، سَتَقبَلُون به .
لَكِن –
فَقَط حَاوِلُوا وَاعثُرُوا
عَلَيه !

● ١٩١٦ ●

غيومُ الخديعة

عَاليًا
فِي السَّمَاءِ
أبحَرت الغُيُوم .
أَربَعُ غيمَاتٍ فَحَسب -
لَيسَت كَمثلِ حُشُودِكُم .
مِنَ الأولَى إِلى الثَّالثَةَ
بَدَوْنَ رِجَالاً ،
بَيْنَمَا الرَّابعَةَ
كَانَت جمَلاً .
وَفيمَا بَعد ،
عِندَمَا طَفَوْنَ هَائِمَاتٍ بِلاَ غَايَة ،
انضَمَّت إِلَيهِن
فِي الطَّرِيق
خَامِسَة ،
وَفِي انْفِصَالٍ تَام ،
عَنْهُن ،
جَرَى فِيلُ

إِثْرَ فِيل .

حَتّى -

رُبَّمَا أَتَتَ

سَادِسَةٌ وَأَصَابَتهُن بِالفَزَع -

تَلاَشَت الغُيُوم

كُلُّهَا

فِي الأثِيرِ الوَاهِي .

وَخَلفَهُن

رَكَضَت الشَّمسُ ،

زَرَافَةً صَفرَاءَ

وَهِيَ تَقضَمُ الغُيُومَ حَتّى النِّفَايَة .

* ١٩١٧ - ١٩١٨ *

المغامرة العجيبة
لفلاديمير ماياكوفسكي

تَوهَّجَ الغُرُوبُ كَستِّينَ شَمساً .
كَان يُوليُو مُسرِعًا .
والحَرَارَةُ كَانَت كَثيفَة .
كَانَت الحَرَارَةُ مُتَوتِّرَة ،
فِي ذَلكَ اليَومِ الصَّيفِي .
يَرتَفِعُ المنحَدَرُ القَرِيبُ مِن « بُوشكِينُو »
إِلَى تَلٍّ « أكيلُوف » ،
بينَمَا فِي الأسفلِ ،
تَقُومُ إِحْدَى القُرَى ،
والأسطُحُ كَعُرفٍ مَلوِى .
خَلفَ القَريَة
كَانَ ثَمَّةَ حُفرَة ؛
سَوفَ تَنْحَدِرُ الشَّمسُ ، فِي المسَاء ،
حَتْماً وَإن بِبُطْء ،
إِلَيْهَا ، كَمَا أعلَم ،
لِتَنَام .
وبَعدَ ذَلك ،

تَنْهضُ الشَّمس ،
فِى الصَّبَاحِ التَّالِى ،
فِى ثَوْبٍ قُرْمُزِى ،
وتُشْرِق ،
إِلَى أن تُسلِمَنِى فِى النِّهَايَةِ إِلَى الجُنُون -
فَهوَ نَفسُه الوَقتُ اللَّعِين !
إِلَى أن أصَابَنِى
الجُنُون ، ذَاتَ مَرَّة ،
حَتَّى انْقَلَبَ كُلُّ شَىءٍ إِلَى شُحُوبِ الرُّعب .
صَرَختُ بكُلِّ قُوَّتِى
فِى الشَّمس
« انْزِلِى أَيَّتُهَا المتَسكِّعَة ! »
وَواصَلْتُ الصُّرَاخ : « عَمَلٌ سَهْلٌ ، أيَّتُهَا الشَّمس ،
هَذَا الصُّعودُ لِتَشْوِينَا ،
بَيْنَمَا عَلَىَّ أن أظَل ،
دَاخِلاً ، خَارجًا ، وأنَا أُجَرجِرُ هَذِه اللاَّفِتَات اللَّعِينَة ! »
صَرَختُ : « انْظُرِى ، أيَّتُهَا الرَّأسُ الذَّهَبِيَّة ،
إنَّه الوَقتُ الذِى تُغَيِّرِين فِيه مَسَارَاتك .
فَلِمَاذَا لاتَأتِين لِشُرْبِ الشَّاى ،
بَدَلاً مِن الشُّرُوقِ ، وَالغُرُوبِ ، وَالتَّوَهُّج ؟
يَا نُجُومِى السَّعِيدَة !

مَاذَا اقْتَرَفْت !
فَمَعَ الهَالَة ، والأشِعَّة ، وكُلّ شَئ ،
تَأتِى الشَّمس
ذَاتُهَا
فِى خُطُوَاتٍ عِمْلاَقَة
مُستَجِيبَةً لِنِدَائِى .
أُحَاوِلُ أَنْ أُخْفِى خَوْفِى ،
مُتَرَاجِعًا مِثلَ كَركَدَن ،
إِنَّهَا قَادِمَة ،
لَقَد اقتَرَبَت فِعلاً ،
وَأَرَى عُيُونَهَا المتَّقدة ،
مِن خِلاَل البَاب وَالشُّبَّاك ،
مِن خِلاَل الفَتَحَات
وَالشُّقُوق ،
أَتْخَمَت الغُرفَة .
ثُمَّ تَوَقَّفَت
لِتَسْتَعِيدَ أَنفَاسَهَا اللاهِبَة ،
وَهَدَرَت ،
« هَا أَنَا أُغَيِّرُ مَسَارِى
لِلمَرَّةِ الأُولَى مُنذُ بدءِ الخَلِيقَة .
وَالآن ، أَيُّها الشَّاعِر ،

إِلَيَّ بِالمرَبَّى وَالشَّاى ،
وَإِلاَّ فَلِمَاذَا كَانتْ هَذِه الدَّعوَة ؟ » .
كُنتُ ، بالكاد ، قَادراً
عَلَى أن أستَجمع كِلمَتَين ،
فَأومَأتُ بِشَكلٍ مَا
نَاحِيَةَ البَرَّاد ،
مُوشِكًا عَلَى الجُنُونِ تَحتَ وَطأةِ الحَرارَة :
« هَيًا ، أيُّهَا الجُرم،
فَلْتَجْلسى ! »
ذَلِكَ الصَّبَاحُ لَن يُسفِرَ عَن خَير .
وَتَحطَّمَت وَقَاحَتِى !
فَكَّرت
وَجَلَسْت
كَأفضَلِ مَا يُمكِنُنِى
عَلَى الأَرِيكَة ، مُرتَبِكًا .
لَكِن مِن الغَرِيب أن أقُول ،
أنَّه مَعَ كُلِّ شُعَاع
كَانَ التَّصَلُّبُ يَرتَخِى ،
لِتَنسَحِب الشَّكلِيَّةُ الضَّيقَةُ تَدرِيجيًا
أمَامَ الصَّرَاحَة .

تَكَلَّمتُ عَن هَذَا
وتَحدَّثتُ عَن ذَاك ،
عَن « وكَالةِ التِّلغرَافِ الرُّوسيَّةِ » القَذِرَة .
فَقَالَت : «لاَ ، لاَ ،
لاَ تَبتَئِس يَافتَاى ،
هُنَاكَ مَا هُو أسوَأ مِن اللافتَات .
أتَظُن مِنَ السَّهلِ الشُّروق
طُوَالَ اليَومِ عَالياً هُنَاك ؟
فَلتُحَاوِل .
ولَكِن مُنذُ أن ارْتَبَطت الوَظِيفَةُ
بِـى ،
فإن شِعَارِى هُو
العَمَلُ أو المَوْت ! » .
وَعَلَى هذَا النَّحوِ ثَرثَرنَا حَتَّى حَلَّ الظَّلاَم ،
وبِالتَّحديدِ ، حَتَّى اللَّيلَةِ المَاضِيَة .
هِــه !
الظَّلاَمُ حَقًّا !
تَبدَّدَ كُلُّ الحَذَر
وتَعَامَلنَا فِى وُدٍّ تَام .
وَسَرْعَانَ مَا كُنْتُ ، فِى صَدَاقَةٍ حَمِيمَة

أخبطُ عَلَى كَتِفِهَا ،
وَهْي تخبطُ عَلَى ظَهْرِي ،
« لاَ ، أَنْتَ وَأَنَا ،
هَا نَحنُ اثنَان ، فَلنَكُن أكثرَ شجَاعَةً إِذَن !
تَعَالَ ، أَيُّهَا الشَّاعِر ، انْهَض !
فَلنُغَنِّ ونُشرِق ،
مَهْمَا تَكُنِ الأَرضُ كَئِيبَة .
سَأرِيقُ مَا أملِكُ مِن ضِيَاء ،
وأَنت –
مَا تَملك
فِي قَصَائد !
فَجُدْرَانُ الكَآبَة ،
وسُجُونُ الظَّلاَم
يَهْدِمُهَا اقْتِحَامُنَا المشترك ،
لِيندَفِعَ امتزَاجُ القَصَائِدِ بِالضَّوء
فِي فَوضَى جَمِيلَة .
وَيدرِكُ الشَّمسَ التَّعَب
وتَقُول عِم مَسَاء
لِتَطرُدَ هُمُومَهَا بِالنَّوم ،
فَأتَوهَّجَ – قُدُمًا – بِكُلِّ قُوَّتِي ،

وُيضيءُ النَّهارُ مِن جَدِيد ،
فَلنُشرِق فِي الأَعَالِي ،
فَلنُشرِق عَلَى الأرض ،
إِلَى أنْ يَجِفَّ نَبعُ الحَيَاة –
فَلنُشرِق – فَالجَمِيعُ يَستَحِقُّون الضِّيَاء ،
ذَلِكَ مَا تَقُولُه
الشَّمس
وَأنَـا ! .

* ١٩٢٠ *

جسر بروكلين

كُولِيدج ، أَيُّهَا الوَلَدُ العَجُوز ،
أَطلِق صَيْحَةَ فَرح !
فَمَا هُو طَيِّبٌ هُو طَيِّب -
ولاَ حَاجَةَ إِلَى نِقَاش .
وليَحْمَرَّ وَجهُكَ مِن مَدِيحى
وَلتنتَفخْ مِن الغُرُور
إِلَى أن تُصبِحَ كُرَوِيًا ،
حَتَّى وَإِن أَصبَحْت
عَشرَةَ أَضعَاف الوَلاَيَاتِ المُتَّحدَةِ الأمرِيكيَّة .
فَكَمَا يَسيرُ المؤمنُ الوَرِعُ
إِلَى كَنِيسَةِ الأَحَد ،
خَاشِعًا ، مَسحُوراً بإِيمَانه ،
هَكَذَا ،
أُخْطُو ، بقَلْبٍ مُتواضِع ،
فِى السَّرَابِ الرَّهِيبِ
للمَسَاء .
وكَمَا يَنْطَلقُ الغَازِى

خِلاَلَ المدِينَةِ المهزُومَة
وَهوَ يَعتَلِى مدفَعًا
لِيُصبِحَ بِجَانِبِه مَحضَ ذُبَابَة ،
هَكَذَا -
سَكَران بِالمجْد -
ألاَ فَلتَكُن الحَيَاةُ شَهِيَّةً هَكَذَا -
أتَسَلَّق ،
فَخُوراً ،
جِسرَ برُوكلِين .
وكَمَا رسَّامٍ سَاذج
يَغرِسُ شَوكَةَ عَينَيه ،
مَفتُونًا ،
فِى لَوحَةِ العَذراء
بِأحَدِ المتَاحِف ،
هَكَذَا أنَا ،
مِن ارتِفاعِ السَّمَاءِ القَرِيبَة
أتَطلَّع
إلَى نيُويُورك مِن خِلاَلِ جِسرِ برُوكلِين .
نيُويُورك ،
تلكَ الخَانِقَة والمذهلَة حَتَّى المسَاء ،

تَنسَى

وَقْدَتهَا

وَارْتِفَاعَهَا ،

وَلَيْسَ غَيْرَ

الرُّوحِ العَارِيَة

لِلأَبْنِيَةَ

هِيَ مَا يَبدُو فِي الضَّوءِ الشَّفَّافِ لِلنَّوَافِذ .

هُنَــا

الرَّوَافِع

ذَاتُ الأَزِيزِ المتَّئِد ،

الذِي يَتَرَدَّدُ مُنفَرِداً ،

عَبْرَ المسَافَةِ الدَّائِرِيَّة ،

فَيُضَلِّلَ القِطارَاتِ

وَهَي تَنْطَلِقُ مُهتَاجَة

كَآنِيَةٍ فُخَّارِيَة

مُهمَلَة

فِي دُولاَب .

وَفِي الأَسْفَل ،

عِنَد الفَمِ البَعِيدِ لِلنَّهر ،

يَبدُو

السُّكَّر والبَاعَةُ يَنقِلُونَه مِن المَعَامِلِ عَلَى الكَارُّو،
وَنوافِذُ القَوَارِب
المتَّجِهَة إِلَى الشَّمَال والجَنُوب -
أُصغَر مِن أُصغَرِ الدَّبَابِيس .
إِنِّنِي أَتَبَاهى
فِي سَيرِى
بِهذَا البِنَاءِ الممتَدِّ مِن الصُّلبِ .
فَفِيه
تَتَحَقَّقُ رُؤَاى -
فِي الكِفَاح
مِن أَجل البِنَاء
لاَ الأُسلُوب ،
فِي التَّوَازُنِ الصَّارِمِ الماكِر
لِلصَّوَامِيلِ وَالصُّلب
فَلَــو انَّ
نِهَايَةَ العَالَم
قَد حلَّت ،
وَالهَيُولَى
تَجرِفُ
القِمَّةَ الأَخِيرَةَ لِلكَوكَب ،

فَإِنَّ الشَّئَ الوَحِيد
المنفَرِد
الذِى سَيَبقَى
شَامِخًا فَوقَ الأَطْلَال
هُوهَذَا الجِسْر ،
وَفِيمَا بَعْد ،
وكَمَاالمتَاحِف
إِذ تُعِيدُ تَكْوِينَ الدِّيناصُورات
مِن العِظَامِ الدَّقِيقَةِ كَالإِبَرِ ،
فَإِنَّ جِيُولُوجِيَّ المستَقْبَل
سَيُعِيدُ بِنَاء
أَيَّامِنَا هَذِه
بدْءًا مِن هَذَا الجِسرِ وَحدَه .
وَسَوفَ يَقُول :
هَذَا القَوسُ الحَدِيدِيُّ الذِى يَمتَدُّ مَسَافَةَ مِيل
ضَــمَّ
المحِيطَاتِ والبَرَارِى مَعًا .
وَمِن هُنَا أَطْلَقَتْ أُورُوبًا القَدِيمَة
فِى زَحفِهَا إِلَى الغَرب

الرِّيشةَ الهِندِيَّةَ الأخِيرَة
إلَى الرِّيَاح .
فَالمِثَالُ الذِى تُقدِّمُه هَذِه الرَّافِعَة
سَوفَ يُذكِّرُ - آنئذٍ - بِالآلاَت .
فَتَأمَّلُوا -
هَل يَستَطِيعُ أحَدٌ بِيَدَيهِ العَارِيَتَين
وَهوَ يَغْرِس
قَدَمًا حَدِيدِيَّةً واحدة
فِى مَانهَاتِن
أن يَقتَلِعَ برُوكْلِين
بِشَفَتَيه
مِن مَكَانِه ؟
سَوفَ يُجِيب :
بِالأسلاَك
- تِلكَ الضَّفَائِرِ الإلِكْتِرُونِيَّةِ المجدُولَة -
إنَّهَا الحِقْبَةُ التِى جَاءَت بَعْدَ البُخَار .
النَّاسُ هُنَا
يَتَصَايَحُون
فِى الرَّادِيُو ،
وَالشَّعبُ هُنَا

حلّقَ بِالطَّائِرَةِ فِي الأَعَالِي .
فَالحَيَاةُ هُنَا
لِلبَعضِ
صَيحَةُ مُتْعَة ،
وَلِلبَعضِ الآخَر -
صَرْخَةُ جُوع
طَوِيلَة .
وَمِن هُنَا يَرتَطِمُ شُهَدَاءُ البَطَالَة
بِرؤُوسِهِم
فِي عُبُوسِ نَهرِ الهَدسُون .
وَأَيْضًا - تَبدُو صُورَتِي مُتَوَاصِلَة -
وَقَفَ هُنَا مَايَاكُوفسكِي ،
عَلَى نَفْسِ هَذَا الجِسر ،
وَهو يَقرَعُ قَصَائِدَه
ضَرْبَةً إِثْرَ ضَرْبَة ،
عَلَى أَوْتَارِ القِيثَار
عِنْدَ أَقْدَامِ النُّجُوم .
إِنَّنِي أُحَملِقُ كَمَا يُحَمْلِقُ رَجُلٌ بِدَائِي
فِي دَائِرَةٍ إِلكترُونِيَّة ،
وَالعَيْنُ ثَابِتَة

كَمَا قُرَادَةٌ عَلَى قِط !

حــقًا ،

جِسْرُ برُوكْلِين ...

إِنَّه شَيْءٌ مَا ، عَلَى هَذَا النَّحو !

* ١٩٢٥ *

سيرجي إيسينين

هَا قَد رَحَلْتَ ،
كَمَا يَقُولُونْ ،
إِلى عَالَمٍ آخَر .
يَالَهَ مِن فَرَاغ ...
فَلْتُحلّق ،
مُصْطَدِمًا بِالْكَوَاكِب .
فَلاَ نُقُودَ لِلتّوفِير .
وَلا مِحَلاَّتٍ لِلْبِيرَةِ . بِكلمَةٍ وَاحِدَة -
الاعْتِدَال .
لاَ ، يَا إِيسِينِين ،
هِيَ لَيْسَت سُخْرِيَة .
فَلاَ ضَحكَات فِي حَلْقِي ،
لَكنَّهَا وَطْأَةُ الكَارِثَة .
كَوْمَةَ عِظَامٍ مُتَهَاوِيَةٍ
تَبْدُو
فِي نَاظِرِي ،
وجَدَاوِلُ حَمْرَاءُ

تفيضُ مِن شُريّانِ مِعْصَمِكَ المقْطوع .
فَتَوقَّفْ ،
كَفَى !
هَلْ أنْتَ فِى كَامِلِ عَقْلِك ؟
حَتَّى تَتْرُكَ كِلْسَ المْوتِ
يَكسُو خَدَّيك ؟
أنْتَ ،
مَنْ يَقْتَنِصُ مزاحًا ،
مِن هَذَا القَبيل
فَلاَ يَسْتَطِيعُ أحَد
أن يُبَاريه أبَداً !
فَلِمَاذَا ؟
مِن أَجْلِ مَاذَا ؟
لا تَفْسِير .
غَمغَمَاتُ النُّقَّادِ ،
كَانَتْ بِسَبَبِ
هَذَا وَذَاك - ولكنَّهَا العِلاَقَةُ الطَّبَقِيَّةُ البَائِسَة
التى تَولَّدَت - بِالطَّبعِ -
خِلاَلَ السُّكْرِ الحَادِّ المُتَواصِل .
« لَو أنَّه انْقَطَع

عَن البُوهِيميِّين

إلى الطَّبقَة

لأثَّرت فيه ،

فَلاَ يَجدَ وَقتًا لِلمُشَاحَنَات ... » .

لَكن تِلكَ الطَّبقَة –

أتَظنُّهَا تُطفِىءُ عَطشَهَا

بِالكَفَاس ؟

لَكنَّهَا أيضًا

لا تَنكَفِىء

عَلَى الخَمر

فِى أمْسِيَاتِ الحِسَاب .

ولَو انَّ شَخصًا مَا ،

كَمَا يَقُولُون ،

قَد أصبَحَ رَئيساً لَه فِى "آت ذَا بُوست"

فَإنَّه يَمتَلِك

مَا هُو أكثَرُ بِكَثِيرٍ فِى الموْهِبَة

مِن حَيث المضمُون .

فَلَه أن يَكتُبَ الشِّعر

بسهُولَةِ النَّثر

(مُوغِلاً فِى الانْطِلاَقِ الموحِشِ ، كَمَا «دُورُونِين») ...

وَلَكِن لَو أَنَّ ذَلِكَ قَد حَدَث
فَأَنَا أَعْتَقِد
أَن كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَه –
أَن تَقطَعَ شَرَايِينَ مِعصَمِك –
مُنذُ وَقتٍ بَعِيد .
إِنَّنِي بِالأَحْرَى ،
إِذَا مَا سَأَلْتَنِي ،
أَمُوتُ سُكْراً
خَيْراً مِن الضَّجَرِ حَتَّى المَوْت
أَو الحَيَاة ضَجَراً .
وَسَوَاءٌ مَا كَانَ الضَّجَر
أَو اليَأس
فَلاَ أَنت
وَلاَ حَدَّ السِّكِّين
يُمكِنُكُمَا التَّفسِير .
رُبَّمَا ،
لَو أَنَّ الحِبرَ كَانَ قَلِيلاً
فِي الـ «إِنجِلترا»
فَلَن يَكُونَ مُبرَّراً
لِقَطعِ شُريَان .

والمقلّدون قفزوا إليه -
مرّةً ثانيَة !
وأسرعَ العشرَات
ليُكرِّروا الفعلَ الدمَوي .
لكن ، استَمِع ،
لماذا نُزيد
مِن مُعَدَّلِ الانتِحَار ؟
فَالأفضَلُ أنَ نَصنَعَ مَزِيداً مِن الحِبر
ليَكفِي الحَاجَة !
لسَانُه الآنَ موصَد
بَينَ أسنَانه
إلَى الأبَد .
فَأن نَتبَادَلَ الكَلمَات
عَارٌ صَريح
وكَلاَمٌ بِلاَ جَدْوَى .
فَالشَّعْبُ ،
ذَلِكَ الصَّانعُ الأعلَى لِلُغَة ،
قَد فَقَدَ بِموْته
صَانِعًا شَهوَانِياً
فَتياً .

وَهَا هُم يَأْتُون

الآن

بالنِّفَايَاتِ الجَنَائزِيَّة ،

قَصَائد

لَم يَطْرَأ عَلَيها سِوَى تَرْقِيعٍ تَافِه

مُنذُ آخِرِ مَوت ،

وَيَخُطُّون القَبْر

بخُطُوطٍ

بَلِيدَةٍ وكَئِيبَة ؛

أذَلِك هُو التَّقْدِير

الّذِي يَسْتَحِقُّه الشَّاعِر ؟

وَرغْمِ أنَّ النُّصُب

الذِي تَستَحِقُّه

لَم يَرتَفِع بَعد -

فَأيْنَ هُو البُرونْزُ الرَّائِع

وَالجَرَانِيتُ القَوِي؟ -

فَإنَّ نَزِيفَ الذَّاكِرَة

مُثْقَلٌ بالرَّمَاد ،

فَالذِّكرَيَات

وَالتَّضحِيَات

تَغزُوهَا فِي قَسْوَة .

وهَا اسمُك

يَتَحوَّلُ مَعَ العَوِيل

إِلَى دَجَل .

وبِكَلِمَاتِك

يُشَعوِذ

المايسترُو « سُوبِينُوف »

وَصَوتُه يرْتَعِش

تَحْتَ عَصَا التَّأدِيبِ المجهَضَة ،

كَمَا لَوْ كَانَ سَيَمُوت ،

« أُوه لاَ كَلـ - مَـ - ة ،

يَا أَصْدِقَائِي ،

آه لاَ تَنـ - هِـ - ـيـ - دَة ! »

بـَـاه !

إِنَّنِي أُرِيدُ الكَلاَم

بِحِدَّةٍ أكثَر

مَعَ نَفس

« ليونيد لوينجرنسكي » ذَاك !

سَوْفَ أَعْتَرِضُ طَرِيقَهُم ،

وَحْشًا مُرعِداً :

«كَيْفَ تَجْرُؤُون عَلَى الغَمغَمَةِ بِالشِّعر ،
كَمَا تَجتَرُّ الأبقَارُ الطَّعَام ؟ »
سَأُصِيبُهُم بِالصَّمَم –
سَأُصَفِّرُ وَأَنعَب :
« أُمُّكُم وجَدَّتُكُم التَّافِهَتَان
الفَارِغَتَان
رُوحُكُم العَمْياءُ ودِينُكُم ! »
هَكَذَا تَفِرُّ كُلُّ النِّفَايَاتِ الزَّائِفَة
مَذعُورَةً إِلَى الجَحِيم ،
وأَذيَالُ سُتْرَاتِهَا
المغْرُورَة
تَتَطَايَرُ فِى الهَوَاء ،
هَكَذَا سَيَمْضِى « كُوجان »
مُتَبَعثِراً
شَذَراً مَذَراً ،
وَهْوَ يَطْعَن
كُلَّ مَنْ يقَابِلُه
بِسَهامِ شَارِبِه .
ولَم يَتَراجَع الدَّهْمَاء
كَثِيراً

عمَّا قَبْل .

فَأَسْرِعُوا ، أَيُّهَا الرِّفَاق ،

إِلى الأَمَامِ ،

لاَزَالَ أَمَامَنَا الكَثير .

فَالحَيَاةُ يَجِبُ أَوَّلاً

إِعَادَةُ تَرتيبهَا كَامِلَة ،

إِعَادَةُ بِنَائِهَا -

إِعَادَةُ صُنعهَا -

آنذاك فقط نمجدها بالغناء .

هَذِه الأَيَّام -

ثَقيلَة

عَلى سِنِّ القَلَم .

وَلَكِن قُل لِي ،

مَن مِن العُظَمَاء ،

المشلُولِين وَالأصحَّاء ،

أَيْنَ وَمَتَى

اخْتَارَ الطُّرقَ المُمَهَّدَة

السَّهلَة ؟

فالكلمات

تَحشدُ وتقُود

القُوةَ الإنسانيّة .

هَيَّا !

فَلْنَدَعِ الزَّمَن يَنفَجِرُ كَالطَّلَقَات ،

بَعِيداً فِى الوَرَاء ،

حَتَّى تَرمِى الرِّيح

إِلَى المَاضِى وَرَاءَنَا

نِفَايَات الشِّعر

الملتوية والملتَفَّة !

فَعَالَمنَا

لَيْسَ مُعَداً مِن أَجلِ المرَح .

فَلنَنتَزِعِ الفَرَح

مِن قَبضَاتِ

يَومٍ قَادِمٍ !

إِنَّ الانتِحَارَ

فِى هَذِه الحَيَاةِ

لَيْسَ بَالِغَ الصُّعُوبَةِ .

إِنَّ بِنَاءَ الحَيَاةِ ،

كَمَا أَعْتَقِدُ ،

هُو الأَصْعَب .

* ١٩٢٦ *

فظائع الأوراق

لَو أمْسَكْت
فِي يَدِي
بِخُيُوطِ الكَوَاكِب
لاَسْتَوقَفتُ الأرضَ بُرهَةً :
« أنْصِتِي ،
هَلْ تَسمَعِين
صَرِيرَ الأقلاَم
وَاضِحًا مُتدَفِّقا
كَمَا لَو انَّ
أسنَانَ الأرْض
تَصِرُّ فِي الظَّلام ؟ »
وَيَذوِي
كِبْرِيَاءُ الإنْسَان
إلَى النِّسيَانِ الأبَدِي !
وَمَعَ الزَّمَن
يَخْبُو
مُسْتَقْبلُ الإِنسَانِيَّة .

فَالإنْسَان
يَتحَوّلُ تَدرِيجيًا
إِلَى بُقْعَةِ حِبر
عَلَى هَوَامِش
صَفَحَاتٍ هَامَّةٍ ، فِي بَشَاعَة .
والرِّجَال
مَحْشُورُون كَظِلاَل
فِي مَمَرَّاتٍ دَاخِلِيَّةٍ مُوصَدَة .
فَلِكُلِّ أَنْفٍ عَشْرَةُ أَقْدَامٍ مُرَبَّعَة -
بَينَمَا قِلاَعٌ كَامِلَةٌ مِن المكَاتِب
مِن أَجلِ مَرَحِ الأورَاق -
لِتَتَمدَّدَ فَوْقَ المنَاضِدِ
أَوْ تَسْتَلقِي فِي الخَزَائِن
رَاضِيَةً كَمَا يَجِبُ أَن تَكُون .
تَمْتَدُّ الطَّوَابِيرُ فِي الخَارِجِ
عِنْدَ أَحَدِ المحَلاَّت
مِنْ أَجْلِ الثِّيَاب .
لاَ أَحْذِيَةَ لِلأَقدَام ،
وَلاَ قُفَّازَاتٍ لِلأَيدِي .
بَينَمَا مِن أَجلِ الأَوْرَاق

هُنَاكَ سِلاَلٌ ،
مَحْصُولٌ هَائِل ،
وَالمَلفَّاتُ وَفِيرَةَ
مِن أجْلِ جُثَثَ « القَضَايَا » .
ورُوبِلاَتِ السَّفَر –
كَمْ
تَمْلِكُ مِنْهَا ؟
هَل زُرْتَ مَدْرِيد ؟
أُرَاهِنُك
لاَ !
أمَّا الأوْرَاق ،
فَلِكَى تَتَمَكَّن
مِن الإبْحَارِ وَالسَّفَر
فَإنَّهمُ يُقِيمُون لَهَا
مَكتَبَ طِبَاعَةٍ حُكُومِيًا جَدِيداً !
وتَتَخَلَّى السِّيقَان
نَحِيلَةً كَمَا المشَابِك
عَن قُوَّتِها
تُستَبدَلُ العُقُولُ بِالتَّعلِيمَات –
وَلاَ أحَدَ يَشعُرُ بِفَدَاحَةِ الخَسَارَة .

يَنحَطُّ الرِّجَالُ إِلَى سُعَاة

يَرْكُضَون

فِي خِدمَةِ الأَوْرَاق

التِي تَحولَّتْ إِلَى مَركَزِ القِيَادَة .

ومِن الحَقَائِب المحْشُوَّة

تَنفَجِرُ الأَوْرَاق

مُعَرَّيَة

أَطْرَافَهَا ذَات الأَسْنَانِ البَيضَاء ،

وَسَرْعَانَ مَا يَزحَفُ النَّاس

إِلَى الحَقَائب لِلسُّكنَى

كَمَا يَسْعُون إِلَى الشُّقَق -

وَالأَوْرَاقُ تَسْعَى إِلَيْهِم .

إِنَّنِي أَرَى فِي المسْتَقبَل -

لاَ خَيَالاً ،

وَإِنَّمَا نُبُوءَةً

تُدَوِّى

مِن أَبواَقِ الأَوراَق :

لَسَوْفَ تَجْلِسُ الأَوراَق

إِلَى الموائِد

وَتَتَنَاوَلُ الغَدَاء ،

وأشْبَاهُ الرِّجَال
يرتَمُون تَحْتَ الموائِد
مُتَهَافتِين .
لَن أنشُرَ
عَاصِفَةً
مِن الرَّأيَاتِ المعَرِيدَة -
بَل سَوفَ أُمزِّقُ الأوراقَ بِأسْنَانِى
وَأصْرُخُ سَاخِطًا :
« أيُّها البرُوليتَارِيُّون ،
كُلُّ بُوصَة
مِن وَرَقٍ لاَ يُجدِى ،
امقُتُوهَا كَعَدُوِّكُمْ ،
اكْرَهُوهَا كَالجَحِيمْ ! »

* ١٩٢٧ *

جنونُ الاجتماعات

فِي عَنَاءٍ ، تحوّلَ اللّيلُ إلَى فَجْرٍ ،
وأنا مُحَاصَرٌ بِنَفْسِ المشْهَدِ اليَوْمِي :
الحُشُودُ تَمْضِي إلَى مَكَاتِبِهَا - كُلٌّ إلَى مَكْتَبِه :
إلَى المكتَبِ الثُّقَا ...
إلَى المكتَبِ السِّيَا ...
إلَى المكتَبِ الـ ...
إلَى المكْتَبِ الميكَا ...
يَعْبُرُون فِي مُعَانَاةٍ بوّابَ المؤسَّسَة ،
وهُمْ مُكَدَّسُون بأوْرَاقٍ كَمَا الثُّلُوج ،
يَخْتَارُون منهَا خَمْسِين -
الأكْثَرَ أهميَّة ! -
ويَمضِي الجَميع
إلَى الاجْتمَاع .
وتَخْتَلِسُ النَّظَر :
« ألاَ يَسْتَطِيعُونَ رُؤيَتِي ؟
لَقَد أتَيتُ هُنَا ، يَعلَمُ اللهُ مُنذُ مَتَى ... »
« الرَّفِيق فَان فَانِيتش خَرجَ لِيَتَبَاحَث

حَوْلَ اندِمَاج « ثيو » و « جُوكُون » ! » .
السُّلّمُ الأَبَدِى .
وَتَظنُّ أنّكَ إلى البلى .
لَكِنْ مِن جَدِيد .
« عَلَيْكَ بالعَودَةِ بَعْدَ سَاعَة » .
اللّعنَة !
« إنهُم فِى اجتِمَاع
مَزَادِ زُجَاجَةِ حِبر
لِلهَيئَةِ التّعَاونيّةِ الإقليميّة » .
وبَعدَ سَاعَة :
لاَ سِكرِتير
وَلاَ كَاتب !
إنّه الجَحيم العَظِيم !
وكُلُّ مَن تَحت ٢٢ سَنَة –
أشْقَرَ أو أسمَر –
فِى اجتِمَاعِ « الكُومْسُومُولْ » .
مَرّةً ثَانِيَةً ، وَأَنَا أتصَبّبُ عَرَقًا ، فِى الغَسَق
آتِى إلَى قِمّةِ المبنَى ذِى الأدوَارِ السّبعَة .
وَأَسْأَلُ : « هَلْ وَصَل فَان فَانيتش ؟ » .
« لاَ – إنّه فِى اجْتِمَاع

لجنَة أ - ب - ت - ث ... » .
وأتَمزّق ،
سَاخِطًا كَمَا التّيْهُور فِي عُنْفُوَانِ قُوّته ،
لاَعِنًا فِي وَحْشِيّة .
مَا هَذَا !
لاَ أرَى غَيرَ أنصَافِ النَّاس !
« أينَ هِي ،
تلْكَ الأنصَافُ الأُخرَى المفقُودَة ؟ » .
وَأصِيح ،
« جَرِيمَةُ قَتْل !
مَجزَرَةٌ بَشَرِيّة ! »
أنْدَفِعُ مُزَمْجِراً .
وَتُحِيلُنِي الصُّورَةُ المرِبعَةُ إلَى هُرَاء .
ثُمَّ يَأتِينِي الصَّوْتُ الهَادِئُ لِلسّكِرْتِير :
« آسِفْ ،
إنَّهُم يَحْضُرُونَ اجْتِمَاعَيْن فِي نَفْس الوَقت .
إذْ يَجِبُ علَينَا
أنْ نَحْضُرَ عَشرَ جَلَسَاتٍ يَوْمِيًّا ،
طَوْعًا أَمْ كَرهًا ،
فَنَنْقَسِمِ إلى نِصْفَيْن -

فَمِنْ أَسْفَل حَتَّى الخَصر
هَا نَحْنُ هُنَا ،
أَمَّا بَقِيَّتُنَا - فَهُنَاك » .

الصَّدْمَةُ تَأتِي بِالأَرَق .
وأَلقَى الفَجْرَ ، مُتَثَائِبًا وَرَاثِيا ،
بِحُلمِ الرَّحْمَة :
آه ، مِن أَجلِ اجتِمَاعٍ وَحِيدٍ أَخِيرٍ وحَاسِم ،
يُقَرِّر
مَحْوَ كُلِّ الاجتِمَاعَات !

* ١٩٢٢ *

الأذواق تختلف

الحصَان
أبْصرَ الجَمل
فقَهْقَهَ بِصَوْتٍ أُجَش :
« يَا لَه
مِن حصَان
هَائِلٍ وَعَجيب » .
فَرَدَّ الجَمل :
« أأَنْتَ حصَان ؟
لاَ .. لَيْسَ مُؤَكّداً !
أَنْتَ جَملٌ نَاقِصُ النُّمُو ،
لَيْسَ غَير » .
وَاللهُ وَحدَه ،
العَلِيمُ حَقّاً ،
يَعْرِفُ أَنَّهُمَا مِن الثَّديِيَّات
وَلَكِن مِن سُلاَلَتَين مُختَلِفَتَين .

* ١٩٢٩ *

رسالة من باريس
إلى الرفيق « كوستروف »
عن جوهر ومَعنى الحب

الرَّفِيق « كُوسْتروف » ،
أنَا وَاثِقٌ أنَّك لَن تَنزَعِج
- فَالسَّمَاحَةُ إحْدَى فَضَائِلِكْ -
إذَا مَا بَدَّدتُ
عَلَى الغِنَائِيَّاتِ الصَّغِيرَة
بَعْضًا مِن السُّطُور
المخَصَّصَةِ لِبَارِيس .
فَلَكَ أن تَتَخَيَّل :
الجمَال
يَدخُلُ قَاعَة
فِي إطَار
مِن القَلاَئدِ وَالفِرَاء ،
وَأنَا
أقُولُ لَهَا
بِلاَ مُقَدِّمَات أبداً
نَفْسَ هَذِهِ الكَلِمَات :
لَقَد

أَتَيْتُ تَوًّا ،

مِن رُوسْيَا ، أَيَّتُهَا الرِّفِيقَة .

وَفِي وَطَنِي

أَنَا شَخْصِيَّةٌ هَامَّة .

وَقَد رَأَيْتُ نِسَاءً

أَكْثَرَ جَمَالاً بِكَثِير ،

نِسَاءً

أَكْثَرَ عُذُوبَة

أَكْثَرَ رَشَاقَة ،

وَفَتَيَاتٍ

يَرْتَمِينَ مَجْنُونَاتٍ

عَلَى الشُّعَرَاء

وَأَنَـا

صَاحِبٌ

وَلاَذِع .

هَيَّا !

انْظُرِي إِلَيَّ - فَحَسب - وَأَنَا أَمْضِي مُتَهَوِّراً .

هَلْ تَحْتَقِرِينَنِي ؟

مَا مِن أَحدٍ نَالَ قَلبِي

وَلَن تَضبطِينَنِي

مُنَافِقاً ،
مَشغُولاً
بِالرَّغَبَاتِ التَّافِهَة .
فَذَلك الإِحسَاس
يَسْكُنُ أَعْمَاقَ قَلبِى ،
وَيَقُودُهُ خِلاَلَ الحَيَاة
أو الإِفْلاَس !
فَلَنْ أَقِيسَ
الحُبَّ بِاحْتِفَالاَتِ الزِّفَاف .
أَتَنْصَرِفِينَ عَنِّى ؟
حَسَنًا .
فَلَن أُطلِقَ اللَّعَنَات ،
كَمَا قُلْتُ ،
مِن أَجلِ أَجرَاسِ زِفَافِكِ الدَّامِى .
فَلاَ تَقُودِينَا ، إِذَن ،
يَا فَتَاتِى ، إِلى الهَشَاشَة .
وَلْنَتَخَلَّ عَن المزَاح ،
أَيُّهَا الرَّبُّ القَدِير !
آنِسَتِى ،
لَقَدْ تَخَطَّيتُ العِشْرِين مُنذُ زَمَانٍ بَعِيد –
فَلتَقُولِى إِنَّهَا الثَّلاَثُون .

والحُبُّ لاَ يَعْنِى
القَلَقَ الأبَدِى ،
ولاَ الطَّرِيق
الَّذِى يُفضِى بِالمرْءِ إلَى الاحْتِرَاقِ وَالتَّوَهُّج .
إنَّه ذَلِك
الَّذِى يُرَفْرِف
تَحْتَ الصُّدُورِ النَّاهِدَة ،
وَرَاءَ غَابَةِ الشَّعر .
فَأن تُحِبَّ يَعْنِى أن تَندَفِعَ خَارِجًا
إلَى السَّاحَة
قُدُمًا حَتَّى المسَاءِ الضَّارِى
بِفَأسٍ وَامِضَة
لِتَحطِيمِ الحِزْمَاتِ الجَافَّة
فِى ألْعَابٍ نَارِيَّة
رُجُولِيَّةِ القُوَّة .
أنْ تُحِب
يَعنِى أنْ تَهْرُبَ مِن مُلاَءَاتِ الأرَقِ المُهتَرِئَة ،
بِغَيرَةِ « كُوبرنِيكُوس »
وَهوَ يَبتَلِعُ رِيقَه ،
هُو ،

مَن لَيْسَ زَوْجًا

لِلسَّيِّدةِ « سُكَّر وحَلاَوَة »

الَّذِي يَرقُبُكَ

كَمَا لَوْ كَانَ غَرِيمَكَ القَاتِل .

فَالحُب

بِالنِّسبَةِ لَنَا

لَيسَ جَنَّةَ عَدنٍ أَو مَا شَابَه .

الحُب

بِالنِّسبَةِ لَنَا

هَدِيرٌ يَجعَلُ قَاطِرَةَ القَلب

السَّاكِنَةَ طَوِيلاً طَوِيلاً

تَنْطَلِقُ

ضِدَّ

كُلِّ الخِلاَفَات

وَالآلاَم .

لَقَد مَدَدْتَ

مَعَ مُوسكُو

كُلَّ الخُيُوط .

وَهَا هِيَ أَعْوَامُ

مُنذُ كَانَ لَكَ وَلَهَا

أَنْ تَفْتَرِقَا لِلْمَرَّةِ الأُولَى .

فَكَيْفَ لِي أن أغْرِس
فِي رَأسِك
جَوْهَر
حَالَة القَلب تلك ؟
هَا هِي الأَضْوَاءُ تُغَطِّي الأَرْض
مُتَصَاعِدَةً إِلَى السَّمَاء .
وَالسَّمَاءُ مَلِيئَةٌ بِالنُّجُوم -
فَلْتَذْهَبْ ، وَلْتُحْصِهَا .
فَلَوْ انَّنِي لَمْ أَكُن
الآنَ شَاعِراً
لَوَددتُ أن أكُونَ فَلَكِيًّا
مُخْلِصًا لِلرَّب !
صَخَبٌ يَمْلأُ
الزُّقَاقَ وَالمَيْدَان .
والمــارَّةُ
يَسِيرُون مُسرِعِين إِلَى الوَرَاء
كَالمجَانِين ،
بَيْنَمَا أنَا
أتَمَشَّى الهُوَيْنَى
هُنَا وَهُنَاك
وَأُدَوِّنُ القَوَافِي
فِي المفَكِّرَة .

والعَرَبات

الّتِي تَتَسَابَق

عَلَى طُولِ الشَّارِع

لَنْ تَصْدمَنِي

بِالصُّدْفَة .

فَهْيَ تَفْهَم ،

فَتَنْتَبِه إلَى :

أنَّ الأحْمَق

يَمُرُّ بِحَالَة نَشْوَةٍ غِنَائِيَّة .

دوَّامَةٌ مِن الصُّوَر ،

وَالأفْكَار ،

وَالرُّؤَى

تَسْتَحْضِرُ

المَدِينَةَ اللاَّهِيَة .

حَقًّا ،

فَحَتَّى الدُّب

فِي مِثْلِ هَذِه الحَالَة

يُمْكِنُ أنْ يَنبُتَ لَه

زَوْجٌ مِن الأجْنِحَة .

وبَعَدَ ذَلك ،

تَئِــز

كلمَــةٌ ،

خَارِجَةً مِن إِحدَى حَانَاتِ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَة ،
بَعدَ أن تَصَبَّبَت
عَرَقًا فِي الدَّاخِل
بَعضَ الوَقت ،
صَاعِدَةً عَمُودِيًّا إِلَى النُّجُوم
كَمَا نَجمٌ مُذَنَّب ،
مُتَوهِّج ،
وَالذَّيلُ يَمتَدُّ مَفروداً
عَلَى نِصفِ السَّمَاء ،
وَالرِّيش –
تِلْكَ البُقْعَةُ المتَوَهِّجَةُ فِي السَّمَاء ،
مِن أَجْلِ أَنْ يَجْلِسَ العُشَّاق
وَيُمْتِعُوا أَبْصَارَهُم
فِيمَا يَستَنشِقُون أَرِيجَ
لَيلَكَ
تَعْرِيشَتِهِم ،
فَيُثِيرُهُم
وَيُهدِيهُم
وَيُلهِبُهم
وَيَدْغَمُهُم ،
هَؤُلاَء

مَن تَتَمَاوَجُ أرْوَاحُهُم
مِنْ أجلِ قَطع رُؤُوسِ الأعْدَاء
عَن الأكْتَاف
بِسَيفٍ
لأمِعٍ
ذِي نَصَلٍ طَوِيل .
لسَوفَ أقِفُ
حَتّى الضَّرْبَةِ الأخِيرَةِ فِي صَدْرِي
كَمَا لَو
عَلَى مَوعِد ،
وأنصِت
لِلحُب
وَهْوَ يَهدِلُ فِي عُشّه ،
بَسِيطًا ،
إنسَانِيًا ،
وَحَقِيقِيًّا .
فَكَمَا المدُّ والجَزْر ،
كَمَا الإعصَار ،
تُدَمدِمُ
العَاصِفَةُ
واللَّهَبُ

داخِلِي

وَيَرتَفِعَان !

فِمَن له أنْ يَتَبَنَّى هَذَا الطِّفلَ المدَلَّل

أنت ؟

رائِع !

* ١٩٢٨ *

* هكـذا عـادة

هَكَذا عَادَةً
يُمنَحُ الحُبُّ لِجَميعِ مَن يُولَدُون ، كَمَا لاَحَظْت ،
ولَكِنْ بَيْنَ
أشْغَال المرْء
ودَخْله
ومَا إلَى ذَلك ،
يَنْطَمِرُ القَلْب
بنفَايَاتٍ أكْثَر فَظَاظَةً من أن ينمُو مَعَهَا الحُب .
فَالقَلْبُ يَسْكُن الجَسَد ،
والجَسَدُ يَتَغَطّى بالقَميص .
ولَكن ، كَمَا لَو أنَّ ذَلكَ غَيرُ كَافٍ ،
فإنَّ شَخْصًا مَا - أبلَه ! -
يَخْتَرِعُ صَدريَّةً ،
ويَدْهِنُ حَلمَتَيْه بالنَّشَاء ، عَلَى سَبيلِ التَّمويه .
وهَا هُوَ الزَّمَن القَديمُ يَأتي -

هِيَ تَمضِي فِي اسْتِكمَالِ زِينَتِهَا ،
بَيْنَمَا هُوَ يرقُبُ « مُوللر » لِيُوَجِّهَ إِلَيْه لكْمَة .

وَمُتَأَخِّرةً تَمَامًا !
تَظْهَرُ التَّجَاعِيدُ فَجْأَةً فِي كُلِّ شَيْء .
وَيَئِزُّ الحُب
ويَذْوِي
وَ –
يَرْحَل .

*** في الطـفـولة**

مَوَاهِبِي فِي الحُبِّ عِندَ المِيلاَدِ كَانَتْ فِي المستَوَى العَادِي ،
لَكِنَّ مَوَاهِبِي الأُخْرَى
قَادَتْنِي إِلَى العَنَاءِ مُنذُ الطُّفُولَة .
وَأَهرُبُ إِلَى نَهْرِ « رِيُون » –
كَمَحْضِ شَيطَان .
لاَ أَفْعَلُ غَيرَ التَّسَكُّع .
أُمِّي تُوَبِّخُنِي :
أَنَّنِي سَوْفَ أَقُودُهَا إِلَى الموْت .
وَأَبِي :

«حزامِى سوفَ يُعلِّمه الذَّوْق ! » .
ولَكِنَّنِى
تَعلَّقتُ بِلُعبَةِ « الخَمسيَّة المحتَالَة »
لأُقَامرَ مَعَ الجُنُودِ تَحْتَ السِّيَاج .
وَمُتَخَفِّفًا مِن عبءِ الحذَاء ،
مُتَحَرِّراً مِن القَميص
أَنْشَوِى فِى حَرَارَةِ « كُوتَايْسِى » المجْنُونَة ،
وأَنَا أَتَقَلَّبُ عَلَى الجَمْرِ فِى اتِّجَاهِ الشَّمْس ،
عَلَى الظَّهرِ أَوَّلاً
ثُمَّ المعدَة
إِلَى أن تَتُوقَ تِلْكَ المعدَة
تَوْقًا مُوجِعًا إِلَى الطَّعَام .
ولاَبُدَّ أَنَّ الحَيرَةَ قَد انْتَابَت الشَّمْس :
« مَشْهَدٌ نَادرٌ ، فَسَمَكُ الرُّوبْيَان !
لَه أَيضًا مَشَاعِرُه ،
المرْهَفَة .
فَأَيْن
يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مُتَّسَع
لِى ، فِى هَذَا العِفرِيتِ الصَّغِير ،
ونَهْر
وَجِبَالٌ أَتَّخِذُهَا حِذَاءً ؟ »

*** فِي الصِّبَا**

دُرُوسُ الحِسَابِ وَالنَّحْوِ وَمَا إِلَيْهَا ،
تُصْبِحُ عِبئًا فِي سِنِّ المرَاهَقَة .
وَأَنَا
طُرِدْتُ من المدْرَسَة
عِنْدَ اسْتِدَارَةِ العَامِ الخَامِس ،
ثُمَّ تَقَاذَفَتْنِي السُّجُون
لأستَكْمِلَ التَّعليم .
وَالشُّعرَاءُ يُولَدُونَ في عَالَمِكُم الصَّغِيرِ ، الوَثِير
مِن أجلِ حُجرَاتِ النَّوم ، الهَفهَافَةَ المدَلَّلة .
فَأَيُّ خَيرٍ يُرْجَى مِن غِنَائِيَّاتِ الجِرْوِ فِي الحَضَانَة ؟
وَأَنَا -
تَعَلَّمْت
أَنْ أُحِب
فِي « بُوتِيركِي » .
فَهَل لِي أَنْ أَتَأَوَّهَ لأَنَّ غَابَةَ بُولُونيَا تَترُكُنِي مُرْتَعِداً ؟
وَأَتَنَهَّدَ عِندَ مَرْآى البَحْر ؟ يَا لَه مِن جَحِيم !
لَقَدْ وَقَعْتُ فِي حُبِّ أَحَدِ المتَعَهِّدِين
عَبْرَ ثُقْبِ الزِّنزَانَة ١٠٣ .
فَأَنْتُم تَرَونَ الشَّمسَ يَومِيًّا ،

وَتَرفَعُونَ ذُقُونَكُم

« تِلْكَ الأشِعَّة ، يَا لَهَا مِنْ فَائِدَةٍ عَظِيمَةِ السَّخَاء ! »

وأنَا

لَكُنْتُ مَنَحْتُ العَالَم

تِلْكَ الأيَّام

مِنْ أجْلِ بُقْعَةِ شَمْس

فِي حَجْمِ الدَّبُّوسْ .

*** في الجـامعة**

هَلْ تَعْرِفُ الفِرنْسِيَّة ؟

وَتُمَيِّزُ العِبَارَات ؟

مَا هِيَ الانْحِرَافَات ؟

حَسَنًا ، أكْمِلْهَا .

لَكِنْ قُلْ لِي –

هَل يُمْكِنُكَ الغِنَاء

فِي انْسِجَامٍ مَعَ البُيُوت ؟

هَل تَعْرِفُ اللُّغَةَ

الَّتِي يَصْرُخُ بِهَا التِّرَام ؟

إنَّ الكَتَاكِيتَ الإنسَانِيَّة

بِمُجَرَّدِ أنْ تَخْرُجَ مِنَ البَيْضَة ،

تَأتِي بِالكُتُبِ المدْرسيَّةِ وَالكُرَّاسَات ،
لِتُلصِقَ عُيُونَهَا بِهَا .
ولَقَد تَعَلَّمتُ أ . ب . ت
مِن السبُّورَة ،
اخْتِطَافًا ،
وَأنَا أخُوضُ خِلاَلَ صَفحَاتٍ
مِن صَفِيحٍ وَحَدِيد .
إنَّهُم يَأخُذُونَ الأرْض ،
بَعْدَ أنْ تَتقَازَمَ إلَى حَجْمِ لُعبَةِ طِفْل ،
بَعدَ التَّشْذِيبِ وَالتَّهذِيب ،
لِيُذَاكِرُوهَا .
وَتَعَلَّمتُ الجُغْرَافْيَا ، وَأنَا أنْبَطِحُ فِي المسَاء
عَلَى الأرضِ ، عَلَى يَدِ أحَدِ الأوْلاَد .
وكَانَت الأمُورُ الخَطِيرَةُ تُمَزِّقُ رأسَ « الوفَايِسكِي » ،
« خُبزُ بَاربَارُوسا -
أكَانَ بُنِّيًا
أمْ أحْمَر ؟ »
إنَّنِي مُولَعٌ بِالأسرَارِ البَالِيَة !
شَائعَاتُ مُوسْكُو -
هِيَ كُلُّ تَارِيخِي .

وَهُمْ يَعتَبِرُون « دُوبرُولِيُوبُوف » (أَكْثَر النَّاسِ كَرَاهِيَةً لِلشَّر) ،
شَقِيقًا ، مُتَكَلِّفًا ، « وَغدًا ، هِرْطِيقًا » يَنبَح !
ولَقَدْ كَرِهْتُ البُطُونَ السَّمِينَةَ ، فَكُنْتُ أَتَمنَّى قَتلَهَا
دائمًا
وَأَنَا أَبِيعُ
نَفْسِي مِن أَجلِ الغَذَاء .
وَأَنتُم تَجلِسُون ،
إِذ إِنَّكُم مُتَعلِّمُون ،
مُهَذَّبِين كَسَيِّدَةٍ رَاقِيَةٍ ،
وَالأَفكَار
تَقطُرُ فِي رِقَّةٍ
مِن عَقلٍ فِي رَأْسٍ رَخْو .
وأنَا
لَم أَجِدْ سِوَى المَبَانِي
لمُعَاوَنَتِي
سِوَى المِضَخَّات
لِلتَّسلِيَة .
هَا هُم يُصغُون
مُقتَرِبِين ،
المدخَنَةُ وَالإِفرِيز ،
مُتَلَهِّفِيْن عَلَى السَّمع ،

لمــاحَيْن
فِي الفَهم .
حِينَئِذٍ
تَصِر
أَلسِنَةُ « دوَّارَةِ الرِّيَاح » ،
رَاحِلَة
عَن أَخْبَارِ الأُسْبُوعِ .

* فى الـكِـبَر

لِلكِبَارِ أعْمَالُهُم ،
الجُيُوبُ مَعَ الدَّرَاهِمِ .
أَتُرِيدُ الحُب ؟
عَلَيكَ - فَقَطْ - بِالدَّفْع -
مَائَةً أو مَا شَابَه .
وَأَنَا
كُنتُ أهِيمُ مُشَرَّداً ،
مُتَوَهِّجَ العَيْنَين ،
قَبضَتَاىَ فِى الجُيُوب ،
وَالجُيُوبُ مِلؤُهَا الثقُوبُ وَالهَوَاء .
أنتُم تَسندُون أرْوَاحَكُم ،

مُرتَدِين أَفضَلَ الثِّيَاب ،
عَلَى الزَّوجَاتِ وَالأَرَامِل
عِندَمَا يَغمُرُكُم المسَاء .
وَأَنَا -
كُلُّ مُوسكُو
كَانت تُحرِقُنِى مِثلَ الفَحم
فِى عِنَاقٍ يُشبِهُ الخَطِيئَةَ مَعَ شَارِعِ « سَادُوفَايَا »
الَّذى لاَ يَنتَهِى .
سَاعَةٌ قَلْبِ عَشِيقَاتِكُم
تَدُقُّ رَقِيقَةً وَنَاعِمَة
وَالسَّعَادَةُ مِن أَجْلِ رَفِيقَاتِ الفِرَاش
كَافِيَةٌ وَتَفِيض .
أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِى -
فَقَلْبُ العَاصِمَةِ يَدُقُّ وَحشِيًا ،
وَأَنَا أَقِيسُ طُولِى عَلَى مَيدَانِ « ستراسْتنَايَا » .
وَمَفتُوحًا إِلَى النِّهَايَة
- وَالقَلبُ يَخرُجُ إِلَى الخَلاَء -
أَلقَيْتُ نَفسِى عَارِيًا لِضَوءِ الشَّمْسِ وَالأَوحَال .
أَشْبَعُونِى بِالأَهْوَاء ،
بِالحُبِّ وَالشبَق ،
فَلاَ أَستَعِيدُ السَّيطَرَةَ وَلاَ الثِّقَةَ فِى قَلْبِى .

إِنَّنِى أعْرِفُ مَسْكَن القَلْبِ عِنْدَ الآخَرِين -
إِنَّه فِى الصَّدْرِ - تَحتَ البلُوفَر .
وَقَلْبِى -
قَلْبِى أحَدُ هَذِه الأَجْسَادِ المجْنُونَة -
قَلبٌ وَاحِدٌ كُلُّهُ يَهْدِرُ ويَقصِف .
أوقَاتُ الرَّبِيعِ وَحْدَهَا - العِشرُونَ رَبِيعًا جَمِيعًا
كَانُوا هُنَاك .
أشْبَعُونِى إِلَى حَدِّ التَّوَهُّج .
وَعِبؤُهُم ،
الذِى لاَ يِنْقَضِى ،
كَانَ يَفُوقُ الاحتِمَال ،
يُوجِعُنِى
لِيَنقَضِى فِى الحُب .

* الحصـــاد

أُضخَمَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَحلُمَ أَىُّ رُومَانتِيكِى ،
انْتَفَخَتْ كُتلَةُ القَلْبِ إِلَى أن أصبَحَ هَائِلاً ،
كَكَابوُسِ شَاعِر ،
بِحَجمِه وَوَزْنِه ،
هَائِلاً فِى الحُبِّ وَهَائِلاً فِى الكَرَاهِيَة .

وَتحتَ العبْءِ أخَذَت سَاقَايَ فى الالْتواء ،
– وكَمَا تَعرِفُون ، فَإِنَّ جَسَدِى مَتِينٌ ، تَمَامًا –
بَل أَخَذْتُ أجَرْجِرُ مَعِى أذيَالَ قَلبِى ،
وَالأكْتَافُ – عَلَى مَسَافَة بَارِدَةٍ – اعتَرَاهَا الذُبُول .
لاَ مَخْرَجَ لِى – مُنْتَفِخًا بِلَبَنِ الشِّعرِ ، طَافِحًا ،
بَلْ مُتَدَفِّقًا باللَّعنَة !
وَسَلَفِى التَّافِهُ الموبَاسَّانِى –
مُرضِعَةُ الشِّعرِ الغِنَائِيِّ لِلعَالَم ،
لاَ شَىءَ بِالنِّسبَةِ لِى .

* أنـــادى

اسْحَبُوا ! دَفَعْتُهَا بِالمنَاكِب
وَأنَا أخفُقُ وأتَسَاقَط .
وَعَلَى طَرِيقَةِ دَعْوَةِ الحَدَّادِين لِلتَّجمُّع
إِذْ يَدُقُّون الجَرَسَ حِينَمَا تَتَقَافَز
النِّيرَان ،
صِحتُ عَاليًا –
إِنَّهَا هُنَا !
امسكُوهَا !
عِندَمَا فَرَّت هَذِه المفَاصِلُ المسرُوقَةُ ، الهَائِلَة ،

مُتَهَوِّرَةً ،
خِلاَلَ الطِّينِ وَالأَوْحَال ،
وَبِأَقْصَى سُرْعَة
انْطَلَقَت المِلاَبِسُ الدَّاخِلِيَّةُ كَالصَّارُوخ ،
« إِنَّنَا نُفَضِّل شَيْئًا أَصْغَر ،
أَكْثَرَ رِقَّة .. »
أف !
هَكَذَا حَمَلْتُ عِبْئِى ، وَأَنَا لاَ أَحْتَمِلُه ،
سَعِيداً لَو أَطرَحُه ،
وَهوَ مَا لَن يَحدُث .
وَالتَّوَتُّر
مَزَّق صَدْرِى .
وَالضُّلُوعُ - كُلُّهَا فِى جُوقَة -
صَرَخَتْ مِن أَجْلِ الرَّحْمَة .

* أنتُـــم

كَعَمَلٍ تِجَارِى ،
تَبًا لِلصَّرِيرِ وَالدَّمْدَمَة ،
حَكَمْتُمْ عَلَىَّ فِى لَمْحَة -
مُجَرَّدُ وَلَد !

والتقطتمُ ذَلك القلب،
فَمَا انتابتكُمْ ذَرّةُ فزَع .
وكَشَفْتُم عَن التّمثيليّة - طِفْلٌ ولُعبَة .
والجَميع
- كَمَا لَوْ شَهدُوا عَجَبًا -
بَانَ رُعْبُهُم ، عَذراوات وسَيِّدَات :
« أَتُحبُّونَ مِثلَ هَذَا الهَيْكَلِ العَتيقِ ؟ لاَ ، حَقًّا إنّه مِن دَمٍ ورَعْد !
رُبّمَا كَانَ دُبًّا أَليفًا - انظُرْن ، لاَ تَخَفْن ! » .
وَأَنَا - كُنتُ مُبتهجًا -
لاَ عبْءَ فَوْقَ كَاهلي .
كُلُّ شَيْءٍ ، غَيْرَ أَنّي كُنتُ مَجنُونًا بِالبَهجَة ،
أَترَاقَصُ مَرحًا كَزنجيٍّ حَديث الزّوَاج ،
بِالبَهجَةِ أَحسَسْتُ ، وأَحسَستُ بالمرَح .

* مستحيل

وَحْدي
سَأَبْحَثُ عَن بيَانُو ثَقيلٍ لِلْغَايَة ،
وَبالطّبعِ ، عَن خزَانَةٍ حَديديّةٍ أَيْضًا .
وَهَكَذَا مَعَ الخزَانَةِ وَالبيَانُو ،
ثُم كَيْفَ ، أَيّتُهَا السّمَاءُ الرَّائعَة ،

يُمكِنُ أن أحمِلَ قَلْبِى عَلَى الإِيَابِ منك ؟
رِجَالُ البُنُوكِ يَعرِفُون ،
« نَحنُ أغنِيَاءُ بِلاَ حُدُود ، وجُيُوبُنَا عَامِرَة –
فَلتَستَخدِمْ خِزَانَةً أكثَرَ أمَانًا » .
وَحُبِّى يَختَبِئُ فِيكُم كَمَا تَختَبِئُ الثَّروَةُ فِى الحَدِيد ،
وَأنَا لاَ مُبَالٍ ، أشعُرُ كَمَا « كرُويسُوس » .
وَفِى بَعضِ الأوقَات ،
حِينَمَا أفتَقِرُ إلَى المرَح ،
فَإنَّنِى أصِيدُ ابتِسَامَةً ، نِصفَ ابتِسَامَةٍ أو شَيئًا من هَذَا القَبِيل
وَأُنْفِقُ فِى نَوبَةِ مَرَحٍ صَاخِبٍ ذَاتَ لَيلَةٍ ، مَعَ الأصدِقَاء ،
مِلْءَ قَبضَةٍ أو قَبضَتَيْنِ من التَّغَيُّرِ الغِنَائِيِّ البَسِيط .

* نفس الأمر معى

الجَدَاوِلُ – حَتَّى الجَدَاوِل تُبْحِرُ عَائِدَةً إلَى الشَّاطِىء .
وَالقِطَارَاتُ – حَتَّى القِطَارَات مَشدُودَةٌ إلَى المحَطَّات .
وَأنَا – كُلِّى مَشدُودٌ أكثَر مِن الجَمِيع ،
مَشدُودٌ إلَيكِ بِحُبٍّ مُطبِق .
فَارِسُ بُوشكِين يَنزِلُ إلَى قَبْوِه
لِيَتَأمَّلَ كَنزَه عَلَى ضَوءِ الشُّمُوع .
وَأنَا أيضًا أعُودُ إلَيكِ ، يَا حَبِيبَتِى –

يَا كنزَ قلبِي - لأُربِّتَ علَيْكِ وأُحِبُّك .
يَعُودُ الرِّجَالُ إِلَى بُيوتِهِم سُعَدَاء ،
والاتِّسَاخُ وَشَعْرُ الذَّقنِ النَّامِي
يَزُولاَن مَعَ الصَّابُونِ والأمْوَاس .
وأَنتِ - أَنْتِ بَيْتِي . آتِي إِلَيكِ وأَتفَجَّرُ
بِالفَرح -
وَضِيئَةً كَانَت تِلْكَ الأيَّام .
ويَعُودُ أَبنَاءُ الأَرْضِ إِلَى أُمِّهِم ،
الأرض ،
نِهَايَة
الطَّرِيق الَّذِي بَدأنَاه .
وَأنَا أَيْضًا مَشدُودٌ إِلَيكِ وَحدَك
فِي لَحظَةِ رَحِيلِي ، لَحظَةِ الفِرَاق .

* الخلاصة

لاَ أميَال ،
لا مُشَاحَنَات ،
يُمكِنُ أن تُدَمِّرَ الحُب ،
تلكَ حَقِيقَةٌ مُحَقَّقَة ،

وثَابِتَة

إلى النِّهَايَة .

وَمَعَ الشَّعرِ الَّذِى تُوَقِّعُه الأصَابِعُ فِى قَسَمٍ تَصَاعَدَ عالِياً

أُقسِمُ ، صَادِقًا غَيرَ مُخَاتِلِ ، أنَّنِى أحِبُّك .

* ١٩٢٢ *

إلى نفسه الحبيبة
يهدى المؤلف هذه السطور

الرَّابعَة .
عِبءٌ ثَقِيل . دَقَّاتُ سَاعَة .
« حَتَّى القَيصَر ... حَتَّى الرَّب ... »
لَكِن إِلى أَين
يُسَاقُ شَخصٌ مَا مِثلِى
أينَ سَأجِدُ مَأوَى ؟

هَل كُنت
كَمُحيطِ المحُيطَاتِ الصَّغِيرَة ،
أبزُغُ عَلَى أطرَافِ أصَابِعِ الأموَاج ،
كَالمدِّ ، أتَطَاوَلُ لأربِّتَ عَلَى القَمَر .
فَمِن أينَ العُثُورُ عَلى امرَأَةٍ مَا
لأُحِبَّهَا بِمثلِ حَجمِى ،
السَّمَاءُ أصغَرُ مِن أن تَتَّسِعَ لَهَا ؟

فَقِيرٌ أنَا
كَمِليُونِيرٍ كَبِير ،

وَهوَ مَا سَيَظَلُّ قَاسِياً .
مَا النّقُودُ بِالنِّسبَةِ لِلرُّوح ؟ -
لِصٌّ لاَ يَشبَع .
إنَّ ذَهَب
كُلِّ الـ « كَاليفُورنيَا » تِ لاَ يُشبِع
قَبيلَةَ رغَبَاتِي الصَّاخِبَة .

أتَمنَّى لَو كُنتُ مَعقُودَ اللِّسَان
مِثلَ دَانتِي أو بِترَارك ،
قَادِراً علَى إشعَالِ قَلبِ امرأة ،
أن أحَوِّله إلَى رَمَادٍ بِصَفحَاتِ الشِّعر !
فَكَلمَاتِي
وحُبِّي
يُشَكِّلاَن قَوسَ نَصر :
خِلاَلَه ، ستَعبُرُ مَعشُوقَاتُ العُصُور ،
فِي اكتِمَالِ بَهَائِهِن ،
بِلاَ أثَر !

وإذَا مَا كُنتُ هَادِئاً
مِثلَ رَعد ،
فَكَيفَ سأعوِلُ وَأعوِي !

أنَّهُ واحدةٌ منِّى
ويَبدأ الرُّوَاقُ المُتَداعِى لِلعَالَمِ فِى الارتِعَاد .
وإذا
مَا انتَهَيتُ بِالزَّئير
بِكُلِّ قُوَّتِه المُندَفِعَة -
فَلسوفَ تَعتَصِرُ المُذَنَّبَاتُ ، أليمَةً ، يَدَيهَا
وتَقفِزُ ، فِى حُمَّى ، مِن سَطحِ السَّمَاء .

ولَو أنَّنِى كُنتُ مُعتِمًا كَالشَّمس ،
لثَقَبتُ اللَّيلَ بِأشعَّةِ عَينَى ،
وأيضًا
لأطعَمتُ قَلبَ الأرضِ الذَّاوِى
نَفسِيَ المُتَوَهِّجَةَ ، المُوحِشَة .

لسَوفَ أمضِى ،
مُجَرجِراً حُبِّى الهَائِلَ خَلفِى .
فَفِى أيَّةِ لَيلَةٍ مَحمُومَة ،
يَمتَطِيهَا الهَذَيَان ،
وَمِن أىِّ عَمَالِيقَ وُلِدتُ -
أنَا ، الهَائِل
الذِى لاَ حَاجَةَ لأحَدٍ بِه ؟

* ١٩١٦ *

إلى الجميع وكل شئ

لاَ .

لاَ يُمكِن .

لاَ !

أنتِ ، أَيضًا ، يَا حَبِيبَتِي ؟

لِمَاذَا ؟ مِن أَجلِ مَاذَا ؟

انظُرِي ، عَزِيزَتِي -

لَقَد أتَيت ،

وَأَحضَرتُ الوُرود ،

لَكِن ، لَكِن ... لَم آخُذ أَبدًا

مَلاَعِقَ فِضِّيَّةً مِن دُرجِك !

شَاحِبَ الوَجه ،

تَرَنَّحتُ تَحتَ خَمسِ قَفَزَاتٍ لِلسُّلَّم .

الشَّارِعُ يُدوِّمُ حَولِي . عَوَاصِف . أبوَاق .

الإطَارَاتُ تَصرُخ .

مُرعِدَة .

تَلدَغُ الرِّيحُ خَدِّى .

ونَفيرٌ يَمتَطِي نَفِيراً فِي شَبَق .
فَوقَ جُنُونِ العَاصِمَة
رَفَعتُ وَجهِي ،
عَابِساً كَوجُوهِ الأيقُونَاتِ القَدِيمَة .
مزِقَةَ حُزن ،
عَلَى جَسَدِك كَمَا عَلَى سَرِيرِ مَوت ،
أنهَى قَلبِي أيَّامَه .

لَم تُلَطِّخِي يَدَيكِ بِقَتلٍ وَحشِي .
بَدَلاً منه ،
تَركته يَهوِي فِي هُدُوء :
« إنَّه فِي السَّرِير .
وهُنَاك فَاكِهَةٌ ونَبِيذ
عِندَ قَاعِدَةِ السَّرِير » .

حَبِيبَتِي !
لَم تُوجَدِي إلا فِي عَقلِيَ المشُتَعِل .
فَكُفِّي !
أوقفِي هَذِه المهزَلَةَ الحَمقَاء
ولاحِظِي :
أنَّنِي أطرَحُ عَنِّي

دِرعِيَ اللُّعبَة ،
أنَا ،
الأعظَمُ مِن كُلِّ « دُون كِيشُوت » !

هَل تذكُرِين ؟
مُثقَلاً بِالصَّلِيب ،
تَوقُّفَ المسَيح لبُرهَة ،
مُتعَبًا .
صَرَخَ الحَشدُ ، وَهو يُرَاقِبُه ،
سَاخِراً :
« امشِ ، أيُّهَا الأبلَه ! » .

حَقًّا !
فَلنَحقِد .
لنَحقِدِ عَلَى مَن يَستَجدِي رَاحَةً
فِي يَومِهِ الأخِير ،
فَلنُسرِعِ ونَلعَنه .
فَلاَ شَفَقَة
بِحشُودِ المُتَعَصِّبِين ، المُجبَرِينَ عَلَى فِعلِ الخَير !

ذَلِكَ مَايَجرِي !

أُقسِم بِقُوَّتِي الوَثَنيَّة –
هَبِينِي فتَاةً ،
شَابَّة
ملِءَ العَين ،
فَلَن أُهدرَ مَشَاعِري عَلَيهَا .
لَسَوفَ أَنتَزِعُهَا
وأَطعَن قَلبَهَا بِالسُّخرِيَةِ عَن طِيبِ خَاطِر .

وعَينٌ بعَين !

والمحَصُولُ يَزِيدُ أَلفَ ضِعفٍ لِحَصَادِ الانتِقَام !
فَلاَ تَتَوَقَّفِي أَبَدا !
مَذهُولاً ، مَشلُولاً ،
أَعوِي فِي كُلِّ أُذن :
« الأَرضُ مُجرِمَةٌ ، فَلتَسمَعِي ،
ورَأسُهَا نِصفُ حَلِيقَةٍ عَلَى يَدِ الشَّمس ! » .

وعَينٌ بِعَين !

فَلتَقتُلِينِي ،
ولَتَدفِنِينِي –
لَسَوفَ أَحفُرُ قَبرِي بِنَفسِي ،

وسَكَاكِينُ أسنَانِي مَشحُوذَة .
مُتَوحِّدًا ،
كَكَلبٍ مُزَمجِرٍ ،
تَحتَ الأسِرَّةِ الخَشَبِيَّةِ للثُّكنَاتِ سَوفَ أزحَف ،
مُندَفِعًا لأعُضَّ الأقدَام
التِي تَفُوحُ بِالعَرَقِ ومَرَابِطِ السُّوق !

ولَسَوفَ تَقفِزِين مِن السَّرِيرِ فِي السَّاعَاتِ الأُولَى مِن اللَّيل .
« مُووو ! » سَأزأر .
وفَوقَ كَاهِلِي ،
قُرُوحُ النَّيرِ الضَّارِي ،
وأعَاصِيرُ الذُّبَاب
سَوفَ تَهُب .
إنَّنِي ثَورٌ أبيَض يُحلِّق فَوقَ الأرض !

سَأنقَلِبُ إلَى أيل ،
وأَغصَانُ قُرُونِي مُشتَبِكَةٌ بِالأسلاك ،
وعَينَايَ حَمرَاوَان ، دَمَوِيَّتَان .
كَحَيوَانٍ اصطَادُوه وأتَوا بِه إلَى رُكنِ السَّاحة
سَأنتَصِبُ بلاَ رَحمَةٍ
فِي مُواجَهَةِ العَالَمِ كُلِّه .

لاَ مَهرَبَ لِلإنسَان !
قَذراً وذَليلاً ،
يَستَلقِي - مُغمغِمًا بِالصَّلاَة -
علَى صَخرَةٍ بَارِدَة .
مَاسَأفعَلُه هُو أن أرسُم
عَلَى بَوابَةِ القَيصَر
وَجهَ « رَازين »
فَوقَ وَجهِ الرَّب .

فَلتَجفِّي ، أيَّتُهَا الأنهَار ، امنَعيه مِن إرواءِ عَطَشِه !
احتَقِريه !
وَلاَ تُهدِرِي أشِعَّتكِ ، أيتُهَا الشَّمس !
تَوهَّجِي !
لِيُولَدَ آلافٌ مِن حَوَارِيِّ
فَيَصبُّوا اللعنَاتِ عَلَى المَيَادِين !

وَحِينَمَا يَأتِي - فِي النِّهَايَةِ - هُنَاك ،
آخِرُ أيَّامِهِم ،
صَاعِداً ، فِي فُتُورٍ ، قِمَمَ العُصُور ،
فَلَسوفَ أتَألَّقُ ، فِي الأروَاحِ المُظلِمَةِ للفَوضَوِيِّين والقَتَلَة ،
كَرُؤيَةٍ دَمَوِيَّة !

إِنّه الشُّرُوق .

فَمُ السَّمَاءِ يَنفَتِحُ أكثَر فأكثَر ،

يَحتَسِي اللّيل

رشفَةً رشفَةً ، ظَامِئاً .

تُومضُ النّوافذ .

تَنسَكِبُ الحَرَارَةُ عَبرَالزُّجَاج .

والشّمسُ تَسِيلُ ، لَزِجَةً ، عَلَى المَدِينَةِ النَّائِمةَ .

أيُّهَا الانتِقَامُ المُقَدّس !

فَلتَقُدنِي مِن جَدِيد

فَوقَ التُّرَاب

بِدُونِ خُطَى سطُورِي الشّعرِيَّة

وَأعلَى مِنهَا .

وقَلبِي هَذَا

المُترَعُ حَتَّى الحَافَّة ،

لَسَوفَ أسفَحُه فِي اعتِرَاف .

يَارجَالَ المستَقبَل !

مَن أنتُم ؟

لأبُد أن أعرِف . أرجُوكُم ،

هَا أنَا هُنَا ،

يَنسَحِقُ كُلِّي وَيئِن ،
مَسفُوعًا بِالألَم ...
فإِلَيكُم
أتركُ بُستَانَ رُوحِي العَظِيمَة .

* ١٩١٦ *

لا جديد

فَتَحتُ

بِقَلَقٍ سَاكِن

عُيُونَ جَرِيدَةِ الصَّباح .

شَمَمتُ رائحَةَ البَارُود

تَتَصَاعَد

مِن خُطُوطِ جَبهَةِ القِتَال .

لاَ أخبارَ لَنا ،

فَالعَشرُونَ السَّابِقَة ،

هِي عَاصِفَةٌ وَوَابِل .

لَم يَعُد لَدَينَا سَبَبٌ

لِلفَرَح ،

بَل وَلاَ

لِلنُّوَاح .

مِيَاهُ التَّاريخ

مُضطَرِمَة .

فِي امتِدَادَاتِهَا

سَوفَ
نَخترِق
خَطَرَ الحربِ المرِيع
كَسُفُن
تَخَتَرِقُ الأمواج
فِي البَحر .

١٩٢٧

غيمة فى بنطلون

افتتاحية :

فِكُرُكُمْ
الحَالِمُ فِى اليَقظَةِ دَاخَلَ رَأسٍ رَخْو
كَخَادِمٍ مُتخَم يَتَمَدَّدُ عَلَى أرِيكَةٍ مَن شَحْم ،
سَأستَفزُّه بمزقَةِ قَلْبِى الدَّامِيَة ،
هَازِئًا بِكُم ، مُتَهوِّراً ، حَتَّى النَّدَمِ الشَّامِلِ .

مَا مِن شَعرَةٍ رَمَادِيَّةٍ وَاحِدَةٍ فِى رُوحِى ،
وَلاَ وَهَنُ الشَّيخُوخَة !
فَصَوتَى يُرعِدُ فِى كُلِّ مَكَان
حَيثُ أمضِى - جَمِيلا .
فِى الثَّانِيَةِ وَالعِشرِينَ مِن العُمْر .

العُشَّاقُ المُرهَفُون
يَتَبَارُون عَلَى الكَمَان .
أمَّا الأجْلاَفُ فَيتَنَافَسُون عَلَى الطُّبُول .
لَكِن هَل يَسْتَطِيعُ أحَدٌ أن يَقلبَ دَاخِلَه إِلَى الخَارِجِ مِثلِى

لِيُصبِحَ لاَ شَيَ سِوَى شِفَاهٍ ، بِلاَ جَسَدٍ أو أعْضَاء .

هَلمِّى لِتَتَعَلَّمِى ،
أَيَّتُها الآنِسَة « نَاو - نَاو - نُو - فُولِنج » .
الملاَئِكيَّةُ الصَّارِمةُ كَمَا جِدَارُ الهَاوِيَة .
هَلُمُّوا أَنتُم ، أيضًا ، يَا مَن تَتصَفَّحُون الشِّفَاهَ فِى هُدُوء
كَطَاهِيةٍ تَتصَفَّحُ كُتُبَ فَنِّ الطَّهى .

لَو تَشَاءون -
يُمكِنُنِى أن أُصبِحَ مَحْضَ جَسَدٍ مَجنُون
نَقِيضًا لِلقِصَّةِ الرُّومَانسِيَّةِ الرَّقِيقَة .
أو
عَذبًا وَرَقِيقًا كَمَا تُرِيدُون ،
لَيْسَ رَجُلاً وإنَّمَا غَيْمَةً فِى بَنطَلُون .

وَأبداً لَن أُصَدِّقَ بِوُجُودِ « نِيس » المزهِرَة .
وَمِن جَدِيدٍ أُغَنِّى اليَومَ المجْد
لِلرِّجَالِ الَّذِينَ ارْتَكَبُوا الخَطِيئَةَ حَتَّى أَصَابَتهُم الرَّذِيلَة ،
وَلِلنِّسَاءِ المَزَّقَاتِ كَقِصَّةٍ بَالِيةٍ قَدِيمة .

(١)

هَل تَظُنُّون أنّه هَذَيَانُ الحُمَّى ؟ أو الملاَريَا ؟

لاَ !

حَدَثَ ذَلِك

فِي أُوديسًّا

عِندَمَا

قَالَتْ مارِي : « سَوْفَ آتِي فِي الرَّابِعَة » .

الثَّامِنَة .

التَّاسِعَة .

العَاشِرَة .

إنَّه المسَاء ،

يَرْحَلُ عَن النَّوَافِذ

كَئيبًا دِيسَمبِرياً ،

إلَى رُعبِ اللَّيل .

والثُّرَيَّاتُ ، ضَاحِكَةً فِي وَحشِيَّة ،

تُلصِقُ أضوَاءَهَا فِي ظَهرِه المُترَهِّل .

لنْ تَتَعَرَّفُوا عَلَيْ-

جَبَلٌ مِن أعصَاب

يَئِن ويَتَلَوَّى ،
وَفَكَّاه مُحكَمَا الوِثَاق .
مَاذَا يُمكِنُ لِهَيْكَلٍ مُهَدَّمٍ مِثلَ هَذَا أَنْ يُرِيد ؟
الكَثِير !

بِالنِّسْبَةِ لِي ، كَمَا تَعْرِفُون ، لاَ يُهِمُّ كَثِيراً
مَا إِذَا كُنتُ مِن البُرونْز
وَمَا إِذَا كَانَ قَلبِي مِن الحَدِيدِ وَالثَّلج .
فَفِي المسَاءِ يُرِيدُ المرْءُ أَن يُخفِي معْدَنَه
فِي شَيْءٍ مَا أُنثَوِي
رَقِيقٍ وَرَائِع .

وَهَكَذَا ،
هَائِلاً ،
مَحْنِيًا ،
أبدُو فِي النَّافِذَة ،
وَجَبهَتِي تُذِيبُ زُجَاجَهَا اللامِع .
أَسَيَكُونُ هُنَاكَ حُبٌّ أم لاَ ؟
كَبِيرٌ
أم صَغِير ؟

لاَ يُمْكِنُ أن يَكُونَ كَبِيراً بِحَجمِ هَذهِ الوَحشيَّة ،
يَجِبُ أنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ حُبٍّ قَرَابَة ،
رِعديدٍ كَمَا حَمَل ،
يَنْتَابُه الهِيَاجُ إِذ تُقَرقِعُ العَرَبَات ،
ويَفْتِنُه رَنِينُ التَّرَام .

أنتَظِرُ وَأَنتَظِر ،
وأنَا أَخبِطُ وَجْهِي
فِي وَجه المطَرِ المبَرْقَش .
الدَّقَائقُ تَتَسَابَق
وَأَنَا أَقِفُ هُنَاكَ ، مُبتَلاً
فِي رَعْدِ فَيَضَانِ المدِينَة .

مُنْتَصَفُ اللَّيل ، مُنْدَفِعًا بِالْخنجَر ،
أدرَكَ النَّهَار ،
وَطَعَنَه –
سَرِيعًا !

السَّاعَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَة
تَرَنَّحَتْ
وَسَقَطَتْ
كَرَأسِ مُجرِمٍ مَحْكُومٍ بِالإِعْدَام .

قَطَرَاتُ المطرِ المتَسَاقِطَةُ عَلَى زُجَاجِ النَّافِذَة ،
الملتَحِمَةُ فِي تَكشِيرَةٍ وَحشِيَّة ،
تَعْوِي فِي وَعِيد
كَالكَائِنِ الخُرَافِيِّ المتَجَهِّم
عَلَى « نوتْردام » .

اللَّعنَة !
أَلَم تَأتِ بَعْد ؟
وَالصَّرخَاتُ تُمَزِّقُ فَمِي –
أكثَر مِن طَاقَةِ المُقَاوِمَة .

ثُم أَسمَع :
فِي ضَعْف
كَمَرِيضٍ فِي فِرَاش
يَنْسَلُّ أحَد الأعصَاب
وَ
بِبُطءٍ فِي البِدايَة ،
زَاحِفًا فِي عَنَاء ،
ثُم رَاكِضًا
هُنَا وَهُنَاك ،

لِيَمْضِي وَمَعَه آخَران ، يَتَقَافَزُون
فِي رَقصَةِ يَأسٍ مَجنُونَة .

طَاخ ! يَتَسَاقَطُ الجصُّ مِن السَّقفِ إِلَى أسفَل .

وَالأَعْصَاب ،
مَجنُونَةً ،
تَركُضُ وَتَفِرُّ مَذعُورَةً،
صَغِيرَةً ،
وكَبِيرَةً ،
مُنفَرِدَةً وَمُزْدَوَجَة ،
تَتسَابَقُ حَتَّى تَسقُطَ ، مُنْهَكَة .

اللَّيْلُ يَتَكَاثَفُ فِي الحُجْرَةِ ، فِي هَيئَةِ مُستَنْقَع .
وعَيْنَايَ الرَّصَاصِيَّتَانِ تَلْتَصِقَان
بِوَحْلِ اللَّيل .

فَجأةً تَأخُذُ أَبْوَابُ المَمَرِّ فِي الصَّرِير
كَمَا لَو أَن أَسنَانَ الفُندُق
تَصْطَكُّ بِالرُّعْب .

وَتَدْخُلِين
حَادَّةً كَطَعْنَةِ سكِّينٍ لاَ تَخيب ،
مُعتَصِرَةً قُفَّازَكِ الجِلْدِى .
« أتَدرِى ،
إنَّنِى سَأتَزَوَّج ! » .
وَالآن ، تَحَدَّثِى عَن الحُب !

حَسَنًا . فَلْتُكْمِلِى .
لاَ ألم .
بِالطَّبْع .
أنظُرِى إلَىْ –
إنَّنِى هَادِىء
كَمَا نَبْضُ جُثَّة .

تَذكُرِين –
كُنْتِ كَثِيراً مَا تَسْألِين :
« جَاك لَندَن ،
النُّقُود ،
الحُـب ،
الرَّغبَة ،
ألَيْسَوا حَقِيقِيِّين ؟ »

وَأَنَا - كُلُّ مَا كُنْتُ أعرِفُه
هُو أنَّك الجيُوكَنْدا
الَّتِى يَشْرَعُ فِى سِرِقَتِهَا شَخصٌ مَا

وَذَلِكَ مَا حَدَث .

وَهَا مِن جَدِيدٍ ، مَعَ جُنُونِ الحُبِّ ، سَوفَ أَغْرِقُ فِى اللَّهْو ،
مُضِيئًا أَقْوَاسَ حَاجِبَىَّ بِنَارِ الجَحِيم .
لِيَكُن ،
فَالْبَيْتُ الَّذِى احْتَرَق
يُمكِنُ - فِى بَعضِ الأحيَانِ - أن يَمنَحَ المُشَرَّدِينَ المأوَى .

أتَسْتَفِزُّونَنِى ؟
« إِن الشَّحَّاذَ يُمكِنُ أن يَتَبَاهَى بِبِنسَاتٍ أكثَر
مِمَّا لَدَيكَ مِن زُمُرُّدَاتِ الجُنُون » .
هَل تَذكُرُون
المصِيرَ الذى هوَتْ إِلَيه بُومبِى
عِندَمَا استَفَزَّ البَشَرُ « فِيزُوفَ » حَتَّى الغَضَب ؟

أنتُم ،
أيُّها السَّادَة ،

يَا هُوَاةَ انْتِهَاكِ المحَرَّمَات ،
والقَتْل ،
والجرِيمَة ،
أرَأَيْتُم مَا هُوَ أكثَرُ رُعْبًا مِن الرُّعْبِ -
وَجْهِى عِندمَا يَكُونُ هَادئًا ؟

أشعُر
أنَّ « أنَا »
صَغِيرَةٌ جداً عَلَىْ ،
إنِّنِى أتَحَوَّلُ - بِصُورَةٍ قَاهِرَةٍ - إلَى شَخصٍ أو آخَر .

« هَاللُّو !
مَن الَّذى يَتَكَلَّم ؟
مَن ؟
أمِّى ؟

أُمِّى !
ابنُكِ مَرِيضٌ بِصُورَةٍ رَائِعَة .
لاَ وَقتَ للانتِظَار .
فَقَلبُه يَحتَرِق
اذهَبى ، وَأَخبرِى أُخْتَيْه بِذَلِكَ سَرِيعًا !

وإلاَّ ، فَرُبَّمَا تَأَخَّرَ الوَقْت .
فَكُلُّ كِلْمَة ،
حَتَّى وَإن كَانَت مزحَة ،
يَنفُثُهَا فَمُه المُلْتَهِبُ ، يَا أُ مِّي،
تَنْطَلِقُ كَبَغِيٍّ عَارِيَةٍ خِلاَلَ دُخَانٍ
مَبْغًى يَحْتَرِق .

وَالنَّاسُ يَتَشَمَّمُون -
شَيْءٌ مَا يُشوَى .
وَالفِرقَةُ تَأتِي فِي الخَوذَات
ومَلابِس
الإطفَاء .

انْتَبِهُوا لأحذِيَتِكُم ، أَيُّهَا السَّادَة . يَا رِجَالَ الإِطفَاء .
يَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَ القُلُوبِ المحتَرِقَة بِحَنَان !

انْتَظِرُوا ،
سَأُحَوِّلُ عينَيَّ الدَّامِعَتَيْنِ إِلَى حَوضَيْ مَـاء .
دَعُونِي - فَحَسب - أَستَعِيدُ السَّيطَرَةَ عَلَى ضُلُوعِي .
اسْتَعِدُّوا ، سَأَهْرُبُ ، رَغمَ أَنَّ الهُرُوبَ عَذَاب .
وَيَنهارُ كُلُّ شَيْءٍ !

وَهَذَا القَلبُ يَعتَصِرُنِى بِعُنفٍ فِى قَبضَتَيه .

مِن بَيْنَ شَفَتَىَّ
المُطبِقَتَيْنِ بِإِحكَامٍ كَبَابٍ مُتَفَحِّم
تُقَاوِمُ قُبْلَةٌ صَغِيرَةٌ - هِيَ الأَخِيرَةُ النَّاجِيَة .
أُمِّى ، لَم أَعُد قَادِراً عَلَى الغِنَاءِ مِن جَدِيد :
فَالدُّخَانُ يَخنقُ جُوقَةَ رُوحِى .

الكَلِمَاتُ وَالعِبَارَاتُ المتَفَحِّمَةُ مِن كُلِّ نَوعٍ وَحَجم
تَقفِزُ مِن جُمجُمَتِى المحتَرِقَةِ إِلَى بَرِّ الأَمَان .
هَكَذَا الرُّعبُ عِندَمَا مَدَّ أَيَادِيه المحرقَةَ إِلَى السَّمَاء
مِن سُطُوحِ « لُوزِيتَانِيَا » المبْقُورَةِ بِالنَّار .

وَيَندَفِعُ وَهَجُ النَّارِ بِمَائَةِ عَينٍ مِن المرَافِئ
إِلَى النَّاسِ المرتَعِدِين
فِى هُدُوءٍ أَلِيف .
فَهَا أَنت ،
يَا صَرْخَتِى الأَخِيرَةَ :
« إِنَّنِى أَحْتَرِق ! »
تَنطَلِقِينَ فِى أَنِين ،
لِلقُرُونِ القَادِمَة .

(٢)

مَجِّدُونِى !
مَا هُوَ الأعظَمُ ، بِالنِّسبةِ لِى ؟
إنِّنِى أضَعُ فَوقَ كُلِّ الموجُودَات
هُرائِى :

القِرَاءَة ؟
إنَّهَا - بِالذَّاتِ - الفِكرَةُ الَّتِى أمقُتُهَا .
الكُتُب ؟
أىُّ مَلَل !
لَقدَ كُنتُ أظُن
أنَّ الكُتبَ قَد صُنِعت عَلَى هَذَا النَّحْو :
يَأتِى الشَّاعِر ،
وَيَفتَحُ مَغَالِيقَ شَفَتَيْه فِى يُسْر
وَيُغَنِّى ، المغَفَّلُ القَديمُ الملهَمُ ، فِى الحَال -
مِن فَضلِكُم !

لكِن فِى الوَاقِع ،
وَقَبْلَ أن يبدأ الغِنَاء

فَإنكَ تَتَمَشَّى ، مَسْكُونًا بِالتَّوتُّر ،
فِيمَا تَتَخَبَّطُ فِي طَمْيِ القَلْب
تلكَ السَّمَكةُ الحَمْقَاءُ - الخَيَال .

وَيَشْوِي الأحْمَقُ الخَرِفُ فِي وِعَائِهِ
اليَمَامَ وَالعَنْدَلِيبَ ، مُتبِّلِينَ بِالقَوَافِي ،
بَيْنَمَا الشَّارِعُ يَتلوَّى فِي إيمَاءٍ أخْرَس
بِلاَ شيءٍ يَصْرُخُ بِهِ أو يَنطِق .

مُختَالِين ، نَبنِي ثَانِيَةً وثَانِيَةً
مُدُنَنَا - أبرَاجَ بَابِل ،
ثُم يَأتِي الرَّب
وَيَهدِمُ المدِينَةَ عَلَى الحَقلِ
فَيَخْلطُ الكَلمَات إلَى هَذَيَان .

وَيَرتَمِي الشَّارِعُ تَحتَ وَطأَةِ الألَم ، صَامِتًا ،
وَصَرخَتُه
مُحتَبسَةٌ ،
كَمَا لَو أنَّ حنجرَتَه مَنزُوعَة .
وَالتَّاكسِيَّاتُ المنتَفِخَةُ وَالعرَبَاتُ الهَزِيلَة
تَتَسَمَّرُ ، عُدْوَانِيَّةً ، مِثلَ كِمَامَةٍ عَلَى فَمِه .

وَالصَّدرُ مُثقَلٌ بِالسَّائِرِين
- لاَ شَرهُ أكثرَ بَدَانَة -
يَستَلقِى الطَّرِيقُ ، يُوصِدهُ ظَلاَمُ المَدِينَة .
وعِندَمَا يُزِيحُ - كَيفَمَا اتُّفِق ! - شُرفَةَ الكَنِيسَةِ ، التِى تَدُوسُ حنجرَتَه ،
فَيصَفَع الزِّحَامَ فِى السَّاحَة ،
يَبدُو الرَّبُّ المسْلُوبُ ، مَعَ جُوقَتِه مِن المَلاَئِكَةِ
التَّابِعِين ،
نَازِلاً بِهرَاوَةِ العِقَاب .

لَكِنَّ الشَّارِعَ يَصِيحُ مُقْعِيًا
« هَلُمُّوا - نَلْتَهِم - الوَلِيمَة ! »
وَرِجَالُ الماكيَاجِ الغِلاَظُ ، آلُ كُرُوب وَأَشبَاهُهُم ،
يَرْسُمُون عَلَى وَجْه المدِينَةِ تَكْشِيرةً وَحْشِيَّة ،
فِيمَا تَتَمَدَّدُ الكَلِمَاتُ عَلَى الشِّفَاه - جُثَثًا مُتَعَفِّنَة ،
لَم يَبقَ حَيًّا غَير كِلمَتَيْنِ تَترهَّلان -
ابنُ زِنًا
وَأُخْرَى أَظُنُّ أنَّهَا
حِسَاءُ الكُرُنْب .

وَالشُّعَرَاءُ ، غَارِقِينَ فِى الدُّمُوعِ وَالنَّشِيج ،
يَتَقَاذَفُهُم الشَّارِعُ ، مُشَعَّثِى الخُصلاَت :

« كَيْفَ يُمكنُنَا
بمِثلِ هَاتَيْنِ الكلْمَتَيْن
أن نُغَنّي زُهُورَ الرَّبيع
والحُبَّ وأثوابَ النِّسَاءِ القُرنْفُلِيَّة ؟ »

وَخلفَ الشُّعَراء –
أُمَّةٌ مِن أبنَاءِ الشَّوارِع :
طَلَبَةٌ ،
وَعَاهِرَاتٌ ،
وَمُقَاوِلُون .

أيُّهَا المواطِنُون !
كَفَى !
لماذا هَذَا الإذْلال ؟
كَيْفَ تَتَسَوَّلُونَ مِنهُمُ الإحْسَان ؟

نَحْنُ ، الرِّجَالُ الأشِدَّاءُ الأقْوِيَاء ،
الطَّيِّبُون ،
أتَتَسَوَّلُونَ من أجْلِنَا ؟ فَلْتُمَزِّقُوهُم ،
هَؤُلاءِ الملتَصِقُون كَمُلحَقٍ صَحَفِيٍّ مَجَّانِي

بكُلِّ سَرِيرٍ مُزْدَوَج !
أنَسألُهُم الوِصَال ؟
وَنَنتَظِرُ حَتَّى الموَافَقَة ؟
أنَتَسَوَّلُ خُطبَةً أو نَشِيداً مِن النُّظَّامِينَ الأقزَام ؟
إنَّنَا أنفُسَنَا
مُبدِعُون فِي نَشِيدٍ مُشتَعِل –
فِي زَئِيرِ المصَانِعِ وَالمعَامِل .

مَن هُو « فَاوست » إزَائِي ،
حَتَّى وَهو يَنطَلِقُ مَعَ « مفيستُوفيلِيس »
خلاَلَ الألعَابِ النَّارِيَّةِ السَّمَاوِيَّة ؟
إنَّنِي أعرِف
أنَّ مِسمَاراً فِي حِذَائِي
أكثَر تَروِيعًا مِن خَيَالاَتِ جُوتَه .

أنَا ، صَاحِبُ اللِّسَانِ الذَّهَبِي ،
مَن تَمنَحُ كُلُّ كلمَةٍ مِنِّيٍّ
حَيَاةً جديدةً للجَسَد ،
ومِيلاداً جَدِيداً للرُّوح ،
أقُولُ لَكُم ،

إنْ أُصْغَرَ ذَرَّةٍ حَيَّةٍ
أثْمَنُ مِن كُلِّ ما كَتَبْت
- مِن الكُلْ !

أنصِتُوا !
فَزرَادشْت ذُو الفَمِ الصَّارِخ
يُلقِي عِظَةَ اليَوم ،
مُجَدِّفًا ولاَعِنًا .

وَنَحْنُ ، بِشِفَاهٍ مُتَدَلِّيةٍ كَثُرَيًّا ،
بِوُجُوهٍ كَجِبسٍ مُتَّسِخ ،
نَحْنُ ،
العُصبَةَ المقَيَّدَةَ فِي مَدِينَةٍ كَمُستَشْفَى الجُذَام
حَيْثُ الذَّهَبُ وَالقَذَارَةُ يُوَلِّدَانِ الدَّاءَ البَشع -
نَحْنُ أكْثَرُ نَقَاءً مِن فِينِيسيَا بِكُلِّ نَقَائِهَا
وَقَد اغْتَسَلَتْ وَتَحَمَّمَت فِي الشُّمُوسِ وَالبِحَار .

وَمَا يُزْعِجُنِي كَثيراً
أنَّ أُوفِيد وهُومَر
لَيس لَدَيْهِمَا رِجَالٌ يُشبِهُونَنَا ،

مُلطَّخُون بِالفَحْمِ والسُّخَام .
إِنَّنِي أعْرِف ،
أَنَّ الشَّمْسَ رُبَّمَا تَذوِي
لَو شَهِدَتْ أعمَاقَ أرواحِنَا الذَّهَبِيَّة .

لاَ صَلاَةَ أكْثَرَ صِدقًا مِن العَضَلات والعُرُوق .
فَانْدَفِعُوا إِلَى الكِفَاحِ المرير .

نَحْـنُ –
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا –
نُمسِكُ فِي أكُفِّنَا
بِخُيُوط تَحَوُّلِ العَالَم !
كَانَ ذَلِك مَا قَادَنِي إِلَى جُلْجُثَاتِ المنَابِرِ
فِي القُرَى والمدُن ، فِي الأعَالِي والمنخَفَضَات ،
ولَم يَكُن هُنَاكَ مَن لَم يَصرُخ
وَمنخَرَاه مُتَّسِعَان ،
« أُصْلُبوه !
« أُصْ – لُ – بُ – و – ه ! » .

غَيْرَ أَنَّكُم بِالنِّسبَة لِي ،
أيُّهَا النَّاس

أنتُم وَأُولَئِكَ الأكثَرُ قَسوَةً ،
أكثَرُ قُربًا وَمَودَّةً ، بلاَ حُدُود .
أرَأَيتُم الكَلبَ فِي السَّاحَة
وَهوَ يَلعَقُ اليَدَ التِي تَضرِبُه ؟

أنــا ،
مَن يُثيرُ قَهقَهةَ القَبيلَةِ المعَاصِرَة ،
كنُكْتَةٍ طَوِيلَةٍ وَفَاحِشَة ،
أرَى الآتِي عَبرَ جِبَالِ الزَّمَن
أرَى مَا لَم يَرَه بَعدُ أحَد .

وَحَيْثُ تَتَوَقَّفُ عُيُونُ البَشَرِ ، قَاصِرَةً ،
عِندَ رَأْسِ الحُشُودِ الجَائعَة ،
فَإِنَّنِي أرَى مِن بَعِيد
عَامَ ١٩١٦ يَقتَرِبُ وَئِيداً
مُتَوَّجًا بِأكَالِيلِ الثَّورَة .

وَأنَا بَيْنَكُم
لأكُونَ رَسُولَه ،
فِي كُلِّ مَكَانٍ حَيْثُ يَكُونُ الألَم ،
مَعَ كُلِّ قَطرَةِ دَمْعٍ تَسقُط

مُتَوَهِّجَةً بِالخَطَر ،
أُصْلَبُ مِن جَدِيدٍ ، مِن جَدِيد .

فَاتَ اليَومَ أَوَانُ الغُفرَان .
فَقَد أَشعَلتُ نُفُوسًا كَانَت تَسكُنُهَا الرِّقَّة .
وذَلِكَ أَكْثَرُ صُعُوبَة
مِن أَن تُحَطِّم مَائَةَ أَلف بَاسْتِيل .

وَحِينَمَا
يَجِيء
مَعَ تَهَالِيلِ الثَّورَة ،
وَتَندَفِقُونَ لِتَلْتَقُوا بِالمخَلِّص ،
فَسَأَستَلُّ رُوحِي
رَايَةً كَبِيرَةً مُخَضَّبَةً مُشْتَعِلَة
لِتَرْفَعُوهَا عَالِيًا

(٣)

آه لِمَــاذَا ،
تَنْدَفِعُ القَبْضَاتُ القَذِرَةُ وَالوَحْشِيَّة
خِلاَلَ الابْتِسَامِ وَالمَرَح ؟

إنَّ فِكرَةَ مُستَشْفَى المجَانِين
تَطْعَنُنِى
فَتُعْمِينِى بِاليَأْسِ وَالغَثَيان .

وَ
تَمَامًا مِثلَمَا يَقْفِزُونَ
إلَى أَبْوَابِ النَّجَاةِ الفَاغِرَةِ ،
تَخْنقُهُمْ تَشَنُّجَاتُ الرُّعْب
عِنْدَمَا تَقْتَرِبُ سَاعَةُ هَلاَكِ السَّفِينَة .
هَكَذَا كَانَ يَبْحَثُ « بِيرليُوك » ، فَاقِدَ العَقلِ ، عَنْ مَهْرَب
خِلاَلَ ثُقْبِ عَيْنِه الذِي مَزَّقَه الرُّعَب .

وعَن أجْفانِه الَتِى أَتْلَفَها الدَّمْع ،
دامِيَةً وَبشِعَة ،
نَهَضَ وَئِيداً ،
وأَقَامَ عَمُودَه الفَقْرِى
وبِرِقَّةٍ غَيرِ مُتَوقَّعَةٍ مِن بَدِينٍ مِثْلِه
صَاح ،
« رائِع ! » .

رائِعٌ أن تَلْتَفَّ رُوحُك

فى قَميصٍ أُصْفَر - آمِنًا مِن العُيُونِ المتطَفِّلَة .
رائعٌ أَنْ يَصْرُخَ مَن يُلْقَى بِهِ إِلى أَنْيَابِ المِشْنَقَة :
« اشْرَبُوا كَاكَاو فَان هُوتِين ! » .

تِلْكَ اللَّحْظَةُ المرْعِدَة ،
المُضِيئَةُ أَكْثَر مِن الألعَابِ النَّارِيَّة
لَن أُبَادِلهَا بِأَىِّ شَىء ،
بِأَىِّ شَىءٍ ، أَبَدًا ...

وَلَكِنْ هَا هُوَ وَجْهُ « سِيفرِيَانِين » الَّذِى تَبَلَّدَ بِالسُّكْر ،
يَطْلُعُ كَكَأْسِ خَمْر ،
خِلاَلَ دُخَانِ السِّجَارِ .

كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى أَنْ تَحْملَ لَقَبَ شَاعِر
وَتُزَقزِق مِثل عُصْفورٍ رَتِيبٍ وَغَبِى ؟
فَاليَوم ، وكَإِبْرِيقِ خَمْر ،
يَجِبُ أَنْ تُسْحَقَ جُمجُمَةُ العَالَمِ العَفِنَة .

وأَنْتُم ،
يَا مَنْ يُقلقُكُم الشَّكُّ الوَحِيد
فِيمَا إِذَا كُنْتُم تَرْقُصُون فِى رَشَاقَةٍ أَمْ لاَ ،

انْظُرواْ كَيْفَ
أُسَلِّى نَفْسِى ،
أَنَا ، الصَّرِيحُ ،
الصُّعْلُوكُ ، غَشَّاشُ القمَارِ والقَوَّاد .

بَعِيداً عَنْكُمْ ، أَيُّهَا المسْتغرِقُونَ فِى أَناشِيدِ اللَّوعَة ،
بَعِيداً عَنكُمْ ، أَيُّهَا الغَارِقُون فى الدُّمُوعِ منْذُ بِدَايَةِ الزَّمَن ،
سَوْفَ أَمْضِى ،
مُتَّخِذاً الشَّمْسَ نَظَّارَةً
عَلَى عَيْنَىَّ المفتُوحَتَيْن عَنْ آخِرِهِمَا .

وَهَكَذَا ،
مُرْتَدِيًا ثِيَابِى الغَرِيبَة ،
سَوْفَ أَمْضِى خِلاَلَ العَالَم
لأُثِيرَهُ وأَفْتِنَه ،
وَأَنَا أَقُودُ نَابليُون أَمَامِى
كَكَلْبِ زِينَةٍ فِى سِلْسِلَة .

وسَوْفَ يَتَمَدَّدُ العَالَمُ كَامْرَأَةٍ عِندَ أَقدَامِى
وَيُرعِشُ مَفَاتِنَهُ فِى إِغْرَاء .
والأشياءُ الميِّتةُ سوفَ تَعُودُ إلى الحَيَاة

وَسوفَ تَلْثَغُ الشِّفَاهُ فِي إِثَارَة :
« حَبِيبِي ، يا فَاتِنِي ! » .

فَجْأَةً ، تَنْطَلِقُ الغُيُوم
حتَّى الغيمَةِ الأخيرَةِ الصَّغيرَةِ
فِي الدُّوارِ إِلَى أَقْصَى مَا تُدْرِكُهُ العَيْن ،
كَعُمَّالٍ بِيضٍ يُطَوِّقُون السَّمَاء ،
بَاحثِينَ عَن مَنفَذ
لِغَضَبِهِم .
وَيَنحَدِرُ الرَّعْدُ ، مَجْنُونًا ، مِن الغَيْمَة ،
يَشْهَقُ وَيَتمَخَّطُ فِي حِدَّة ،
وَلِبُرْهَةٍ يُقَطِّبُ وَجْهُ السَّمَاء
تِلكَ التَّقطِيبَةَ الرَّهِيبَةَ لِبِسمَارِكِ الحَدِيدِي .

وشَخْصٌ مَا
يَتَخَبَّطُ فِي مَسَالِكِ الغُيُوم
وَيَمُدُّ ذِراعَيْهِ إِلَى المَقْهَى ،
رَقِيقًا نَاعِمًا
وَخَشِنًا ، فِي نَفْسِ الوَقْتِ ، كَعَرَبَةِ مِدفَعْ .

أَتَظُنُّونَ أَنَّهَا الشَّمْس ،

تُربّتُ على خدِّ المقهى ،
مُرتعشةً في أُمومة ؟
لاَ شَيْءَ مِنْ ذلك !
إنَّهُ الجنْرَالُ « جالليفيه » يتقدّم
من جَدِيدٍ ، لِيُطْلِقَ النَّارَ عَلَى المتمرِّدين !

أيُّهَا المُتنقِّلون بيْنَ الحانَاتِ ، أخْرِجُوا أيْدِيكُمْ من جُيُوبِ بَنْطلونَاتِكُم .
وانْتَزِعُوا القَنَابِلَ ، أو الأحْجَارَ ، أو السكّاكين ، أو مَا شَابَه ،
أمَّا هؤلاءِ الّذِينَ لاَ يَمْلِكُونَ أسْلِحَةً وأيْدِي
فَلْيَضْرِبُوا رُؤُوسَهُمْ فِي الحَائِطِ !

أيُّهَا الخَائِفُونَ ، تَعَالَوْا ،
أيُّهَا الجَائِعُون ،
أيُّهَا المتعَبُون ،
أيُّهَا المتقيِّحُونَ في بَشَاعَةِ البَرَاغِيث !
فَلْتتخَضَّب بِدَمِنَا أيامُ الاثْنَيْنِ والثُّلاثَاءِ والأرْبعَاءِ
إلى أيَّامِ العُطْلات .

ولْتَتذكَّر الأرْضُ تَحْتَ السكَّاكِين
مَنْ أرَادَتْ أنْ تُذلَّه ،
الأرْض ،

المُنْتَفِخَةُ كالزَوْجَاتِ والعَشِيَقاتِ
اللاتِي تَزَوَّجَهُن وهَجَرَهُنَّ آلُ رُوتشِيلْد .

تَعَالَىْ ، يَا أعْمدَةَ القَنَادِيلِ ، ارْفَعِي عَالِيًا ،
جُثَثَ التُّجَّارِ الْمُلَطَّخَةَ بِالدِّماء ،
كَرَاياتٍ تُرَفرِفُ فى حُمَّى النَّار ،
مِثْلَمَا فى المُنَاسَبَاتِ الهَامَّة !

وفِيمَا يَسْتَجْدُونَ الرَّحْمَة ،
بِأيْمَانٍ من كُلِّ الأشْكَال ،
يَتصَارَعُونَ ، مُتَقَاتلِينَ بِالْمِخْلَبِ والسِّكِّين .

ويَتَشَنَّجُ الغُرُوب ،
أحْمرَ كَالمَارسِيليز ،
مُرْتَحِلاً عَن الحَيَاة .

حَقًّا ، إنَّهُ الجُنُون .

لاَ شَيْءَ آخرَ يُمْكِنُ أن يَحدُث .

سَوْفَ يَأْتِى اللَّيْل ،

فيَقْضِمَهُ ،
وَيبتَلِعَه .

انظُرُوا - فَالسَّمَاءُ ، كَمَا يَهُوذَا ، سَعَيدَة
بِحفنَةٍ مِنْ نُجُومٍ ، خَائِنَةٍ وكَاذبة .

يَأْتِى
ويُقيمُ الوَليمَةَ كَمَا « مَامَاى » ، بَل أكثرَ فَظَاعَة .
جَاثمًا بِمُؤَخِّرَته الهَائلَة عَلَى المدينَة ،
ذَلكَ اللَّيْلُ - لاعَينَ على الأرضِ يُمكنُهَا اختراقُه
فهو أكثر سَواداً مِن « أَزيف » ، أَكْثرُ صنْفه سَوَاداً .

مُتَشَنِّجًا ، أُقْعِى فِى رُكْنِ الصَّالَة ،
أُريقُ الخَمْرَ عَلَى رُوحِى ، عَلَى غطَاءِ المائدَة وكُلِّ شَىْء ،
بَينَمَا هُنَاك ، إلى أعْلَى ، مُسْتَديرَةً كالْقَمَر ،
تَنْفُذُ عَيْنَا العَذْرَاءِ إِلَى رُوحِى .

لماذَا تُبَاركِينَ هَذَا القَطيعَ النَّتِنَ ، الزَّاحِفَ بَيْنَ الخَمَّارَات
بِهَالَتك المُبَهْرَجَة المُعتَادَة ؟
ألاَ تَرَيْنَ ،
إنَّهُمْ ، مِن جَديد ،

يُؤثِرُون « بَارَابَاس »
عَلَى سَيِّدِنَا الكَرِيمِ المَصلُوب ؟

رُبَّما كَانَ الأمْرُ كَذَلك –
فَفِي الحَظِيرَةِ الإنْسَانِيَّة
لَيْسَ وَجْهِي أكْثَرَ جِدَّةً مِن الآخَرِين ،
وَلكَنْ مِنْ بَيْنِ أبْنَائِكِ جَمِيعًا
رُبَّمَا كُنْتُ أنَا
الأكْثَرَ إخْلاَصًا ، وَالأفْضَلَ ، وَالأجْمَل .

فَامْنَحِيهِمْ ،
هَؤُلاءِ المُتَعفِّنِينَ فِي اللَّهْوِ الدُّنيَوِي ،
المَوْتَ السَّرِيعَ للزَّمَن
لِيَقْفِزَ الأوْلاَدُ إلَى صَدْرِ الأبُوَّة
وَالبَنَاتُ إلى الأمُومَة
وَالمَوْلُودُون حَدِيثًا
إلَى حِكْمَةِ العَجَائِزِ ذَاتِ الشَّعْرِ الرَّمَادِي
ويُعَمِّدُونَ أبْنَاءَهُم
بِمَا يَجِدُونَ فِي صَفَحَاتِي مِنْ أسْمَاء .

فَأنَا ، مَنْ يُمَجِّدُ انجلترا وَآلاَتِهَا ،

ربَّمَا كُنْتُ ، بِبَسَاطَةٍ ، الحَوَارِيَّ الثَّالِثَ عَشَرْ
فِي سِلْسِلَةِ الحَوارِيِّينَ والملائِكَة
التِي تَسْكُنُ الإنْجِيلَ المُقَدَّس .

وعِنْدَمَا يَنْطَلِقُ صَوْتِي
هَادِراً فِي دعَارَة
بِهُرَائِه
الدَّائِم لَيْلَ نَهَارْ ،
فَلعَلَّ يَسُوعَ المسِيحَ نَفْسَه
يَتَنسَّمُ « لاَ تَنْسَنِي » المُزْهِرَةَ فِي رُوحِي .

(٤)

مارِي ! مارِي ! مارِي !
دَعِينِي أدخُلُ ، يَا مارِي .!
لاَ تَتْرُكِينِي فِي الشارِع .
لاَ ؟
أتنتَظِرِينَ إلَى أنْ يَغُورَ خَدَّاي ،
إلَى أن أنْتَهِي ، وَقَدْ نَالَنِي الجَمِيع ،
إلَى البَوَار ؟ -
إلَى أن آتِي لأُغَمْغِمَ فِي ابتِسَامةٍ جَرْدَاء
بأنِّي

« اليَوم
طَاهِرٌ تَمَامًا » ؟

ماري ،
أتَرَيْن –
هَا قَد بَدَأتُ أشِيخْ .

وَعَلَى طُولِ المدِينَة ،
وَفِي كُلِّ مَكَان ،
سَوْفَ يَدُسُّ النَّاسُ ، مُنْتَفخِين
فِي أحْشَاءِ الطَّوَابِقِ الأربَعَةِ للمَبَانِي ،
عُيُونَهُمْ خِلاَلَ شُحُومِهِمْ ،
العُيُونَ البَالِيَة ،
مَعَ أرْبَعِينَ عَامًا مِن البِلَى
لِيُقَهْقِهُوا ويُطْلِقُوا التَّخْمِينَ الصَّائِب
أنَّهُ « مِن جَدِيدٍ يَلُوكُ كَفَرسٍ خَائِبَة
كِسْرَةَ الخُبْزِ المُهْتَرِئَةَ لِعنَاقِ الأمْس » .

عَلَى طُولِ الأرْصِفَةِ يَهْمِي المطَر ،
مُحَاصِراً بِالْبِرَكِ الصَّغِيرَة ، لِصًّا شَرِيداً ،
مُبْتَلاً ، وَهْوَ يَلْعَقُ الطُّرُقَ الصَّخرِيَّةَ حَتَّى الموْت

فِيمَا عَلَى أَهْدَابِه الشَّائِبَة -
انْظُرِى ! -
عَلَى أَهْدَابِه الثَّلْجِيَّةِ المتَجَمِّدَة
دُمُوعٌ تَنْحَدِرُ مِنْ عَيْنَيْه ،
مِنْ عَيْنَىْ أَنَابِيبِ تَصْرِيف المِيَاهِ الخَفِيضَةِ - دُمُوع ! -
تَأْتِى مُتَدَفِّقَةً فِى انْدِفَاعَاتٍ مُتَقَطِّعَة .
وَتَلْعَقُ قَطَرَاتُ المطَر كُلَّ مَار
بَيْنَمَا فِى العَرَبَات
يَتَأَلَّقُ رِيَاضِىٌّ وَرَاءَ رِيَاضِىٍّ بَدِين
وَيَنْفَجِرُون ، إِذْ تَرَعْرَعُوا مُتْرَفِين أَقْوِيَاء ،
يَنِزُّونَ خِلاَلَ الفَتَحَات شَحْمًا
مَمْزُوجًا بِآثَارِ الغَضَارِيف .
وَيَنْسَابُ لَونُ الوَحلِ فى جَدَاوِلَ صَغِيرَة ،
مَعَ الخُبزِ المنقُوعِ فى اللُّعَابِ وَالكُرُنبِ المطْبُوخ .
كَنَوعٍ مِن المضغَةِ المعجُونَة
لتَأْتِى « الكُستَلِيتَة » المتَبَقِّيَةُ مِن الأُسْبُوعِ السَّابِق .

مارِى !

كَيْفَ نَحْشُرُ كَلِمَةً خَافِتَةً فِى آذَانِهِم المسْدُودَةِ بِالشَّحْم ؟
فَالطُّيورُ تَتَسَوَّلُ الحَيَاة

بِالغِنَاء ، الرَّنَّان .
وَأَنَا مَحضُ إِنسَانٍ ، يَا مارِي ،
مَحْضُ إِنْسَانٍ ، يَبْصُقنِي اللَّيْلُ المصْدُور
إِلَى تَيَّارِ « برِيسْنِيَا » القَذِرِ .

مارِي ، أَتُرِيدِينَ رَجُلاً كَهَذَا ؟
دَعِينِي أَدْخُلُ ، يَا مارِي ،
وَإِلا ، فَبِأَصَابِعَ مَسْعُورَة
سَوفَ أُضغَطُ عَلَى جَرَسِ البَابِ ، إِلَى أن يَختَنِق .

مَارِي !
حَظَائِرُ الشَّوَارِعِ تَغدُو أَكْثَرَ وَحْشِيَّة .
وَأَيْدِي الرِّعَاعِ الخَانِقَةُ تُحْكِمُ قَبْضَتَها عَلَى رَقَبَتِي .

افْتَحِي !

ذَلِكَ أَلِيم !
انْظُرِي – إِنَّ عَيْنَيَّ تَمتَلِئَان
بِدَبَابِيسِ شَعْرِ النِّسَاء .

هَا ! لَقَد فَتَحَت .

عَزيزَتي ، لاَ تَخَافِي
أن عَلَى عُنُقِي الشَّبِيه بِعُنُقِ الثَّوْر
تَجْلِسُ نِسَاءٌ عَارِقَاتُ البُطُونِ فِي جَبَلٍ مُبْتَلِّ الحوَاف –
عِبءٌ سَوْفَ أَجُرَّهُ إِلَى أنْ أصْبِحَ حُطَامًا :
مَلاَيِينُ حُبٍّ عَظِيم
نَقِيٍّ بِلاَ شُبهة
ومَلاَيِينُ مِن الغَرَامِيَّاتِ الصَّغِيرَةِ وَالقَذِرَة .
فَلاَ تَخَافِي أبَداً ، عَزِيزَتِي ،
أن أتَعَلَّق ثَانِيَةً بِألْفِ وَجْهٍ جَمِيل
فِي نَوبَاتِ الخِيَانَة .
فَعَاشِقَاتُ مَايَاكُوفْسكِي –
لاَ ، إنَّهَا سُلاَلَةٌ مَلَكِيَّة
تَرْتَقِي إِلى العَرْشِ قَلْبًا مَجْنُونًا .

مارِي ! اقْتَرِبِي أكْثَر !

فِي عُرْيٍ بِلاَ حَيَاء
أو فِي رُعْبٍ مُرْتَعِش ،
امنَحِينِي فِتنَةَ شَفَتَيكِ التِي لاَ تَخبُو .
فَأنَا وَقَلْبِي لَم نَرَ أبَداً بَهْجَةَ مَايُو ،
فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيرُ قَذَارَةِ أبرِيل الفَجَّة .

ماري !

هُناك شَاعِرٌ يُغَنِّي سُونَاتَات إلى تيَانَا

بَيْنَمَا أنَا ،

وكُلِّي إنْسَاني ،

من لَحْمٍ ودَم ،

أتوسَّلُ ، فَحَسب ، منْ أجْل جَسَدِك

كَالمَسِيحيِّين من أجْلِ عطائِهِمْ :

« أبَانَا ، أعطنَا

خُبْزَنَا اليَوْمي

هَذَا اليَوم ! » .

ماري !

أعْطِيني !

ماري !

أخَافُ أن أنْسَى اسْمَك

كَمَا يَخَافُ الشَّاعِر

أنْ يَنْسَى كلمَةً مَا

عثَرَ علَيهَا في التَّوِّ ، لَمْ يَلحَقهَا بَعدُ الجَفَافُ والابْتِذَال ،

عَظَمَتُهَا مُسَاوِيَةٌ لِعَظَمَة الإله .

مارِي !
جَسَدُك
سَوْفَ أُحِبُّهُ وَأَرْعَاه
كَمَا جُنْدِي ،
عَوَّقَتهُ الحَرب ،
يَرْعَى سَاقَهُ الوَحِيدَة ،
لاَ ، بَل أكثَر !

لاَ ؟
لاَ تُرِيدِين ؟

هَــا !

وَهَكَذَا سَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ آخُذَ قَلْبِي مِن جَدِيد
وَأَحمِلَه ، دَامِعًا ، وَحِيداً مَرَّةً ثَانِيَة ،
كَكَلب
يَمْضِي حَامِلاً قَدَمَه
الَّتِي سَحَقَهَا قِطَار .

هَا أَنَا أُبَارِكُ الطَّرِيقَ بِالمَاءِ المُقَدَّسِ لِدَمِي .
وَأَزهَارُه الدَّبِقَةُ تُقَبِّلُ تُرَابَ ثَوْبِي .
وَلأَلْفِ مَرَّةٍ سَوْفَ تَرقُصُ الشَّمْسُ - ابنَةُ هِيرُود -

حَولَ الأَرْضِ - رَأْسِ المِعْمَدَان .

وحِينَمَا تُنهِي رَقْصَتَهَا الأخِيرَة
فِيمَا تَمْتَدُّ سَنَوَاتُ عُمْرِي المقدَّرَة
خَيْطًا مِن مَلاَيِين قَطَرَاتِ الدَّم
إِلَى بَيْتِ أَبِي ، فإِنَّنِي سَأَمْضِي وَرَاءَه .

سَوْفَ أَزْحَفُ مِن قَبْرِي ،
مَطْمُوراً فِي اللَّيَالِي التِي قَضَيتُهَا فِي الخَنَادِق ،
أَعْقِدُ العَزْمَ وَأَقُول ،
مُشَمِّراً بَنْطَلُونِي :

اسْمَعْنِي ، أَيُّها السَّيِّد (...) ؟
أَلاَ تَشْعُرُ بِالضَّجَر
وأَنْتَ تَغْمِسُ العَيْنَين الرَّخْوَتَيْن كُلَّ يَوْم
فِي هُلاَم الغُيُوم ؟
أتدرِي مَاذَا -
دَعْنَا نُرَتِّب جَولَةً لَطِيفَة
فِي شَجَرَة مَعْرِفَةِ الفَضِيلَةِ والرَّذِيلَة !
فَبِاعْتِبَارِكَ كُلِّيَّ الوُجُودِ ، سَوْفَ تَمْتَلِئُ بِكَ صَنَادِيقُ الخُبْز
وسَنَضَعُ هَذِهِ الخُمُورَ عَلَى المِنْضَدَة

لأنَّ « سَان بيتر » سَيُوَلِمُه أَنْ يَرْقصَ ال « كِي - كَا - بُو » ،
مُتحَسِّراً عَلَى الزَّمَنِ الَّذِي كَان يَستَطِيعُ فيه أَن يَرْقُصَهَا .
وَسَنَمْلأُ الجَنَّةَ مِن جَدِيدٍ بِالنِّسَاء ،
فَلْتَقُلْهَا ، وَفِي نَفْسِ هَذه اللَّيْلَةِ
سَآتِي لَكَ بِمَا لَمْ تَرَهُ مِنْ أَجْمَلِ الفَتَيَاتِ
مِن شَارِعِ « تفَارسكُوي » - اتَّفَقنَا ؟

لاَ ؟
أَتَهُزُّ خُصلاَتِ رَأسِكَ الفضِّيَّة ،
وتَعبسُ إليَّ من عَل ؟
أَتظُنُّ أَنَّ الرَّفِيقَ المجُنَّحَ خَلْفَك
يَعْرِفُ أَيَّ شَيْءٍ عَن الحُب ؟
إنَّنِي مَلاَكٌ أَيْضاً ، اعْتَدْتُ مِنْ قَبل أَنْ أَكُون ،
مُحَملِقًا بِنَظْرَةِ حَمَلٍ بَرِيء .
لكِنَّنِي لَنْ أَمْنَحَ لِلأَفْرَاسِ هِبَاتٍ بَعْدَ ذَلِك
مِن زُهْرِيَّاتِ « سِيفرِيس » ، اللَّعْنَة !

لَقَدْ اخْتَرَعْتَ هَذَا الزَّوجَ مِن الأيدِي ، أَيُّهَا الكُلِّي ،
وَصَنَعتَ رَأسًا لِيُمَزِّقَه أَيُّ غَبِي .
إِذَن فَلِمَاذَا لاَ تَدعُنَا نُقَبِّلُ صَبَاحَ مَسَاء
دُونَ أَن نَكُونَ مَحْكُومِينَ بِالألَم ؟

أأنتَ كُلِّيُّ القُدْرَةِ ؟ تُوزِّعُ الموْتَ والحَيَاة ؟
إنَّكَ مَحْضُ جَهُولٍ ، حَيَوانٌ تافه .
انْظُر - هَا أنَا أنْحَنِي ،
لأسْحَبَ السِّكِّين
من رَقَبَةِ حِذَائِي .
فَليَرْتَعِش جِلْدُكَ فِي رَقْصَةِ « سَان فِيتُوس » ،
وتَنْحَنِ خُضُوعًا فِي السَّمَاء ،
تَمَلُّقًا ،
يِالكُمْ مِنْ أوْغَادٍ ذَوِي أجْنِحَةٍ خَفَّاقَة !
سَوْفَ أمَزِّقُكُم كُلَّكم ، مَخمُوراً بِالَّتمَلُّق ،
ابْتِداءً مِنْ هُنَا ، ورَأْسًا إلَى آلاَسكَا !

دَعُونِي أمْضِي !
لَن تُوقِفُونِي .
فَسَوَاءٌ مَا إذَا كُنْتُ مُخْطِئًا
أمْ مُصِيبًا
فَلاَ يُمْكِنُنِي أنْ أكُونَ أكثرَ هُدُوءاً وَلاَ أظَنُّ أنَّنِي يَجِبُ أنْ أكُون .

انْظُرُوا -
فَالنُّجُومُ ، مِن جَدِيدٍ ، قَدْ طَارَتْ أعنَاقُهَا ،
وَالسَّمَاء
حَمْرَاءُ كُلُّهَا بِدَمِ المَذْبَحَة !

هيه ، أنْتُم ،
أيَّتُهَا السَّمَوات ،
إنَّنِي قَادِم ،
أتَسْمَعْن ؟
ارْفَعْنَ قُبَّعَاتِكُن ،
وَإلاَّ ...

الصَّمْت .

الكَّون
يَغْفُو ، وأُذنُه الهَائلة
المبَرْقَشَةُ بِنقَاطِ النُّجُوم
تَتَمَدَّدُ عَلَى كَفِّه .

● ١٩١٤ - ١٩١٥ ●

إنســـان

يَدُ الشَّمس ، الكَاهِنِ الأعلى والأقدَسِ لِلعَالم ، غَافِرةِ كُلَّ الخطَايَا - تَستَرِيحُ على رَأسِي .
وَأثوابُ الليلِ ، الأطهَرَ من الرُّهبَان ، تَستَقِرُّ على كَتفَي .
وإنجيلُ أيَّامِ حُبِّي ، المُمتدُّ ألفَ صَفحَة - أُقبِّله .

أُكَفِّرُ عَن حُبِّي بِعذَابٍ لاَ ينتَهِي ،
ورُوحِي
تَنتَظِرُ حُلُولاً جَديداً ،
« الآنَ ، فَلْتَدَعِ خَادِمَكَ يَرحلُ فِي سَلاَمٍ ... »
أَيَّتُهَا الأرض ،
إِنَّنِي أَسمَعُ نِدَاءَك .

هَا أنَا أَنتَظِر
تَحتَ قَوسِ اللَّيل
نُوحًا جَديداً -
مِن أجلِ اللحظَةِ المَقدُورَة ،
الآنَ سَيَأتُون ،
يَأتُون مِن أجلِي
فِي فَيضِ ثِيَابِهِم ،

ويَحلُّون بِمَطَارِدِ ضَوءِ الفَجْرْ
عُقدَةَ مَصِيرِى الأَرضى .

تَجِـىء !
إِنَّهَا تَجِىء !
لاَ تَخدشُ نِقَابَهَا .
وَفِى كُلِّ مَكَانٍ أَشِعَّةَ !
تُصدرُ الحَفِيف .
ويَدخُلُ كُلَّ يَومٍ ، نَاعِمًا ،
فِى قِشرَتِه الصَّاخِبَة .

هِىَ الشَّمسُ مِن جَدِيد .
تُنَادِى اللُّصُوصَ النَّارِيِّين .
والفَجرُ يَدُقُّ احتِفَالاً بِثَروَتِهَا الطَّائِلَة .
أَيَّتُهَا الشَّمس ،
أَهُنَالِكَ فِى الخَارِجِ ،
فِيمَا وَراء أوحَالِ الأَرض ،
فِيمَا وَرَاءَ الإِيمَان ،
حَقًّا ،
سَتَنسين رَسُولَك ،
المُبَشَّرَ بِمِيلاَدِك .

ميلاد مايكوفسكي

للمُؤرِّخينَ الحمقَى ، المدفُوعينَ من قِبَلِ المعَاصِرِين ، أن يَكتُبُوا : « بليدَةً ومُملَّةً كَانَت حَيَاةُ الشَّاعِرِ المدهِش » .

أعرِف ،
لَن يَستَشهدَ باسمِيَ الخُطَاة
الذِين يَختَنقُون فِي النَّار .
ولَن تَسقُطَ ستَارَتِي
علَى الجُلجُثَة
مَعَ إطرَاءِ الكَهنَة .
فَفي حدَائقِ الصَّيف ، فِي دَقَّةِ نَاقُوسٍ ظَليلَة ،
سَأجلسُ وَأحتَسِي
قَهوَتِي الصَّبَاحيَّة .

فِي سَمَائِي
لا أنتَظِرُ إشَارَاتٍ مُحتَرِقَة .
ومَا مِن أحَدٍ أقلَقَ
نَومَ القُبُورِ لِـ « مَاجِي » ذَاتِ الشَّعرِ المعقُوص .
مثلَ الآخَرِين ، تَمَامًا ،
فَاليَومُ الَّذِي تَنَزَّلتُ فِيه

عَلَيكُم ،
كَانَ نَفسَ الشَّيء ، مُثِيراً لِلقَرَف .
ولَم يَحدُث لأيِّ شَخص
أن يُومِيء
إلَى النَّجمَة ،
تلكَ الطِّينَة الفَجَّة :
أيَّتُهَا النَّجمَة !
لِمَاذا تُشرقِينَ عَاليًا هُنَاكَ ، ألِيفَةً ، كَسُولَة ؟
فَلَو لَم يَكُن مِيلادُ الإنسَان ،
إذَن ، فَمَاذَا ، بِالله ، غَيرَه ،
أيَّتُهَا النَّجمَة ،
يَستَحِقُّ الاحتِفَال ؟

تَأمَّلُوا :
فَنَحن نَقتَنِصُ ، بِشِبَاكٍ مَرمِيَّةٍ كَشِرَاك ،
سَمَكةً مُتَكَلِّمَةً تُسَاوِى ثَروَة ،
وزَعَانِفُهَا الذَّهَبِيَّةُ الصَّغِيرَةُ تُغَنِّى
بَسَالَةَ الصَّيَّادين
فِى قَصَائِدَ بُطُولِيَّةٍ غِنَائِيَّة .
كَيفَ أفشَلُ ، إذَن ،
فِى أن أغَنِّى نَفسِى

إِذَا مَا كُنتُ كُلِّى
أحدُوثَةً مُدهِشَةَ ،
إِذَا كُلُّ حَرَكَةٍ مِنِّى
مُعجِزَةٌ
هَائِلَةٌ ، خَارِقَة ؟

أتَمشَّى حَولَ أىِّ جَانِب .
عَلَى كُلِّ جَانِب
عِندَ تَحدِيقَةِ الاندِهَاشِ ذَاتِ الأشِعَّةِ الخَمْس .
« الأيدِى ! » ، هَتَفُوا .
يَالَه مِن زَوجٍ بَاهِر !
فَلْتُلاحِظُوا :
يُمكِنُنِى أن أحَرِّكَهُمَا مِن الشِّمَالِ إلَى اليَمِين
وَمِن اليَمِينِ إلَى الشِّمَالِ - كِلاَ الاتِّجَاهَين .
فَلْتُلاحِظُوا :
يُمكِنُنِى أن أختَارَ أفضَلَ رَقَبَةٍ مِن لمحَةٍ وَاحِدَة
وألتَفَّ حَوَالَيْهَا -
هُنَاك !

افتَحُوا عُلبَةَ عَقلِى -
فَلَسَوفَ يُومضُ أغلَى ذكَاء .
هَل هُنَاكَ أىُّ شَىء

مُستَحِيلٌ عَلَيْ ؟
لَو تُرِيدُون
يُمكِنُنِي أن أختَرِع
أكثَرَ الحيَوَانَاتِ رَوْعَة !
بِذَيلَيْن ،
وثَلاثِ أرجُل ،
سَيَمشِي
أمَامِي .
فَمَن قَبْلَنِي
يُمكِنُ أن يَقُول
هَل هُنَاكَ عَصِيرٌ أشهَى مِن رِيقِي ؟
هَا هُوَ لِسَانِي ، مَمْدُودٌ فِيه
جَمِيلاً ،
أحمَر .
« أو - هُو - هُو » يُمكِنُنِي أن أهتِف ،
وصَوتِي يَرتَفِعُ أعلَى فَأعلَى .
« أو - هُو - هُو ! »
يُمكِنُنِي أن أصرُخ ،
وصَوتِي ، مثلَمَا صَقرُ صَيدِ الشّاعِر ،
يَهبِطُ بِرِفقٍ إلَى أسفَل سَافِلِين .
لا أهمِيَّةَ لذَلِكَ كُلِّه !

فَفِي النِهَايَة ،
الشِّتَاءَات
إِلَى أُصيَاف ،
وَالمَاءُ إِلَى نَبِيذٍ يُمَكِّنُنِي من التَّحَوُّل ،
وَالدُّخول تَحتَ صُوفِ معطَفِي
هُو أغربُ كُتلَة
مَصنُوعَةٍ مِن أجلِ الضَّربِ وَالحَرق .

تَرتَطِمُ باليَمِين - فِي اليَمِين تَبدأ الأعرَاس .
تنهَزِمُ إِلَى الشِّمَال - تَنبَثِقُ السَّرَابَات .
فَمَن غَيرَهَا سَاحِب ، وأنَا مُبَعثَرٌ فِي سَعَادَة ؟
مَن سَيَستَلقِي ،
مَخمُوراً ،
مُلتَحِفًا بِسَمَاوَاتِ اللَّيلِ السَّودَاء ؟

مغسَلَة .
غَسَّالاَت .
مُتزَاحِمَاتٌ ، مَبلُولات .
وحدَهَا فُقَّاعَاتُ الصَّابُون - رُبَّمَا - تُزَخرِفُ حَيَاتَهُن .
وَبعدَهَا « هاى بريستو » !
وَيتَلاشَى المُمَثِّلُ المبتدِىءُ ذُو المَائِة قَدَم !
فَمَن هُن ؟

أهُن بَنَاتُ السَّمَاءِ والفَجْر ؟

مخبَز .
الخَبَّاز .
يَخبِزُ أرغِفَتَه .
مَن هُو ؟
نَكِرَةٌ مُلَوَّثُ بِالدَّقِيق .
وفَجأة
تَتَحوَّلُ الأرغِفَة
إلَى أعنَاقِ كَمَانَات ،
لَهَا أروَاح .
يَعزِفُ علَيها .
إنَّه حَبِيبُ وبَطَلُ الجَمِيع .

محَلُّ اسكَافِي .
الاسكَافِي .
وَغْدٌ ومُتَسوِّل .
يَضَعُ الطِّمَاقَ على الأحذَية
أو شيئًا مِن هَذَا القَبِيل .
بَعدئذٍ ، يُحوِّلُ كَلَّ طِمَاقٍ إلَى قِيثَار .
مُتَوَّج ،
أمِير ،

مَرِحٌ ولاذِع .

إنّه أنَا
الّذِي رَفَعتُ قَلبِي رايَة .
مُعجِزَة القَرنِ العِشرين الفَريدَة .

والحُجَّاجُ يَفِرُّون – ركضًا – مِن ضَرِيحِ المَسِيح ،
وَلا يَعُودُ للإيمَانِ أن يَدخُلَ مَكَّة .

حيــاة مايا كوفسكي

هَديرٌ يَرُجُّ انقضَاضَ رِجَالِ البنُوكِ ، وَأَصحَابِ الرِّفعَةِ ، وكِبَارِ القُضَاة .

والحَصِيلَة
مَعَاطِفُ البَرِيد ،
ورَنينُ العُملاَتِ الذَّهَبِيَّة .

« لَو انَّ لِكُلِّ شَىءٍ قَلبًا ،
إذَن ، فَمِن أجلِ مَاذَا ، أيَّتُهَا الفَاتِنَة ،
مِن أجلِ مَاذَا ، .

يَا أَموَالِي المَخزُونَة ، قَد ادَّخَرتُك ؟
كَيفَ يَجرُؤُون عَلَى الغِنَاء ،
وَمَن مَنَحَهُم الحَق ؟
مَن أَمَرَ الأَيَّامَ أَن تَتَواصَلَ يُولْيويَّة ؟
فَاحبِسُوا السَّمَاءَ بِإِحكَامٍ فِي الأَسلاك ،
شُقُّوا الأَرضَ ، فِي سَفَهٍ ، إِلَى شَوَارِعِ !
فَمَن الذِي تَفَاخَر بـ :
« الأيدِي » ؟
أَسلِمُوهُم إِلَى كَتِيبَةِ الإِعدَامِ !
مَن أَضَاعِ أَيَّامَ الصَّيفِ فِي القُبلات ؟
فَليَكُن -
الجَميع ! -
مِثلَ قُنفُذٍ شَوكِي .
يبصُقُ بِلسَانِه النَّمَائِمَ المَسمُومَةَ علَى كُلِّ شَيء .

مَطرُوداً إِلَى حَظِيرَةِ الأَرضِ المُوصَدَة ،
أُجَرجِر
نِيرَ الزَّمَن .
وهُنَاك ،
يَجلس

« القَانُون »

مُمتَطِيًا عَقلى ،

بَينَمَا قَلبِى

يُغَلِّله

« الدِّين » .

نِصفُ حَيَاتِى وَلَّى .

ورَقِيبِى لَه أَلفُ عَين – مَصَابِيحُ الشَّوَارِعِ ، مَصَابِيحُ الشَّوَارِع ،

مَصَابِيحُ الشَّوَارِعِ ...

هَا أَنَا سَجِين .

لا خَلاصَ لِى .

مُصَفَّدًا بِالأرضِ ، عَلَيهَا اللَّعنَة ،

سَوفَ أَحَمِّمُ العَالَمَ فِى بَحرِ حُبِّى الشَّاسِعِ .

لَكِن – البيُوت علَى كَافَّةِ الأَجنَابِ ، علَيهَا اللَّعنَة .

أَصرُخ ...

أَتَعجَّل !

خَارِجَ مفَاتِيحِ الصَّوت !

أُقَابِلُ عبُوسَ السَّجَّان .

وَمِن سِنٍّ شُعَاعِ شَمس

يَرفُسُنِى الحَيَوَان

كَكُتلةِ لحمٍ فَاسِدَة .

مُقَهقِهًا حَتَّى الغَثَيَان :
« وَا - هَا ! »
أزحَفُ خِلالَ حَرَارَةِ الكَابُوس .
مُصَفَّداً مِن رِجلَي
وَالصَّلصَلَةُ فِي كُلِّ مَكَان
وَهذا الكَوكَبُ قَذِيفَة .

المَفَاتِيحُ الذَّهَبِيَّة .
أوصَدَت عَينَيَّ هَاتَين .
فَمَن سَيُرِي الأعمَى ذَيلَه ؟
هَا أنَا الآنَ مَسجُون
وَإلى الأبَد
فِي حِكَايَةٍ تَافِهَة .

فَلْتذهَب عَنِّي أحلامُ اليَقَظَةِ النَّبِيلَةُ والوَحشِيَّة !
أنَا عَبدُ رَبَّاتِ الشِّعر ،
أعلِنُ العِصيَان .
أمَّا المُؤمِنُون بِالطَّوَاوِيس -
بَنَاتِ أفكَارِ « بريم » ،

والمُؤمِنُون بِالوُرُود -
ثَمرَةِ خَيَالِ النَّبَاتِيِّين ،
وَوَصفِي هَذَا الذِي لا تَشُوبُه شَائِبَةٌ لِلجَحِيمِ الأرضِي ،
فَيندَثِرُون مِن جِيلٍ إِلَى جِيل !

مُختَرِقًا خُطُوطَ الزَّوَال ،
وأقواسَ أطلَس ،
يُزبِد
ذَهَبُ العَالَمِ الجَوَّالُ ، مُصَلصِلاً :
فرنكَات ،
دُولارَات ،
رُوبيلات ،
كُرونَات ،
مَاركَات .

عَبَاقِرَةٌ ، دَجَاجٌ ، أحصِنَةٌ ، كَمَانَاتٌ - يَغُوصُ الجَمِيع .
الفِيَلَةُ تَغرق .
والتَّفَاهَاتُ أيضًا .
وَفِي الحَنَاجِر ،
فِي الأُنُوف ،
فِي الآذَان

يتَرَدَّدُ صَدَاهَا اللَّزج .
« النَّجدَة ! »
يَختَرِقُ الأنينُ كُلَّ مَكَان .

وَفِي الْمنتَصَف ،
مَحفُوفًا بِهُدبٍ لا يَرِف ،
علَى جَزِيرَةٍ -كسجَّادَةٍ شَاسِعَةٍ مُزهِرَة -
يَعيش
الحَاكِمُ علَيهِم جَمِيعًا ،
غَرِيمِى ،
عَدُوِّى - المَرِحُ كَامَرأةٍ خَلِيعَة .
والنِّقاطُ المُرهَفَةُ تُزَيِّنُ جوَارِبَه الجَمِيلَة -
وَبهِيجَة ،
الشَّرَائطُ علَى بَنطَلُون الاستِعرَاض .
ورَبطَةُ عُنق
بِكُلِّ أَلوَانِ قَوسِ قزَح -
مُثِيرَةٌ لِلاشمِئزَاز ! -
مِن رَقَبته
إلَى كِرشِه الكُرَوِى
تَزحَف
بِارتِيَاب .

هَلَكَ الجَمِيعُ فِى كُلِّ مَكَان ،
لَكِن ، كَثُقَبٍ فِى السَّمَاء ،
لِتَكرِيمِ منزِلَتِكَ الأَسمَى ،
تَجِىء : برَ - ا - فُ - و !
افِيقَـــــا !
هُـــــوراه !
بَانـــــزاى !
هُـــــوخ !
هِيب - هِيب !
فِيف !
هُوسانًا !

وَالأَنبِيَاءُ وبَّخُوا الأَشيَاءَ التَّافِهَةَ عَلَى الرَّعد .
يَالَهَا مِن حَمَاقة !
إِنَّه هُو
يَقرَأ « لُوك » .
ويَظُنُّه لَطِيفًا .
ومَعَ الضَّحِك
تَرِنُّ فَوقَ كِرشِه
وتُومِضُ كَالبَرق

حِليَةٌ بَعدَ حِليَة .
ومَشدُوهِين ،
نَقِف
أُمَام مَأثَرةِ هِيلِين .
نَتعَجَّب ،
« مَن فَعَلَهَا ،
وَمَتَى ،
وَأين ؟ » .
لَقَد كَان هُو
مَن أمَرَ « فِيديَاس » الأخِير :
« أرِيد
نِسَاءً فَاتِنَات مِن مَرمَر ! » .

٤ بَعدَ الظُّهر .
سِيَاقٌ أكثَرَ بَهجَة .
« أيُّهَا العَبِيد !
أرِيدُ غَدَائِى مَرَّةً ثَانِيَة ! » .
وَالرَّب ،
طَاهِيه البَارِع ،
يُعِدُّ شَرَابَ التَّدرُجِ المَغلِى

مِن طِينٍ عَادِي .
يَستَلقِي ،
كأمرأةٍ فِي حَالَةِ حُبٍّ عَذب .
« أتُريدُون
مَا هُو أغلَى مِن السَّمَاوَاتِ المُرَصَّعةِ بِالنُّجُوم ؟ » .
وَفِي الحَال
تَجُوسُ قُطعَانُ جَالِيلِيُو
خِلالَ النُّجُوم
بِعُيُونِ التِّلِيسكُوبَات .

الثَّورَاتُ تَرتَعِشُ خِلالَ أجسَادِ المَمَالِك .
ورُعَاةٌ جُدُدٌ يَجِيئُون مِن أجلِ القَطِيعِ الإنسَانِي .
لكِنَّكُم ، يَا غَيرَ المُتَوَّجِين ، المُستَبِدُّون بِقُلُوبِ البَشَر ،
مَا مِن تَمَرُّدٍ وَاحِدٍ تَسبَّبَ - مِن قَبل - فِي إزعَاجِكُم .

أهـواء مايكوفسكى

أَتَسمَعُون -
أَتَسمَعُون - صَهِيلَ الخُيُول ؟
أَتَسمَعُون -

أتَسمَعُون – رَعدَ العَرَبَاتِ المُقَعقِعَة ؟
تلكَ التى تُثِيرُ انتبَاه
سَاكِنِى المَدِينَة
الآتِينَ للاستِحمَامِ فِى غَمرَتِه .

طُوفَانٌ مِن النَّاس .
أنحَشِرُ وَسطَ الحَشْد ،
إلَى حَافَّةِ البُكَاء وَالهَزِيمَةِ العَبَثِيَّة .
أتشَبَّثُ بِالأعِنَّة ،
بِأذيَالِ المَعَاطِفِ وَالفَسَاتِين .
مَا هَذَا ؟
حَتَّى أنت ؟
تَسلُكُ نَفسَ الطَّرِيق ؟
مُنغَمِسًا فِى الرِّيَاءِ ، أيضًا ، وَالأكَاذِيب .
وَمِثل
المَصَابِيحِ الحَمرَاءِ التِى تُضِىءُ المَوَاخِير ،
يُومِضُ فِى عَينَيك
الاحتِقَان .

فَمِن أجلِ مَاذَا ؟

كَفِّى !

إِنَّنِى أعرِفُ مَبَاهِجَ أكثَرَ عذُوبة !

فَفِى كِبرِيَاءٍ ، تَنسَدِلُ غَابَةُ الرُّمُوش .

كَفِّـــى !

فَلَقَد رَحَلَت ، أيُّهَا الكَائِنُ البَائس !

وهُنَاك ، سَامِقًا فَوقَ الرُّؤُوسِ ، يَنْتَصِبُ **هو** .

رَأسُه تُضِىء -

ويَمكِنُكَ أن تَرتَدِيهَا فِى قَدَمَيكَ كَحذَاء .

صَلعَاء .

تُشِعُّ بِالبَرِيق .

وثَلاثُ خُصلاتٍ ، فَحَسب ،

تَلتَمِعُ مِن تَحتِ المَاسَّة

فِى نِهَايَةِ إِصبَعِ خَاتمِ الزِّفَاف .

أرَاهَا تَتَقَدَّم ،

تَنحَنِى عَلَى يَدَيه ،

لِتَضغَطَ شَفَتَيهَا فِى الخُصلات ،

هَامِسَةً ، فِى مُدَاهَنَة :

« النّاي الصّغير » ، تُسَمّي أحَدَهُم ،
« الغَيمَة الصّغيرَة » ، الآخَر ،
وتَهبُ الثّالث
البَهاءَ المجهُول
لاسمٍ مَا
كُنتُ أخلقُه مَا أزَال .

صعود ماياكوفسكي

أنَا نَفسِي شَاعر . تُعَلّمُون أطفَالَكُم . « الشّمسُ تُشرقُ فَوقَ مَراعِي الرّيشِ المُنبسِطَة » .
وَمِن مِخدَعِ الحُب ، فِيمَا وراءَ خُصلاتِه ، تَتَجَلّى رَأسُ مَحْبُوبَتي .

عيُونُكُم تُطلقُ أوحَالاً تَصفُر .
فَتَمّحِي ابتِسَامَتُكُم ، مِن الانفِجَارَات !
قَلبِي يَهفُو إلَى الرّصَاصِ والبَنَادِق ،
وَحنجرَتِي تَحلُم بِالسّكَاكِين .
يَتَنَامَى ألَمِي إلَى أحلامٍ وَحشيّة
بِالشّيطَانِ المُصَفّد ، الرّهِيب .
يُجَرجِرُني إلَى المِيَاه ،

إِلَى الانحدَارَاتِ الحَادَّةِ المُغوِيَةِ للسُّقُوف .
الثُّلُوجُ تَهطِلُ حَولِى -
يُغيرُ الثَّلجُ فِى جُنُون ،
وتَتَوقَّفُ - بَعدَئذٍ - الدَّوامَةَ .
بَعدَئذٍ ، يَهطِلُ الثَّلجُ مِن جَدِيَد
ويَتَجَمَّدُ إِلَى الزُّمُرُّدِى .
رُوحِى ارتِعَاشَةَ -
وَالجَلِيدُ مُحيط ؛
مِن الجَلِيدِ لا تَملكُ أن تَنبثِق .
وهَكَذَا ، سَأمشِى كَمَسحُور
عَلَى حَافَّةِ جِسرِ « نيفا » .
أَخطُو -
نَفس المَكَانِ ، مِن جَدِيد .
أَبدَاً مِن جَدِيد -
سُدَى .

أَمَامَ أنفِى يَشبُّ عَالِيًا أحَدُ المَنَازِل ،
وفَجرٌ فَظٌّ يَتَبَدَّى وَينظُرُ شَذراً
مِن وَرَاءِ الزُّجَاجِ المُغَطَّى بِالثُّلُوج .

هُنَاك ! أسرِعُوا ، الآن .

صَرخَةُ قِطَّةٍ ضَالَّة ،
غَمغَمَةُ
مِصَباحٍ لَيْلِى ،
يَتَخَافَق .
أنهَض
وأدُقُّ الجَرَس .
أيُّهَا الصَّيدَلِى !
أيُّهَا الصَّيدَلِى !
عَلَى خَشَبَتَى السَّاقَين
تَتَعلَّقُ قَوقَعَتِى المُتَدَلِّيَة .

تَنمو أفكَارِى ، تَتَشَابَك ،
كَقُرُونٍ وَعلٍ مُختَلطَة ،
أكثَرَ مَرارَةً من طَاقَةِ الاحتِمَال .
ونَشِيجِى يُلَوِّثُ ألواحَ الأرضِيَّة ،
وَأنَا أزحَفُ فِى الصَّلاة
إلَى فِردَوسِى المَفقُود .

أيُّهَا الصَّيدَلِى !

أيُّهَا الصَّيدَلِي !

مَتَى سَيَنتَهِي ذَلِكَ ، إِلَى الأبد ؟

مَتَى سَيَكُونُ لِقَلبِي أن يَفِرَّ مِن هَذَا الجَحيم ؟

أفِي السَمَاوَاتِ المُنبَسِطَةِ ، بِلا نِهَايَة ؟

أم رُبَّمَا فِي الصَّحَارِي الكَابُوسِيَّة ،

فِي الصَّحَارِي الضَّارِيَةِ ، الصَّفراء

يعَثُرُ الحَسُودُ عَلَى المَأوَى ؟

قَوَارِيرُ الزُّجَاجِ تَحملُ أسراراً مَصفُوفَة ؛

وَالعَدَالَةُ تَرقُدُ - مُتَسامِيَةً - فِي طَلعَتِك .

أيُّهَا الصَّيدَلِي !

النَّجدَة ،

أتَوَسَّل إلَيك ،

أن تَدَعَ رُوحِي تَصعَدُ بِلا ألَم .

يُقَدِّمُ وَاحِدَة .

« سُم » .

جُمجُمَةٌ ضَاحِكَة ،

أعلاهَا عَظمَتَان مُتَقَاطِعَتَان .

لِمَن تُقَدِّمُه ؟
إِنَّنِي أَبَدِي ،
ضَيفُكَ النَّادرِ .

صَوتِي سَاكِن .
عَينَايَ عَميَاوَان .
وعَقلِي وَلَّى ، مُوصِداً خَلفَه البَاب .
إِذَن ، فَمَا الذِي يَتَبَقَّى لَكَ مِنِّي .
لِيَأتِي عَلَيه السُّم ؟

ظَنٌّ غَامِضٌ يُرفرِفُ فِي عَقلِه الأحمَق .
العَاطِلُون فِي النَّافذَة .
وشَعرُهُم بِلا انتِهَاء .
وفَجأة .
أقلع ، فِي سَلاسَةٍ ، كَطَائِرَة .
وَفِي السَّقفِ ، تَنتَشِرُ حَوَافُّ الفَتحَة .
« وُ و و » .
صَخَب .
« إِنَّه فَوقَ المَنزِل ! » .

نَعَم ، هُنَاكَ كُنتُ أحلِّق .

كَنِيسَةٌ فِي الغُرُوب .
صلِيبُهَا ذُبَالةُ شَمعَة .
فَوقَهَا !
فَوقَ قِمَمِ الغَابَة ،
فَوقَ أسرَابِ الغِربَانِ المُتَخَاصِمَة .
فَوق !

طُلاَّب !
حُثَالَةٌ كُلُّهُم .
كَمَا تَعلَّمنَا .
وَالفِيزيَاءُ ، والفَلكُ ، وَالكِيمْيَاءُ أيضًا ،
كُنتُ أهفُو إلَى الطَّيَرَان –
وهَكَذَا طِرت !

إلَى أيِّ مكَانٍ الآن !
حَيثُمَا أبغِي يُمكِنُنِي أن أنطلِق .
وَالآنَ ، أيُّهَا الشُّعَرَاء ، امخُضُوا طَمْي قَصَائِدِكُم .

غَنُّوا الآن .
غَنُّوا الآنَ عَن شَيطَانٍ جَدِيدٍ .
فِي سُترَةٍ أمرِيكيَّة .
وحِذَاءٍ ذَهَبِي .

مایاکوفسكی فی السماء

قِف !

أرمِي عَلَى غيمَةٍ
أشيَائِي وجَسَدِي المُتعَب .
وتَحتِي الأمَاكِن
التِي مَازُرتُهَا أبَدا .
هَكَذَا ،
هَذِه الأرضُ المَلسَاء ،
هِيَ الفِردَوسُ المَجِيد ، ألَيسَ كَذَلِك ؟

أنظُرُ حَولِي .
حَسَنًا ، سَنَرَى ، سَنَرَى !

أَلَقٌ .

يَبدَأُ فِي الوَمِيض ،

وَاللألأة ،

وَالحَفِيف .

فَأَيُّ شَيءٍ هذا ، الذى ينزلقُ فِي نُعُومَة ؟

أغَيمَةٌ ،

أم أروَاح

بِلا أجسَادٍ وَلا خَطَايَا ؟

« وَلَو أنَّ فَتَاةً أقسَمَت أنَّهَا تُحِبُّك ... »

أيُمكِنُ ، هُنَا ، فِي السَّمَاءِ ، كَطَائِرٍ صَغِيرٍ ،

الاستِمَاعُ إلَى مُوسِيقَى فِيردِى ؟

هَاهِيَ غَيمَةٌ ذَات صَلصَلَة .

ومَلائِكَةٌ يُغَنُّون .

إنَّهُم يَعِيشُون حَيَاةً جَيِّدَة ،

جَيِّدَةً تَمامًا ، فِيمَا أظُن .

يَتَقَدَّمُ أحَدُهُم مُقتَرِبًا ،

مُختَرِقًا الخَدَرَ النَّاعِس ،

وَفِي أدَبٍ جَمٍّ ، يَقُول :

« حَسَنًا ، فلادِيمِير فلادِيميرُوفيتش ،
كيفَ تَرَى جَحيمَنَا ؟ »
وَفِى أدبٍ مُشابِه
أجِيب :
« جَحِيمٌ فَاتِن !
لَيسَ سِوَى نَعِيم » .

أضجَرَنِى ذَلِكَ فِى البِدَايَة -
أيَّةُ سَخَافَات !
مَا مِن رُكنٍ وَاحِد ،
وَلا شَاى ،
وَلا جَرَائِدَ لِلقِرَاءَة بَعدَ الشَّاى .
لَكِنِّى اعتَدتُ - مَعَ الوَقتِ - عَلَى القَوانِينِ السَّمَاوِيَّة .
وَخَرَجتُ مَعَ الآخَرِين
لأرَى إن كَانَ قَد وَصَلَ أىُّ وَافِدٍ جَدِيد .
« آه ! أأَنتَ أيضًا !
لَم تَعُد حَيًا ! »
وأعانِقُه فِى فَرَحٍ غَامِر .
« صَبَاحَ الخَير ، فلادِيمِير فلادِيمِيرُوفيتش ! »
« صَبَاحَ الخَير ، أبرَام فاسَيلِيفيتش !

كَيفَ انتهَيت ؟
أفِي راَحَة ؟
عَلَي مَايُرَام ؟ » .

ألَيسَت مزِحَات صَغيرَةً لَطيفَة ؟

بَدأتُ فِي الاستِمتَاعِ بِهَا ،
فَاتَّخذتُ مكانًا عَلَى البَوَّابَات ،
وحَالَمَا يَصِلُ أحَدُ المَعَارِف ،
عِندَ انتِهَاءِ حَيَاته ،
أرَافِقُه فِي ضَوءِ الكَوَاكِب -
كَم هِيَ فَاتِنَةٌ ومُتنَوِّعَةٌ سَاحَاتُ العَوَالِم .

مَوقِعُ المُرَاقَبَةِ المركَزِيَّة لِلأحدَاث .
شبَكَةُ مُحوِّلاَت ، أزرَار ورَوافِع .
تُدَارُ فِي اتِّجَاه -
فَتَتَّجِه العَوالِمُ إلَى نُقطَةِ التَّوقُّف ،
تُدَارُ فِي اتِّجَاهٍ آخَر -
فَتَدُورَ ، أسرَعَ مِنْ ذِي قَبل .

« أدرِ هَذَا » ، يَطلُبُون ،
« لِيَنطَفِئَ العَالَمُ كُلُّه :
فَكُلُّ مَا يَعرِفُونَه
حُقُولٌ مُزهِرةٌ بِالدَّم » .
أكَشِّر ،
« فَليَمضُوا فِي ازدِهَارِهِم ،
فَالأرضُ ، عَلَى أيَّةِ حَال ، لَيسَت سِوَى أوحَال ! » .

المَخزَنُ المَركَزِيُّ للأشعَّةِ المُتنَوعَة .
كَومَةُ نِفَايَاتِ النُّجُومِ المُحتَرِقَةِ وَالبَالِيَة .
نُسخَةٌ آنِيَّةٌ مُهتَرِئَة -
لا يَدرِي أحَدٌ لِمَن -
لِلمُسَوَّدَةِ الأولَى العَقِيمَةِ لِسفرٍ هَائِل .

الكُلُّ يَبدُو مُتَجَهِّمًا ،
مَشغُولاً -
أحدُهُم يُرَمِّمُ - بِدَأبٍ - تَصدُّعَاتٍ غَيمَة ،
وَآخَر يُعِيدُ تَزوِيدَ الشَّمسِ بالوقود بِالجَارُوف .
الكُلُّ مُنهَمِكٌ فِي هَذَا الوَضعِ الرَّهِيب ،
رَصَانَةٌ ،

سَكُون –

مَا مِن أحَدٍ يَتَدَافَع –

مَا مِن مُبَرِّرٍ لِلتَّدَافُع !

« أخرَقُ كَسُول ! » :

فِي البِدَايَةِ وبَّخُونِي .

وَلكنِّي مَخلُوقٌ مِن أجلِ الحُب ،

وَمَن لا جَسَدَ لَه فَلا يَملِكُ شَيئًا !

« تَصَوَّرُونِي مُنبَطِحًا عَلَى غيمَة

أرَاقِبُكُم » ، قُلتُ لَهُم ،

« أستَلقِي – فَحَسب – وَأَرَاكُم ، كُلٌّ وَاحِدٍ مِنكُم ! » .

« ذَلكَ لا يُرضِينَا ! ، لا ! » ، اعتَرَضُوا .

« لا يُرضِيكُم ؟ إذَن فَلَن أفعَل !

كَانَ مُجرَّد اقترَاح ! » .

تَنهِيدَةٌ تَصَّاعَدُ مِن رِئَةِ كِيرِ الزَّمَن .

وهُنَاك –

يَظهَرُ عَامٌ جَدِيد .

وَمن هُنَا ،
يَتَدَحرَجُ من أعلَى ،
مُرعداً ،
التداعِي الرَّهِيبُ للأعوَام .

لا أحصِي الأسَابِيعَ ، التِي تَطِنُّ فِي دُوَار .
فَنَحن ،
المَشدُودين إِلَى الإِطَارَاتِ الذَّهَبِيَّةِ للزَّمَن ،
لا نُقَسِّمُ حبَّنا إِلَى أيَّام ،
لا نُبَدِّلُ أسمَاءَ محبُوبَاتِنَا .

ساكنًا ،
أستَلقِي
فِي أشعَّةِ القَمَرِ البَارِدَة -
كَمَا لَو عَلَى شَاطِيءٍ شَمَالِيٍّ ، فِي اطمِئنَان ،
بَل أكثَرَ انطِواء .
وَالأحلاَمُ تُلاَشِي قَلَقِي ،
وَبِامتِدَادِي ، فِي عنَاقٍ كَامِلٍ لِي ،
تَتَدَفَّقُ بِحَارُ الأَبَدِيَّة .

عودة ماياكوفسكى

١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ألف ، مليون ، دشليون .

إنهَض !
كَفَى !
العَينَان عَلَى الشَّمس !
حَتَّى مَتَى سَتَستَلقِى هُنَا ، مُنبَطِحًا وَأبكَم ؟

أتَذَمَّر ، شِبهَ نَائِم .
فَأىُّ ابنِ مِدفَع
ذَلِكَ الذِى يَجرُؤ عَلَى الثَّرثَرَةِ مَعَ قَلبِى
الصَّامِتِ طَوِيلا ؟

أهو الصَّبَاح .
أم المَسَاء ؟
هَادِئٌ شُحُوبُ السَّمَاوَات .

كَم مِن القُرون
تَلاَشَت فِى السَّدِيم ،

كَم مِن الأيَّامِ المُتكَسِّرةِ ، المسحُوقَة !
أستَغرِقُ فِي التَّفكِيرِ حِينَ أرنُو إلَى دَربِ اللَّبَّانَة .
ألَعلَّه لِحيَتِي ، وقَد شَابَت ،
تِلكَ التِي تَمتَدُّ عَبرَ الفَضَاء ؟

النُّجُومُ تُوَاصِلُ السُّقُوط .
أتأمَّلُهَا بِعَينِي .
هُنَاك ، تَسقُطُ نَجمَة ،
خَاطِفَةً ، إلَى الأرضِ فِي الأسفَل .

فِي عُمقِ قَلبِي يَستَيقِظُ حَسَدُ السَّنَوَاتِ الغَابِرَة ،
وعَقلِي يَخلقُ خَيَالاَتٍ مُتوَهِّجَة .
لابُدَّ أنَّ الأرض
هُنَاك ، فِي الأسفَل ،
تَبدُو قَشِيبَة .
القُرَى المُلوَّنَةُ بِالرَّبِيع .
وكُلُّ مَدِينَةٍ لابُدَّ أنَّهَا - أيضًا - مُضَاءَة .
وعَائلَةُ العَالَمِ المُتَورِّدَةُ الخُدُودِ تَمرحُ وتُغَنِّي .

يتَبدَّى الحَنين .

أكثرَ إيلامًا .

غَيمَةٌ بَعيدَةٌ تَشِبُ

فِي ألَقِ الشّمسِ الصّافِي .

وصُورَةٌ أرضِيَّةٌ قَدِيمَة

تُمعِنُ فِي مُرَاوَدَتِهَا لِي .

أمعِن

نَظَرِي ،

لأرَى

أرضَ وَطَنِي .

هَاهِي !

أحَدِّقُ بِحِدَّةٍ أكثَر ،

أمَيِّزُ البِحَار ،

وَالجِبَالَ حَيثُ تُحَلِّقُ الصُّقُور ...

وَأبِي بِجَانِبِي ، رَفِيقِي القَدِيم .

هُو نَفسُه ،

إلا أنَّه ازدادَ صَمَمًا

وثوبُه كرَجُلِ غابَات

ازدادَ اهتِراءً

عندَ المِرفَقَين .

يَستَثِيرُني .

يُحدِّقُ العَنيدُ القَديمُ فِي الأسفَل ، أيضًا .

فَمَا الأفكَارُ التِي يَستَثِيرُهَا

فِي عَقلِه مَرأى الأرض ؟

يَقُولُ فِي هُدُوء ،

« فِي القُوقَاز

لابُدَّ أنَّ الرَّبِيعَ قَد حَلَّ الآن ! » .

سِربُ الأروَاح ،

كَم يُضجِرُنِي ،

اللَّعنَة !

طِفلٌ مِن « الآبَاش »

يدفَعُني إلَى الجُنَون .

بَابَا ، كَم هِيَ بَلِيدَة ،
بَلِيدَةٌ للغايَة هُنَا ، يَا بَابَا !
هَذِه السَّمَاوَات
التي تُغوِي الشُّعرَاءَ المجذُوبِين ،
المُتَأَنِّقِين بِالمِيدَالِيَات المُرَصَّعَة بِالنُّجُوم وغَيرِهَا .
أَيَّتُهَا الشَّمس ، لِمَاذَا تَدفَعِينَ ثَوبَك إلَى الحَفِيف ؟
أتظُنِّينَ نَفسَك كَارِدِينَالا ؟
فَلتَكفِّي عَن مَصٍّ شَعرَاتِ الأَشِعَّةِ في النَّوم ...
واتبَعِينِي -
بِلا أقدَامٍ أنتِ ،
ومَا مِن شَيءٍ نَظِيفٍ يَستَحِقُّ المُحَافَظَةَ عَلَيه ،
بَل ولَن تَحتَاجِي إلَى خُف
عَلَى الأرضِ الطَّافِحَة بالأوحَال .

أَيَّتُهَا النُّجُوم !
كُفِّي عَن نَسج
إكليلِ شَهِيدِ الأرض !

فَالأحمَر

يُغَطِّى الأفق .

جَنَاحُ مَن هَذَا الذِي يُومِض

هُنَاكَ فِى الأسفَل نَحوَ الأرض ؟

أهُوَ الفَجر ؟

كَفى !

فَنحنُ نَمضِى ، فِيمَا يَبدُو ، فِى نَفس الطَّرِيق !

حِينًا ، أنطَلِقُ بَعِيداً عَلَى قَوسِ قُزَح ،

وَحِينًا أتَأرجَحُ فِى ذَيلِ مُذَنَّب .

فَمَا الذِى يَجعَلُنِى أتَقَافَزُ فِى شَكلِ قَوس ؟

أىُّ رُعبٍ شَاحبٍ يُدَمدِمُ حَولِى ؟

أستَعرِض

الألعَابَ المُثيرَة

ذَات الرَّشَاقَةِ المُبهِرَة

أمَامَ العَالَم .

ورُوحِى

الهَائمَة

مُتخَمَة

بِأفكَارِ المَاضِي .

نِصفَا الكُرَةِ الأرضِيَّة

يُشبِهَان كَفَّين مُنطَبِقَين

فِيهِما تَغُطُّ المُدُن

فِي نَومٍ ثَقِيل .

أذنِي تُمَيِّزُ الأصوَاتَ المُنفَرِدَة .

بَعِيداً ، مَائةُ ضَربَةِ جَنَاحٍ أو نَحوَ ذَلِك .

« أهلاً ، أيَّتُهَا الأرضُ العَتِيقَة ! » .

ويَبتَهِجُ قَلبِي .

أنزَلِقُ عَلَى الأسفَلت ،

ثم أنهَض

وأمضِي .

اندِهَاشُهُم خَيَالِي

أمَامَ قُوَّتِي الغَيبِيَّة ،

أمَامِي ،
كَمُسَافِرٍ خِلالَ جَحِيمِ السَّمَاوَات .
وأصواتُهم تَنطَلِقُ فِي نَفَسٍ وَاحِد :
« انظُرُوا ، لابُدَّ أنَّه رَسَّامُ السُّقُوف !
يوُشِكُ أن يَهوِي إِلَي حَتفِه !
يَالَه مِن فُقدَانٍ قَادِمٍ ! » .

ومِن جَدِيد ،
تَحتَ وَطأَةِ المَشَاغِل ،
ذَهَبَت الجُمُوع .
فَيومُهَا جَاءَ رَاعِدَ الصَّوتِ ، يَتَدَحرجُ إِلَى الأمَام .

آهِ ، هَل هُنَاك
حَنجَرَة
يُمكنُهَا أن تَهدِرَ هَدِيرَ المَدِينَة ،
بِصَوتٍ أعلَى ،
هَدِيراً خَارِقًا ؟
فَمَن سَيَكبَحُ اندِفَاعَ الشَّوَارِعِ إِلَى الأمَام ؟
مَن يَفُضُّ أحَابِيلَ الأنفَاق ؟

مَن سَيُوقِفُهُم
فِى الطَّائِرَات
المُحَلِّقَةِ عَالِيًا ،
المُندَفِعَةِ خِلالَ دُخَانِ المَوَاقِدِ والمَدَاخِنِ ؟

أسفَلَ خَطِّ استِوَاءِ الأرضِ المُنحَرِفِ
مِن شِيكَاجُو ،
عَبرَ تَامبُوف ،
تَتَدَحرَجُ الرُّوبِيلات
فِى حَرَكَةٍ أبَدِيَّة .
يَتَعَقَّبُهَا الجَمِيع ،
وَأعنَاقُهُم مَمدُودَة ،
يَتَجَمَّعُون فِى حُشُود ،
يَختَرِقُون
الجِبَالَ الصَّلدَة ،
وَالطُّرُقَ العَامَّة ،
والمُحِيطَات ...

وذُو الرَّأسِ الصَّلعَاءِ القَدِيمُ نَفسُه

هُو دَلِيلُهُم الخَفِى ،
مُعَلِّمُ الرَّقصِ الأكبر
لِرَقصَةِ الكَانكَانِ الأرضِيَّة ،
كَفِكرَةٍ حِينًا ،
وحِينًا كَشَيطَانٍ مُقَنَّع ،
ومُشرِقًا كإلَه حِينًا ، وقتَمَا يَستَطِيع .

فَلتَخرَسُوا ، أيُّها الفلاسِفَة !
لا تَتَجَادَلُوا -
فَأنَا أعرِف
لِمَاذَا حَصَلُوا عَلَى هِبَةِ حَيَاتِهِم -
لِيُمَزِّقُوهَا فِى وَحشِيَّة ،
يُبدِّدُوا ، أينَمَا ذَهَبُوا
أكثَرَ مَا يَستَطِيعُون
مِن الأيَّامِ المُنصَرِمَةِ مِن صَفَحَاتِ التَّقوِيمِ السَّنَوِى .

فَهَل أرحَمُهُم ؟
لَكِن مَتَى رَحَمُونِى ؟
لَقَد التَهَمُوا الشَّوَارِع ،
والضَّوَاحِى ،

والحدائق .

فأرِنى خنجَراً

هل من خِنجَرٍ حَقِيقِى ؟

أتَرى ،

بِأىٍّ ثَمَن !

فَالآنَ يَحِلُّ يَومُ انتِقَامِى الرَّحيم

مِنَ البَرَابِرَة !

مايا كوفسكى إلى العصور

إلى أينَ أمضِى ؟

أينَ ولَماذَا ؟

عَبرَ الشَّارِعِ المَائَة أركُض

فِى خَلِيَّةِ النَّحلِ البَشَرِيَّة

الطَّنَّانة .

وعَينَاىَ تَتَقَافَزَان عَلَى نَافِذَةِ أقرَاصِ العَسَل .

علِيلاً ،

مُحبَطًا ،
ومُغتَرِبًا فِي يُوليُو .

نَوافِذُ البُيُوت .
نَوافِذُ المحَلاَّت
أطفأتها المَدِينَةُ المُتعَبَة .
وَحِيداً
الغُرُوبُ ، الجَزَّارُ الدَّمَوِى ،
يَقطَعُ - بِلا رَحمَةٍ - عِنَاقَ الغُيُوم .

وَأنَا أمشِى الهُوَيْنَى .
أتَسَلَّق
جِسراً ، غَرِيبًا ، طَوِيلاً
وَأحَدِّقُ فِى الأسفَل ، فِى انفِعَالٍ مُخِيف .
لَقَد كُنتُ هُنَا .
وَهوَ يُشرِقُ كَمَا كَان ، علَى مَا أذكُر .
وكَان يُدعَى النِّيفَا .

هَا هُنَا ، قَامَت مَدِينَةٌ بَلهَاء ، بِلا شُعُور ،

تَتمَرَّغ فِي الدُّخَانِ المتَصَاعدِ مِن خَشَبِ المَدَاخِن .
وَبسُرعَةٍ بَالغَة ،
فِي نَفسِ المَدينَة
سَتَبدَأُ الأمسِيَات –
مَلسَاء ، لهَا بَيَاضُ الطَّبَاشِير .

كَابُوت –
يُوليُو !
مُتَوقِّدَةَ السُّخُونَةِ ، بِلا لَيل ،
تَئِنُّ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ فِي أَلَمِ الهَذَيَان .
حِينًا ، يَحْمَرُّ صَلِيبُ الإسعَافِ سَاطِعًا ، فِي الكَوَابِيس ،
وَحِينًا ، تُدَوِّي طَلقَةُ بُندُقِيَّة ،
وتَخمَد ،
ثُم مِن جَدِيد .

أعرِف ،
فَالشُّبَّانُ مِثلِي
يَتَوهَّجُون بِالانفِعَال
بِسُرعَةٍ كَبِيرَة ،

لكنَّ نُتُوءاً فِى حَنجَرَةِ المرءِ سَوفَ يَخزُه فَجأة
عِندَمَا لا تَلُوحُ آلافٌ مِن مَصَابِيحِ الشَّوَارِع
بَل وَجُوهٌ دَامِسَة .
فَأينَ كَان ثَمَّةَ شَبِيه
لِمثلِ هَذَا التَّقَلُّصِ اللاإرَادِى ؟

وَأرَاكَ عَلَى سَطحِ بَيت
تَتَمَشَّى عَلَى سقفٍ مُنحَدِرٍ ، خَطِر ،
مَشدُوداً بِالأشعَّة
التى تَجمَعُهَا فِى حِزمَات .
أمُدُّ نَفسِى –
لَكِنَّكَ – مِن تَحتِ أنفِى – كَضَبَابٍ تَنطَلِق .

وَهَا أنَذَا – مِن جَدِيدٍ – صَنَمٌ سَاكِن .
شَبَحُكَ يَرحَلُ عَنِّى ، أبكَم .
وحَشدُ مُتشَرِّدِى اللَّيلِ يَتَشَظَّى وَيَتَنَاثَر .
وَيُمكِنُنِى – بِالكَادِ – أن أحِسَّهَا ، الرَّائِحَةَ العَذبَةَ لِبَشرَتِهَا
بِالكَاد – نَفَسَهَا ،
وَرِعشَةَ صَوتِهَا .

أظُنُّه شَبَحًا مَا ،
لَكِنّه يَعُودُ إِلى الحَيَاةِ ، يَا لَلجَحِيم !

تتجلّى ، مَقلُوعَةً مِن عَقَائدِ الهَوَاء ،
كَمَا لَو أنَّ وَاحِدَةً لا تكفِى ،
وتَنتَشِرُ فِى هَيئَةِ مَوكِب .
وقَلبِي ، العَائِدُ إِلَى الحَيَاةِ ، يَبدأ الخَفَقَانَ ، مُتَوَتِّرًا ،
والعَذَابَاتُ الأرضِيَّةُ تُجَدِّدُ وَطأَتَهَا ، مِن جَدِيد .
فَأهلاً بِكَ - مَرَّةً ثَانِيَة -
يَا هَاجِسى القَدِيم !

المَصَابِيحُ مُنحُوتَةٌ بِنَفسِ الطَّرِيقَة
فِى مُنتَصَفِ الشَّارِعِ .
المَنَازِلُ مُتَشَابِهَةٌ - عَالِيَةٌ تَمَامًا .
وَمِن كُوَّةٍ فِى الجِدَار ،
تَلتَقِى عَينِى بِرَأسِ مُهرَة .

« أَيُّهَا العَابِر ،
أَهَذَا شَارِع جوكُوفسكى ؟ »

يُحَملِق

كَطِفلٍ يُحَملِقُ فِي هَيكَلٍ عَظمِي ،

وعَينَاه - الهَائِلَتان ،

تَتَحَاشَيَانِ عَينَيّ .

« لَقَد كَان شَارِعَ مَايَاكُوفسكى مُنذُ ألفِ سَنَةٍ كَامِلَة .

وَقَد أطلَقَ النَّارَ عَلَى نَفسِه هُنَا أمَامَ بَابِهَا فِي ذَلِكَ الوَقت » .

« مَن ؟

أأطلَقتُ النَّارَ علَى نَفسِي ؟

أيَّةُ حِكَايَةٍ مُلَفَّقَةٍ ، لطيفةٍ مَعَ ذَلِك !

أيُّهَا القَلب ، فَلتُطلِق إِشعَاعًا مَرِحًا ، وتَعَلَّق بِه ! » .

أطِير

إِلَى النَّافِذَة -

إِنَّهَا عَادَةٌ سَمَاوِيَّة .

عَالِيًّا .

أختَرِقُ اللَّيلَ أعمَق .

طَابِقًا بَعدَ طَابِق .

السَّتَائِرُ مَسحُوبَة .

وخِلاَلَ الحَرِيرِ المُتَأرجِحِ أمضِي مُغَرِّدًا -

هُو نَفسُ الشَّيء -
غُرفَةُ النَّومِ هِي نَفسُهَا كَمَا مِن قَبل !

وَرَغمَ أنَّكَ عَبَرتَ آلافَ السِّنِينِ ، فَمَا تَزالُ صَغِيراً ،
هَا هُنَا تَعِيش ،
وشَعرُكَ مُزرَقٌّ مِن ضَوءِ القَمَرِ فِي الفَيَضَان .
دَقِيقَةٌ وَاحِدَة ،
ومَا كَانَ قَمَراً
يُعَادُ تَشكِيلُه فِي رَأسِهِ الصَّلعَاء .

عَثرتُ عَلَيهِم !

هُنَاك ، كَأبرِيَاء يَنَامُون .
اليَد ،
تَقبِضُ عَلَى السِّكِّينِ قَبلَ القَتل !
أزحَفُ نَحوَ السَّرِير ، مُمعِنًا النَّظَر ،
وَمِن جَدِيد
أترَنَّحُ إلَى الوَرَاء ،
وَأنَا أشعُرُ بِالحُبِّ وَالشَّفَقَة .

صَبَاح الخَير !

يَظهَرُ الضَّوءُ الكَهرَبَائِى .
وعَينَان تَجحَظَان فِىَّ بِثَبَات ،
فِىَّ وَفِى سِكِّينِى الوَامِضَة .
« مَن أُنت ؟ »
« المُهندِس نيكولاييف .
إِنَّهَا شَقَّتِى .
أىُّ شَيطَانٍ أنتَ لِتَغتَصِبَ زَوجتِى ؟ »

غُرفَةُ شَخصٍ آخَر ...
تَجَمَّدَ الصَّبَاح .
مُرتَعِدَةً فِى رُكنَى شَفَتَيهَا ،
تَقِف امرَأَةُ شَخصٍ آخَر بِلا مَلاَبِس .
أركُضُ قَفزاً وعَدْواً .

كَظِلٍّ مَشقُوق ،
ضَخم ،
أشعَث ،
أعدُو أسفَلَ الجِدَار

بَينَمَا يَتَوهَّجُ ضَوءُ القَمَر .
السُّكَّانُ يُهرَعُون فِي عَبَاءَاتٍ فَضفَاضَة .
أرعِدُ عَلَى أحجَار الشَّارِع ،
أسُوقُ البَوَّابَ إلَى الركنِ باللَّكَمَات .
« مِن شَقَّة اثنَتَين وأربَعِين -
إلَى أين انتَقَلَت ؟ »
« ثَمَّةَ تَفسِيرٌ أسطُورِي :
أنَّهَا قَفَزَت
مِنَ النَّافِذَة
إلَيه ،
وهُناك ،
ذَهَبَا
وَالجَسَدُ عَلَى الجَسَد ،
مُفعَمَين بِالسَّعَادَة ،
إلَى نِهَايَةِ الحَافَّة » .

أينَ الآن ؟
إلَى أين
يُمكِنُ أن تَقُودَنِي
عَينَاي !

قَرِيبًا أم بَعِيداً ...
أَإِلَى الحُقُول ؟
إِلَى الحُقُولِ ، هُوراه !

أنشُوطَةُ أشِعَّةِ الشَّمسِ مَرميَّةٌ عَلَى رَقَبَتِي .
وَالصَّيفُ الحَارِقُ يَشطُرُنِي .
وكَقَيدٍ لا يرتَخِي أبَداً ،
تُصَلصِلُ فِيَّ آلافُ الأعوامِ مِن الحُب .

وَحِينَمَا
يَمضِي الجَمِيعُ إِلَى هَلاَكٍ رَهِيب ،
أولَئِكَ الذين يَقطَعُون شَوطَ الحَيَاة ،
وَهُم يَعتَصِرُونَ مِنَ الشُّمُوسِ الأخِيرَة
الشُّعَاعَ الواهِي الأخِير
عَلَى الكَوَاكِبِ الدَّامِسَة ،
سَيَشتَعِلُ أَلَمِي وَحدَه ،
كَمِحرَقَة ،
وَأنَا ، مُطَوَّقًا بِاللَّهَب ،
أنتَصِبُ فِي النَّارِ الأبَدِيَّةِ لِلحُب ،
مُقَدِّسًا اسمَه .

خاتمــــة

أيُّهَا الفَضَاء ،
فَلتَتَقَبَّل فِى حضنِك
مِن جَدِيد
الضَّحِيَّةَ الشَّرِيدَ لِلبَلاء .
أهُنَاكَ سَمَاوَاتٌ نسيتُها الآن ؟
أيَّةُ نَجمَةٍ لَن تَنطَفِىء !
وكَألفِ كَنِيسَة
تُغَنِّى الأرضُ فِى الأسفَل :
« فَلتَرقُد مَعَ القِدِّيسِينَ فِى سَلاَم ! » .

١٩١٦ - ١٩١٧

إشـــــارات

أنا نفسى

- « **هيا يا أبناء الوطن** » : تقليد ساخر للسطر الأول من نشيد « المارسيلييز » .

- « **ريون** » : نهر بالقرب من « كوتايسى » .

- « **بيرفيستنيك** » : دار نشر تخصصت فى نشر الكتابات الاشتراكية الديمقراطية .

- « **برنامج إيرفورت** » : برنامج الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى ، الذى تم إقراره فى « إيرفورت » عام ١٨٩١ . وكان يتم تدريسه فى الحلقات الثورية الروسية .

- « **فى ذكرى باومان** » : كان « باومان » عضواً قيادياً فى الحركة الثورية الروسية . وقد اغتيل فى موسكو عام ١٩٠٥ .

- « **أوانى « بيم » الزجاجية** » : كانت « بيم » فنانة من الأرستقراطية ، ترسم بألوان الماء بأسلوب تقليد الفن الشعبى الروسى ، ولها رسوم على الزجاج .

- « **مقدمة ماركس** » : هى مقدمة « نقد الاقتصاد السياسى » لكارل ماركس .

- « **مررت باختبار** » : إشارة إلى قيام ماياكوفسكى بأداء تكليفات الحزب .

- « **سانين** » : رواية للكاتب « ارتسيباشيف » ، لقيت انتشاراً واسعاً فى تلك الفترة .

– «**ومدة قصيرة في الداخل من جديد** » : هي المرة الثانية التي اعتقل فيها ماياكوفسكي في ١٨ يناير ١٩٠٩ ، وقضى في الحبس ما يزيد عن شهر .

– « **تاجانكا** » : سجن تاجانسكايا .

– « **بوتيركي** » : سجن بوتيرسكايا .

– « **كورلوف** » : نائب وزير الشئون الداخلية ، في ذلك الحين .

– « **مذنب في التهمة الأولى** » : الاتهام بحيازة المطبعة السرية .

– « **ستروجانوفسكي** » : هي كلية ستروجانوفسكي للفنون .

– « **جلستُ على « رأسي » لمدة عام** » : إشارة إلى العكوف على تعلم كيفية رسم الرأس الإنسانية .

– « **جزيرة الموتى** » : عمل سيمفوني لسيرجي رحمانينوف .

– « **وُلدَت المستقبلية الروسية** » : يشير ماياكوفسكي إلى بداية تنظيم جماعة المستقبليين . وقد اعتبر المستقبلية قوة إبداعية مضادة لأخلاق وفن البرجوازية . أما وجهة النظر « الحكومية » ، فقد اعتبرتها اتجاهًا فنيًا يعكس الأزمة العامة للثقافة البرجوازية .

– « **الأبيض والقُرمزي** » : الكلمات الافتتاحية في قصيدة « مساء » .

– « **أحضر لي « ميناء » ..** » : إحدى قصائد ماياكوفسكي المبكرة .

– « **بيان مشترك** » : هو مقدمة ديوان « صفعة في وجه الذوق العام » ، الذي نشر عام ١٩١٣ :

« إلى القراء أول جديدنا ، وأول ما هو غير متوقع .

نحن وحدنا وجه عصرنا . إن بوق العصر يُدَوِّي من خلال كلماتنا . والماضي خانق . الأكاديمية وبوشكين أشد غموضًا من الهيروغليفية . فاقذفوا ببوشكين ، بدستويفسكي ، بتولستوي .. إلخ من فوق باخرة الحداثة .

إن من لا ينسى حبه الأول لا يتعرف على حبه الأخير .

فمـن هو ذلك المجنون الذى يمنح حبه الأخير لعاهرة « بالمونت » ذات الرائحة النتنة ؟

هل يعكس ذلك الروح الرجولية لهذا الزمن ؟

من هو ذلك الجبان الذى يخشى تمزيق ذلك السلاح الورقى عن بزة الضفدع التى يلبسها المقاتل بريوسوف ؟ هل تحمل أى بزوغ لجمال مجهول ؟

اغسلوا أيديكم المتسخة بوحل الكتب التى نقشها عدد لايحصى من أمثال ليونيد أندرييف .

كل هؤلاء المكسيم جوركيين ، البلوكيين ، السلوجوبيين ، الريميزوفيين ، الاميزشيكوزيين ، الشيرنيين الكوزمنيين ... إلخ ، كل ما يريده هؤلاء هو بيت جميل مُطل على النهر ..

هكذا يجازى القدر الخياطين .

من قمم ناطحات السحاب ننظر باحتقار إلى تفاهاتهم . ونطالب باحترام حقوق الشاعر :

أولاً : توسيع المفردات بكلمات تلقائية واشتقاقية - تعابير جديدة .

ثانياً : الكراهية التى لا تسمح بالمهادنة للغة المستعملة حتى الآن .

ثالثاً : اجتناب كل تلك الأكاليل ذات الشهرة الزائفة المصنوعة .

رابعاً : الوقوف على صخرة الكلمة « نحن » فى بحر صيحات القطط وصيحات الغضب .

وإذا كـان فى كلماتنا ما يُعرِّى الآثار القذرة لـ « إدراككم الصائب وذوقكم السليم » ، فإن تباشير بروق فجر الجمال الجديد فى الكلمة المكتفية بذاتها قد أخذت تهتز فوقها .

- « **آه ، أغمضوا ، أغمضوا عيون الصحف** » : من قصيدة مايـاكوفسكي « أمي والمساء الذي قتله الألمان » .

- « **أعشاب ريبين** » : كان الفنان « ريبين » نباتياً .

- « **ساتيريكون الجديدة** » : مجلة أسبوعية ساخرة .

- « **استدعوني** » : تم استدعاء ماياكوفسكي لأداء الخدمة العسكرية في أكتوبر ١٩١٥ ، وتم إلحاقه بالمدرسة العسكرية للسيارات في بتروجراد .

- «**دورة جوشكوف**» : إشارة إلى بدء دورة سياسية رجعية تحمل اسم «جوشكوف» وزير الجيش والبحرية في الحكومة الإقليمية .

- « **نوفايا جيزن** » (**الحياة الجديدة**) : جريدة نشر فيها ماياكوفسكي بعضاً من أعماله .

- « **بروليتكولت** » : جماعة الفن البروليتاري .

- « **الـ RSFSR** » : مفوضية الشعب للتعليم الشعبي .

- « **أندرييفا** » : ممثل في مسرح الفن في موسكو ، والمسئول - في ذلك الحين - عن إدارة المسرح في سوفييت بتروجراد .

- « **إنهم يؤسسون كومفوت** » : إشارة إلى تأسيس رابطة المستقبليين الشيوعيين .

« **اسكومستفوكوميونيتي** » : جريدة أسبوعية صدرت في بتروجراد من ديسمبر ١٩١٨ وحتى مارس ١٩١٩ .

- « **روستا ROSTA** » : اختصار لاسم وكالة التلغراف الروسية .

- « **أيام وليال في روستا** » : فترة امتدت من خريف ١٩١٩ إلى يناير ١٩٢١ ، أنجز ماياكوفسكي خلالها آلاف الملصقات الدعائية .

- « **ليف** » : الجبهة اليسارية للفن . اسم جماعة ومجلة أدبية أشرف عليها ماياكوفسكي . وقد صدرت المجلة خلال الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٥ . وفي عام ١٩٢٧ ، بدأت مجلة « نوفي ليف

= **ليف الجديدة » في الصدور برئاسة تحرير ماياكوفسكي . وفي عام ١٩٢٨ ، ترك ماياكوفسكي جماعة « ليف » .**

– « **قصيدة « ردىء » ... »** : لم تكتب .

– « **مسرحية »** : إشارة إلى مسرحية « بَقّة الفراش » التي انتهت كتابتها في النصف الثاني من ذلك العام .

إلى ليلى الحبيبة

– القصيدة مهداة إلى « **ليلى بريك** » .

– « **فصل من جحيم كروشونيك** » : إشارة إلى « مباريات في الجحيم » ، وهي قصيدة مستقبلية كتبها « كروشونيك » و « خليبنيكوف » .

تُخمة

– « **أنّينسكي ، تيوتشيف ، فيت** » : من شعراء القرن التاسع عشر في روسيا .

– « **بسيطًا كما الخوار** » : إحدى المجموعات الشعرية المبكرة التي صدرت لماياكوفسكي .

جسر بروكلين

– «**كوليدج**» : رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في زمن زيارة ماياكوفسكي لها .

إلى سيرجى إيسينين

أحد كبار الشعراء الروس فى القرن الحالى . وهو شاعر فَلّاح ، تجاوب مع ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، باعتبارها الطريق إلى تحقيق فردوسه الريفى المنشود ، الذى تتحقق فيه وحدة الإنسان مع الطبيعة فى عصر ذهبى . لكن أحلامه اصطدمت بـ « عصر حديدى » ، اقتحمت - خلاله - المصانع والقطارات الفردوس الريفى الروسى القابع فى ظلمات القرون الوسطى الناعمة . ولم تُفلح الخمر فى تبديد إحباطه العام ، ولا فى إصلاح علاقاته المجهضة في الحب ، فكان انتحاره . وقد انتحر في فندق « انجلترا » بلينينجراد ، فى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٥ ، وكتب قصيدته الأخيرة بالدم النازف من شريانه المقطوع .

ويظل « إيسينين » - وهو رائد مدرسة « الصورة الشعرية » - شاعر الغنائية والأسى ، والتمرد ، والضمير الفردى . ويظل صوت الجيل الذى هَفَا إلى سلام عذب وآمن فى حقبة من الانقلاب العنيف .

- « **العلاقة الطبقية البائسة** » : كان « الاتصال بالجماهير » شعاراً واسع الانتشار في العشرينيات ، موجهًا إلى المبدعين بالذات ، باعتبار هذا « الاتصال » ضمانًا أكيداً ضد السلوك والأفكار الخاطئة . وقد سخر ماياكوفسكى من فجاجة هذه الفكرة .

- « **الكَفَاس** » : مشروب شعبى روسى ، غير كحولى .

- « **أون ذا بوست Na Postu** » : مجلة معبرة عن إحدى الجماعات الأدبية الرئيسية فى العشرينيات ، هى الرابطة الروسية للكتاب البروليتاريين .

- **نيقولاى دورونين** » : شاعر معاصر لماياكوفسكى .

- « **لاكلمة ، أيها الأصدقاء ، لا تنهيدة** » : الكلمات الافتتاحية لأحد أعمال تشايكوفسكى ، من تأليف « بليشتشييف » .

- « **ليونيد سوبينوف** » : مغن شهير (تينور) ، شارك بالغناء فى الاحتفال بذكرى إيسينين ، الذى أقيم بمسرح الفن فى موسكو .

- « **لوينجرين** » : اعتبر دور « لوينجرين » ، فى أوبرا فاجنر ، أحد الأدوار التى أداها « سوبينوف » على نحو رائع .

- « **كوجان** » : ناقد ومؤرخ أدبى سوفيتى ، وأحد مسئولى مفوضية التعليم ، وكان موضع سخريات تهكمية عديدة من جانب ماياكوفسكى .

- « **الموت فى هذه الحياة ليس صعباً ، بناء الحياة هو الأصعب** » : إعادة صياغة لأبيات « إيسينين » : « الموت فى هذه الحياة ليس جديداً ، لكن الحياة - بالتأكيد - ليست أكثر جدة » .

رسالة من باريس

- « **كوستروف** » : رئيس تحرير جريدة « كومسومولسكايا برافدا » فى ذلك الحين .

ها أنا أحب

- « **موللر** » : مؤلف كتاب وجيز للتمرينات الرياضية .

- « **اليوفايسكى** » : مؤلف العديد من كتب التاريخ المكتوبة بروح ملكية رجعية .

- « **دوبروليوبوف** » (١٨٣٦ - ١٨٦١) : كاتب وناقد أدبى ديموقراطى ثورى . واسمه يعنى « محب الخير » .

- « سادوفايا » : أحد الشوارع الرئيسية في موسكو ، وهو يدور حول وسط المدينة .

- « ستراستنايا » : أحد ميادين موسكو .

- « سَلْفِي المُوبَاسَّانى » : إشارة إلى قصة موباسان - الكاتب الفرنسي - « أنشودة رعوية » .

- « فارس بوشكين » : إشارة إلى شخصية الفارس في مسرحية « الفارس الطماع » لبوشكين .

إلى الجميع وكل شىء

- « وجه رازين » : هو « ستيبان رازين » ، قائد الانتفاضة الفلاحية الروسية فى أواخر القرن السابع عشر .

غيمة فى بنطلون

- « لوزيتانيا » : سفينة انجليزية احترقت وغرقت فى البحر ، بفعل نيران إحدى الغواصات الألمانية عام ١٩١٥ .

- « جلجثات المنابر » : إشارة إلي الرحلة التى قام بها ماياكوفسكى وجماعة المستقبليين عبر روسيا ، أواخر عام ١٩١٣ وأوائل عام ١٩١٤ .

- « رائع أن تلتف روحك فى قميص أصفر » : فى بداياته المستقبلية ، كان ماياكوفسكى يتعمد ارتداء قميص أصفر غريب ، كنوع من التحدى للذوق البرجوازى السائد .

- « اشربوا كاكاو فان هوتن ! » : إشارة إلى واقعة حقيقية نشرتها صحف تلك الفترة عن محكوم عليه بالإعدام ، وافق على أن يهتف بهذا الإعلان قبل تنفيذ الحكم ، مقابل أن تَعُول المؤسسة المنتجة أسرته بعد إعدامه .

- « **إيجور سيفريانين** » (١٨٨٧ - ١٩٤١) : شاعر معاصر لماياكوفسكي ، ينتمي إلى تيار « المستقبليين الذاتيين » .

- « **الجنرال جاستون جاليفيه** » (١٨٣٠ - ١٩٠٩) : هو الجنرال الفرنسي المسئول عن تنفيذ المذابح التي جرت ضد كوميونة باريس ١٨٧١ .

- « **بيرليوك** » : شاعر وفنان روسي من المستقبليين .

- « **يقيم وليمة كما ماماي** » : إشارة إلى عادة تترية يجلس بمقتضاها المنتصرون - في احتفالهم - على ألواح خشبية ممدودة فوق جثث المهزومين . واقعيًا ، لم يكن الخان « ماماي » هو من فعل ذلك ، بل قادة « جنكيزخان» هم الذين فعلوه ، عقب معركة نهر كالكا ، في القرن الثالث عشر .

- « **آزيف** » : عميل محرض كان يعمل في خدمة البوليس السري القيصري .

- « **بريسنيا** » : أحد شوارع موسكو ، حيث كانت والدة الشاعر وشقيقته تعيشان .

- « **تيانا** » : امرأة أهدى إليها « سيفريانين » قصيدته التي تحمل نفس الاسم .

- « **كي - كا - بو** » : رقصة كانت تمثل أحدث الموضات في الرقص ، في تلك الفترة .

إنســــان

صدرت أول طبعة مستقلة من القصيدة في فبراير ١٩١٨ .

- « **سمكة صغيرة متكلمة** » : إشارة إلى « حكاية السمكة الذهبية » لبوشكين .

- « **ألفريد بريم** » (١٨٢٩ - ١٨٨٤) : عالم حيوان ألماني شهير ، مؤلف « حياة الحيوانات » .

- « **لوك ، ويليام جون** » (١٨٦٣ - ١٩٣٠) : مؤلف بريطاني للعديد من الروايات المسلية ذات « النهايات السعيدة » .

- « **الشيطان** » : الشخصية الرئيسية فى أهم قصائد الشاعر الروسى ليرمونتوف ، التى تحمل نفس الاسم ، وقد تمت ترجمتها إلى العربية ضمن مختارات لشاعرها ، قام بها مترجم هذا الكتاب .

- « **صباح الخير ، أبرام فاسيليفيتش** » : هو « ايفنين » ، أحد معارف ماياكوفسكى .

- « **ومن كوة .. وأس مُهرة** » : رأس المهرة المنحوتة في كوة جدار أحد بيوت شارع زوكوفسكى ، ببتروجراد ، حيث كانت « ليلى بريك » تعيش .

المراجـــع

١ - الكسندرا مـاياكوفسكايا ، « إبنى .. مـاياكوفسكى » ، **مجلة الكرمل** (الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين) ، العدد ١٩٨٣/٩ ، ص ص ٢٨٣ ، ٢٨٨ .

٢ - بورا ، س . م .. **التجربة الخلاقة** ، ترجمة سلافة الحجاوى ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ .

٣ - جون ريد ، **عشرة أيام هزت العالم** ، موسكو : دار التقدم ، ١٩٧٢ .

٤ - حياة شرارة ، **ماياكوفسكى** ، سلسلة أعلام الفكر العالمى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٦ .

٥ - صبرى حافظ ، « الشعر الروسى الحديث : ملامحه واتجاهاته » ، **مجلة عالم الفكر** ، الكويت ، المجلد السابع / العدد الأول ، أبريل - مايو - يونيو ١٩٧٦ ، ص ص ١٦٧ ، ٢٣٠ .

٦ - صلاح عبد الصبور ، **أصوات العصر** ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار المعرفة ، ١٩٦١ .

٧ - على شلش ، « نيويورك فى ست قصائد » ، **مجلة فصول** ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المجلد الثالث / العدد الرابع ، يوليو / سبتمبر ١٩٨٣ .

٨ - لينين ، **فى الأدب والفن** ، ترجمة يوسف حلاق ، جـ٢ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٧٣ .

٩ - لينين ، **الرسائل والمقالات الأخيرة** ، موسكو : دار التقدم (د. ت) .

١٠ - معين بسيسو ، **أدب القفز بالمظلات** ، القاهرة : دار الهلال ، كتاب الهلال (٢٥٤) ، مارس ١٩٧٢ .

١١ - يبيفانوف ، فيدوسوف ، **تاريخ الاتحاد السوفيتى** ، ترجمة خيرى الضامن ونقولا الطويل ، موسكو ، دار التقدم (د. ت) .

LENIN, V.I., *On Literature and Art*, First printing, Moscow, Progress Pubishers, 1967 .

LUNACHARSKY, A., *On Literature and Art*, Second -edition, Moscow, Progress Publishers, 1973.

MAYAKOVSKY, V., *Poems*, First printing, Moscow, Progress Publishers, 1972.

MAYAKOVSKY, V., *Selected Works in three Volumes*, Raduga Publishers, Moscow 1985.

METCHENKO, A. et all., *Vladimir Mayakovsky : Innovator*, First printing, Moscow, Progerss Publishers, 1974.

PERTSOV, V., A Great Post of the Soviet Epoch (in : *Mayakovsky, V., Poems, Ibid*), pp. 7 - 24.

SLONIM, M., *An Outline of Russian Literature*, London, Oxford University Press, 1958.

للمترجـــم

شـــعر :

وردة الفوضى الجميلة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ .

إشراقات رفعت سلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ .

إنها تُومئ لـي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٣ ؛

طبعة ثانية : سلسلة « نوافذ » ، القاهرة ١٩٩٦ .

هكذا قُلت للهاوية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣ .

إلى النهار الماضى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٧ .

دراسات :

المسرح الشعرى العربى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ .

بحثًا عن التراث العربى : نظرة نقديـة منهجية ، الهيئة المصرية العامـة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ ؛ دار الفارابى ، بيروت ١٩٨٩ .

بحثًا عن الشعر .. (تحت الطبع) .

ترجمة :

الفجر .. وقصائد أخرى ، بوشكين ، دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٨٢ .

غيمة فى بنطلون .. وقصائـــد أخـرى ، ماياكوفسكى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٨٥ .

الإبداع القصصى عند يوسف إدريس ، كربرشويك ، دار شهدى ، القاهرة ١٩٨٧ ؛ طبعة ثانية : دار سعاد الصباح ، القاهرة ، الكويت ١٩٩٣ .

الشيطان .. وقصائد أخرى ، ليرمونتوف ، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ، الشارقة ١٩٩١ .

اللذة الأولى ، ريتسوس ، الملحقية الثقافية اليونانية بالقاهرة ، القاهرة ١٩٩٢ ؛ طبعة ثانية : دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٥ .

هذه اللحظة الرهيبة (قصائد من كرواتيا) ، المركز المصرى العربى ، القاهرة ١٩٩٧ .

البعيد (مختارات شعرية شاملة) ، ريتسوس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٧ .

المحتويات

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧١٦١ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 013 - 0)

هو صوت المشاهد الذى يصف ما يرى ، ويكشف ما يتخفى وراء أستار العادة أو التواطؤ أو اللامبالاة ، وما يتلبس مسوح الحقيقة من بهتان وفساد ، وما يتقنع بالرطانة الثورية المباحة من انتهازية وعفن ، وهو - فى ذلك - ليس متفرجاً ، وإنما فضّاح أعظم ، يهوي إباحة الأسرار ، وانتهاك التواطؤات ، وكسر أسوار الصمت الضمنية إنه - بمعنى أدق - ليس مشاهداً ، بل شاهد . وهو شاهد متطفل ، لا ينتظر دعوة لن تجىء للنطق بشهادته ؛ وإنما يمنح نفسه حق إطلاقها ، أو الصراخ بها . من تلقاء نفسه ، وقتما يريد ، وكيفما يريد . لذلك ، فهو الشاهد الذى لا يرحب أحد بوجوده ، ولا بشهادته . فهو ليس شاهد نفى ، لكنه شاهد إثبات . وربما كان شاهد الإثبات الوحيد . شاهد مرفوض ، لكنه غير قابل للتجاهل ، بقدر ما لا يمكن تجاهل الفضيحة الدامغة .